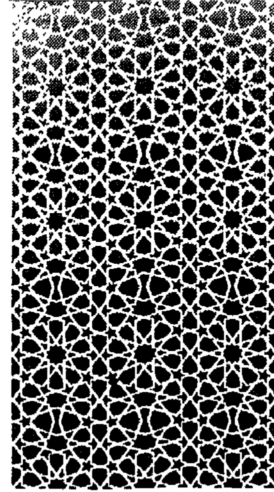


إبراهيم محمود
أمل دكاك
باسمة العسلي
عبد التواب يوسف
عبدالرزاق جعفر
عبدالله أبوهيف
عبدالواحد علواني

تحرير
عبدالواحد علواني

ثقافة الطفل
واقع وآفاق



بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافة الطفل

واقع وآفاق

ثقافة الطفل واقع وآفاق/ إبراهيم محمود . . .
[وآخرون]. - دمشق : دارالفكر، ١٩٩٧ .-
١٨٣ ص ؛ ٢٤ سم.
١- ٣٠٥,٢ م ح م ث ٢- العنوان ٣- محمود
مكتبة الأسد
ع : ١٩٩٧/١٠/١٨٥٤



ثقافة الطفل

واقع وآفاق

المشاركون

إبراهيم محمود — عبد التواب يوسف

د. أمل دكاك — د. عبد الرزاق جعفر

باسمة العسلي — د. عبد الله أبو هيف

عبد الواحد علواني

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



الرقم الاصطلاحي: ١٠٤٢,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-221-x
الرقم الموضوعي: ٣٧٠
الموضوع: تربية وتعليم
العنوان: ثقافة الطفل
التأليف: عدد من الكتاب
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٨٤ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعادة الطبعة الأولى

1418 هـ = 1997 م

ط: 1995 م

المحتوى

تقديم

ثقافة الطفل : واقع وآفاق

لاشك أننا نلاحظ اهتماماً متنامياً في المحيط العربي والإسلامي بثقافة الطفل ، ولكنه نمو نسبي لا يغري كثيراً بالتفاؤل والاستبشار ، فمع جهود الجهات والأشخاص المهتمين الكبيرة ، نجد أن آثارها طفيفة جداً وتكاد لا تذكر ، وخاصة عند المقارنة بالاهتمام العالمي ، فقد أدركت الأمم أولوية العناية بثقافة الطفل ، وما زلنا عاجزين عن إدراك هذه الأهمية ، على الرغم من أن الواقع يدل على حاجتنا الماسة - أكثر من سوانا - إلى وعي هذه الثقافة ودورها في بناء الفرد والمجتمع . بل إن الواقع باختلاله الواضح يستصرخ فينا الجهود والوعي ، إذ لا بد من أن ترتقي هذه الثقافة إلى مرتبة الهاجس الأكثر ملازمة والأكثر تطلباً للبحث والدراسة والاعتناء والتجريب . ولن يكون سبيل الارتقاء ممهداً ما لم نرتقِ بثقافة الطفل إلى مقدمة هواجسنا واهتماماتنا .

وهذا الملف الغني حصيلة آراء في جوانب من ثقافة الطفل من مختصين وباحثين ومهتمين يرتبطون مع هذه الثقافة برباط وثيق ، ويسهمون فيها وفي تحسين واقعها وآفاقها إسهاماً واضحاً ، لعلها تكون - بل إيماناً بها - سبيلاً إلى إنماء الوعي الاجتماعي ، ورفده بما يجعله في موقع الفاعلية .

ومما يميز هذا الكتاب الجامع للعديد من الرؤى والآراء أنه يتعرض لجوانب إشكالية ، وإن كان يركز بعض الشيء على أدب الأطفال ، فهذا لأهمية أدب الأطفال في ثقافة وتكوين الطفل من جهة ، ولأن أدب الأطفال لا يزال في وضع متردٍ اهتماماً ، وعرضة للإهمال والنظرات القاصرة تربوياً من جهة أخرى .

ففي الفصل الأول أتعرض إلى مفهوم يدخل في إطار أي جانب كان من جوانب ثقافة الطفل وتربيته وتنشئته ، وهو مفهوم إشكالي سواء أكان على صعيد نظري أو على صعيد عملي ، وذلك أن ثمة نزوع إلى أحد جوانب هذا المفهوم ، وبالتالي هناك نوع من الاختلال في التوازن المطلوب بداية وقبل الشروع في أي عمل نظري أو تطبيقي . وهذا المفهوم هو التوازن المطلوب بين الجذور والأجنحة .

وفي الفصل التالي يطرح الدكتور عبد الله أبو هيف آراءه حول أهمية ثقافة الطفل في واقعنا الراهن ، فيدخل من باب توضيح الاصطلاح وبحث واقع هذه الثقافة ودورها في بناء الفرد ، وأثرها على النمو الاجتماعي والمعرفي ، ليستخلص الأسباب التي تجعل الاهتمام بهذه الثقافة ضرورة ملحة .

أما الأستاذ الأديب عبد التواب يوسف فيقدم في سرد شيق خريطة أدب الأطفال عالمياً محدداً عليها موقع الوطن العربي ، ومن خلال تقديمه هذا يطرح الجوانب الإشكالية وضرورة حلها .

والدكتور عبد الرزاق جعفر يتعرض إلى جانب آخر من الجوانب الهامة جداً في ثقافة الطفل ، إذ يبحث في حدود أدب الأطفال ، فيدخل ضمن دائرة البحث العلمي عن ماهية أدب الأطفال وضوابطه .

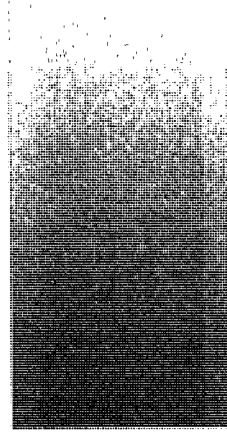
والأستاذة باسمة العسلي تتوجه إلى كتّاب الأطفال طارحة رؤاها ومقارناتها ليكون هذا الأدب في مستوى أهميته ، باحثة في طرق تقديم هذا الأدب أيضاً ، فهي توزع اهتمامها على مضمون وشكل هذا الأدب مؤكدة أهمية كل منهما .

أمـا الأستـاذ إبراهيم محمـود فيطرح وجهـة نظر تتعلـق بـأدب الأطفـال والأطفـال وكتّاب أدب الأطفال في جدلهم مع الواقع ، وهو يستخلص من دراسته أهميـة أن يكون أدب الأطفال حقيقياً وقيماً ليسهم في إنتاج وتربية نشءٍ حقيقي واع ومتزن وفاعل .

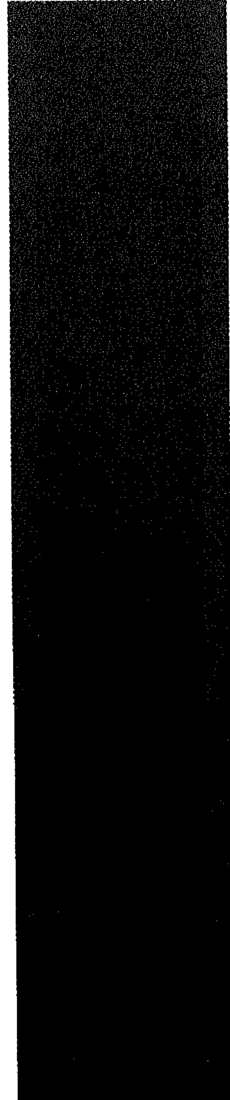
ثم نعرج مع الدكتورة أمل دكاك على موضوع بالغ الأهمية في ثقـافـة الطفل وهو : تأثير وسائل الاتصال الجماهيري على تنشئة الطفل . إذ تبين لنا الباحثة أهمية تقييم هـذه الوسائل ، والحكمة في أن تكون موجهة بشكل بناء ، وكذلك تبين المحـاذير الخطيرة لأي إهمال أو سوء تقدير .

والمقالات السابقة كلها تشكل في مجموعهـا مـادة غنيـة لاطلاع كل المهتمين والمشرفين والمربين ، عسى أن تكون إضافة مفيدة ، وبادرة اهتمام نوعي شـامل بـالطفل وثقـافتـه وأدبه .

عبد الواحد علواني



الفصل الأول



الجذور والأجنحة

عبد الواحد علواني

خير ما يقدمه كل جيل للجيل الذي يليه جذور راسخة ، وأجنحة واعدة ، جذور منها يستمد عناصر بنيانه ، وسياء شخصه ، وتقاليد عراقته ، ونكهة أصالته ، وملامح هويته ، وفرادة انتمائه وخصوصيته . وأجنحة بها يحلق ويبدع ، ويؤسس لآفاق مأمولة ، وبها يرفع من شأن نفسه ومجتمعه في شتى مجالات الحياة .

فأن يكون كل جيل امتداداً لسابقه لا يعني أن يكون على شاكلته لا يحيد عن صفاته قيد أنملة .. إنما يعني أن يكون مستوعباً لتجربته ، متجاوزاً معرفته إلى آفاق أرحب ، محافظاً على انتمائه لجذوره ، مع محاولته الدائبة لترشيد هذه الجذور ، والارتقاء بها مواكبة لتقدم المعرفة والخبرة الإنسانية .

وثقافة الطفل تشكل الجانب الأكثر إثارة لهذه الإشكالية : الجذور والأجنحة ، التي تختزل الثنائيات الإشكالية المتداولة مثل : الأصالة والمعاصرة ، الماضي والحاضر ، التراث والتجديد ، النقل والعقل ، الاتباع والإبداع ... إلخ ، فثقافة الطفل ضمان تمثله لهويته وارتباطه بأسلافه وإدراكه لتاريخه ، وكذلك بوابة الانطلاق لتخطيط المستقبل ومقاربة الآفاق وتجاوزها نحو آفاق أكثر اتساعاً . لذلك تبدو التربية وعلوم التنشئة أكثر ما هو معني بهذه الإشكاليات التي تبدو إشكاليات لأنها تهمل ثقافة الطفل وضرورة بحث جوانبها وزيادة العناية بها . فبقدر ما تبدو هذه الإشكاليات متضادة في ثنائياتها بقدر

مـا نكون بعيـدين عن منطق التـاريـخ ومـواكبـة العلم وسيرورة النمو المعرفي ، وبقـدر ما تبدو متوائمة متآلفة بقدر ما تكون خارج إطار الإشكاليات وبقدر مـا نكون أقرب إلى العلم والمعرفة .

فهـذه الثنـائيـات تتحول إلى عوامل هـدم وتمزيق بـدلاً من أن تكون عوامل بنـاء وتمازج ، إنها نقاط توازن على محاور عدة ، فالميل إلى إحداها أو عن إحـداهـا يؤدي إلى تخلخل التوازن وبـالتـالي السير في طريق السقوط والانحـدار ، أمـا الحفـاظ على نقـاط ارتكاز تميـل إلى حيث يكـون التـوزان السليم بـدايـة استقرارٍ وتفرغٍ للنهضـة الفكريـة والعلمية والعملية .

فالجـذور هي مـا يـدخره الجيل السـابق للجيل اللاحق من تراث وتـاريخ وخبرة ومنـاهج ومعـارف وعلوم وقيم وأخلاقيـات وعـادات ومثل .. إلخ ، وكلهـا أمور دفعت المجتمعات الإنسانية ثمنها قروناً طويلة ومن الجهود وتراكم الخبرات والتجـارب التي لم يكن ادّخارها يسيراً .. بل نستطيع القول إن ما يميز المجتمع الإنساني والوجود الإنساني هو تراكم المعرفـة والخبرات والقـدرة على التواصل مـع المـاضي سـواء بتـوارث الطبـاع والتقـاليـد والخبرات أو عبر نقل العلم والمعرفة والنتائجْ والعبر .

والجذور هي أساس أي وجود ، وكلما كانت راسخة ممتدة كلما كان الوجود راسخـاً صلباً ، وكلما كانت طيبة عريقة كلما كان الوجود طيباً وأصيلاً ، وهي دعـامـة الحـاضر ومن خلاله دعامة مشتركة معه للمستقبل .

ولكنها في نفس الوقت (ولقلة في الوعي بدورها وطريقة استثمـارهـا) قـد تشكل حاجزاً عصياً يأسر الحاضر ويكبله وينزل به إلى الحضيض ويحجب عنه الرؤية الواعيـة للمستقبل . وهي لا تحمل تبعة الانحدار والانحطاط بقدر ما يتحمله الحاضر بسوء فهمه .

أمـا الأجنحـة فهي الآمـال والأحلام والآفـاق والطموحـات والرغبـات اللجوجـة لتحسين الواقع الإنسـاني والارتقـاء بـه في مـدارج الاكتمال والطمأنينـة والحضـارة ، وهي

وسيلة لتجاوز العثرات وتنمية العمران البشري ليكون أكثر سمواً ومعرفة وعلماً ، إنها السعي الدائب نحو الأفضل ، وإن تحررت من عقال الجذور ، فلا يعني هذا عدم استنادها إليها ، بل الاستجابة لطبيعة النمو المعرفي والعمران البشري المتصاعدة نحو الأفضل بشكل عام . فهي تعمل اعتماداً على خبرة الجذور التي مهدت لها بمجاوزتها ، وهي أيضاً استجابة منطقية لسيرورة الزمن وتحولاته وما يستجد من نظمه المعرفية والاجتماعية والعلمية ، إنها المقاربة الدائمة لآفاق الكشف الفكري والعلمي . إنها أكثر أشكال الوفاء للجذور أصالة ووعياً ، فما كان لهذه الجذور أن تصل إلى ما وصلت إليه ما لم تأخذ بحسبانها كونها مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني والتجربة الإنسانية ، ما لم تدرك أنها أجنحة زمنها لنقل خبرات ماضيها ، بعد رفدها بالمزيد من الجوانب العلمية والعقلية ؛ إلى مستقبلها ؛ لتكون مادة تعتمد عليها الأجيال اللاحقة ؛ وتكون أساساً لمجاوزتها إلى مستقبل أكثر اكتمالاً .

أما واقعنا الحاضر فلا يدل على فهم صحيح للجذور والأجنحة ، بل إنه يركز بكل أسف على أسر الحاضر وتكبيله بما يرفضه حتى منهج الجذور . وكذلك فإنه يحاول جهده قص الأجنحة وتعطيلها إلى حد الضمور ، متناسية حاجة المجتمع الماسة إليها ... بل وعاجزة عن الربط بين الأزمات والإحباطات والتخلف المتفشي في الواقع الحاضر وبين المنهجية اللاعقلانية التي تصر على بتر الأجنحة . وإن أطلق سراح الأجنحة فثمة قيود تفرض عليها التحليق في أجواء الماضي وعدم مجاوزتها وإلا اتهمت بالمروق والخروج ، وبالتالي تُستأصل من جذورها ، وتُرفض وتُقابل بالعداء المزمن الذي يكون سبباً في خروجها بشكل فعلي غالباً .

وهذه الطرق التعسفية والمضادة لأي تجديد ـ رغم اعتدادها بالتجديد وادعاءاتها المستمرة بأنها في نهجه ـ لا تبتر المستقبل فقط ، إنما تحكم على نفسها بالجمود والعطالة والتقوقع والتقزم ، وتضع مصير الأمّة في زوايا الإهمال والضياع والجهالة ، ولبئس ما يصنعون !

فنحن نشهد وعلى جميع المستويات وداخل كل الأطر إصراراً متنامياً على الاكتفاء بالجذور ، ومحاولات دائبة لتأسيس الجذور وزيادتها والمحاصرة بها ، دون أن يواكب هذا الإصرار وعي بدور الأجنحة ، وأكثر ما يُظهر هذا التصور ثقافة الطفل المرتهنة دوماً بتصورات تمارس دورها في قولبة الأجيال اللاحقة ليكونوا نماذج مماثلة ومطابقة تماماً لسابقها ، حتى لو رفض منطق الحضارة والعلم وتطور الحياة البشرية هذه النماذج ، فالماضي يفرض على ثقافة الطفل ليحاصرها لا ليمدها بالأسس المعينة لها لتكون فاعلة وبناءة ، تتيح للأجيال الجديدة النهوض ومواكبة التحضر وقيادة المسيرة البشرية نحو الأفضل .

ثمة إصرار غريب يبدأ من الأسرة وعبر المجتمع ومؤسساته على استثمار سلبي في غاية السلبية للماضي .. وهذا الإصرار ينتج أفراداً يعانون منذ غضاضتهم وطيلة سنوات عمرهم من انفصام شامل ، فلاهم قادرون على الاستفادة من الماضي أو الخروج عن أسفهم على عراقته التي ضاعت منهم ، ولا هم قادرون على عمران الحاضر ليكون متميزاً ورفيعاً ، ولا هم قادرون على تجاوز مستجدات العصر أو الانعتاق من آثار رفضهم اللامعقول لها ، لذلك فهي تغزوهم وتسيطر عليهم وتسلبهم حريتهم وإرادتهم ، بل وحتى ولاءهم لهذا الماضي !

إن المجتمع الذي يتخلى عن جذوره مجتمع مبتور عاجز عن الوصول إلى الاستقرار اللازم لعمران راسخ ، والمجتمع الرافض للأجنحة مجتمع هش عاجز عن الخروج من الحضيض والمواقع الدنيا . فالبذرة الخيرة والمثمرة لا ترجع إلى جذورها الطيبة لتنطمر ثانية في التربة ، إذ مهما كانت الجذور طيبة فلن تنجو من التعفن والتحلّل ، وكذلك لا تسعى في مهب الريح متخلية عن جذورها إذ مهما كانت الآفاق واعدة فمصيرها إلى الجفاف واليباس قبل أن تكتمل ثمرة ، إنما يكون سعيها الحثيث على الأخذ من هذه الجذور النسغ الذي يكفل لها الامتداد نحو الفضاء دون أن تخشى التحلل أو الجفاف !

والأطفال بذور المستقبل الواعدة ، وبناؤهم يشتمل على العناية بكل الجوانب المميزة للوجود البشري ، فلابد من إمدادهم بالنسغ ، لا حصرهم في التربة مهما كانت تربة خصبة وغنية ، بل إن هذا الخصب والغنى من أهم أسباب الثقة بنموهم وتنشئتهم النشأة الكفيلة بإمدادهم بالأجنحة .

ولا بد من تمكين أجنحتهم حتى لا تميد بهم ، وتحيد بهم بالتالي إلى مواقع الانكسار ومهاوي التردي . ولتكون أجنحتهم مكينة ومتينة لابدّ من فهم قوانين الفضاءات التي سيحلقون فيها فهماً واعياً متبصراً ، ليكون بمقدورهم الحفاظ على وجودهم الصحي والأصيل .

لا بد لنا من تصحيح مفاهيمنا التربوية (وغيرها من المفاهيم العلمية) عن الأصالة والماضي والجذور والسلف والتاريخ .. إلخ ، ولابد من تأسيس فهم سليم للعصر والتجديد والمستقبل .. إذا ما رمنا النهوض من كبوة طال أمدها وثقل وطؤها ... والتفكير في الأولويات والأصول والآفاق يجب أن يخرج من إطار التجاذب والخلاف ، إلى حيث التطبيق والتفاعل سواء أكان في الفقه والاجتهاد أو في التربية والتعليم أو غيرها .

الاكتفاء بمد الجسور مع الماضي ، له آثار سلبية جمة ، ولكي نتخطى هذا الاكتفاء والتحديد يجب أن نسلك (فعلاً) طبعاً تربوياً فعالاً مبنياً على الثقة بمستقبل الأجيال إذا ما بنيت بشكل سليم ، فالواقع يدل على أن السعي نحو مدّ الجذور ، وإهمال الأجنحة ، سعي وحيد في الواقع مهما بالغنا في الادّعاء .

ثمة جوانب توقيفية في الحياة بشكل عام ، فالأخلاق جانب توقيفي ، ومهما تطور العلم ونمت المعرفة ، فلن ينقلب الصدق إلى موقع الكذب أو تنقلب الأمانة إلى موقع الغش والخداع ، فالصدق جميل في الماضي والحاضر ، وسيبقى جميلاً في المستقبل ، والكذب غير مستساغ سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، ولكن فهم هذه الجوانب

يتطور مع الزمن ، ومع تطور الزمن ونمو المعرفة واتساع التجربة البشرية تتحدد سمات الصدق وآثاره بدقة أكبر ، بل تزداد دلالاته الجمالية والوظيفية وفوائده العميمة والجمّة ، وعواقب الإخلال به الوخيمة على صاحبه قبل غيره . لذلك فإن بناءها (الجوانب التوقيفية) على أساس خبرة الماضي والتاريخ والتشريع والقانون والأصول ضرورة لاشك فيها ، ولكن إطلاق الأجنحة نحو فهم أكثر دقة وأكثر وعياً أمر أهمّ بكثير .

حتى في فهمنا خصوصيتنا كمجتمع معين أو مجتمعات متقاربة ، مهما كانت الأسس متينة ، فلن تصمد أمام تحولات الزمن مالم تواكب بالجهود الحثيثة والمحلقة ، ذلك أن الأسس بحدّ ذاتها بحاجة إلى سيرورة عقلنة مستمرة ... والعقلنة هنا تدخل في إطار التكامل .. تكامل الفكرة وتأصيلها من خلال التجربة المستمرة .

الاعتزاز بالأمجاد السابقة والتاريخ العريق حق طبيعي لكل فرد ومجتمع ذلك أن هذا الاعتزاز بحد ذاته يعني استعداداً مطلقاً للبقاء في موقع التميز ، ولكن الأساليب الكَلّية والاتكالية هي بالأساس إساءة بحق هذه الأمجاد وهذا التاريخ . لأن ما مضى هو أسير معرفة مضت ، وما هو حاضر هو في ضوء معرفة حاضرة ، وشتان بين المعرفة الحاضرة والماضية . وحتى الجوانب الإيمانية العقيدية والأيديولوجية يستند فهمها إلى جوانب معرفية ، وبالتالي تخضع لقوانين تطور المعرفة وتحولاتها . إن أفضل أنواع الإكرام للماضي هو أن نستند عليه لنتجاوزه إلى الأفضل ، وأفضل أنواع التقديس للجوانب الإيمانية ، أن نرتفع بها إلى درجة اليقين العقلاني لنروز فهمنا وإيماننا بالدرجة الأولى .

الماضي خير معين لتأسيس التجربة اللاحقة ، والحياة تجارب متلاحقة كل تجربة تؤسس للتجربة التي تليها (سواء أكانت التجربة على صعيد فردي أو اجتماعي) ، وكل تجربة تتميز عن سابقتها بريادتها لفضاءات لم تعرفها التجربة السابقة ، وإلا فهي نوع من الاجترار الذي يدل ـ أقل ما يدلّ ـ على نقص في الوعي التاريخي والحياتي .

لعلنا طرحنا مفاهيم إشكالية ، وتعاملنا بصيغ تعميمية تناقض التصور الصحيح لها ، فكلمات مثل الأمة أو الماضي أو التاريخ ليست بهذا التعميم ، فالواقع يدل على تصورات متعددة جداً ، ولكن نطرح تصورنا هذا انطلاقاً من سهولة تطبيقه ومناقشته داخل أي إطار أو ضمن أي تصور ! بل لعل هذا التوازن بين الجذور والأجنحة يوحد هذه المفاهيم ويمهد لروابط أكثر تفاعلاً وإبداعاً .

ولئن كانت مهمة التربية (وثقافة الطفل ضمناً) تعني إعداد فرد آخر ينتمي إلى المجتمع ويتسم بسماته الاجتماعية والخلقية والسلوكية ، فهذا الإجراء له أسباب تتعلق بتاريخ مشترك وجغرافية موحدة ، أو باختصار بيئة واحدة مع تحمله هذه البيئة من مثل ومضامين ، ولكن مهمة التربية لا تنفصل عن إعداد الفرد ليتكيف مع الحياة والمستجدات ، وهذا يعني مدّه بالأجنحة التي تعينه على التكيف والتطور والإبداع استجابة لمنطق الزمن .

ولعلّ أكثر ما يمثل الأجنحة إطلاق المخيلة والفكر لدى الفرد منذ نشأته الأولى بعد أن تمده الجذور بالغايات والأهداف والسبل الأساسية ، بل إن التأمل والتفكير من أهم سمات الوجود الإنساني الرفيع . بل إن إنماء هذه الطباع والسلوكيات التي تحضّ على البحث والتوسع في المعرفة أهم سمات الحيوية والتكيف . وهي الدلالة على استمرار الوجود المبدع .

لذلك نعود لنؤكد أن أهم ما يمنحه كل جيل للجيل الذي يليه جذور وأجنحة .. أو بالأحرى جذور راسخة وأجنحة واعدة .

الفصل الثاني

الأهمية الراهنة لثقافة الأطفال

د. عبد الله أبو هيف

١ ـ مفهوم ثقافة الأطفال :

يتفق غالبية الباحثين في ثقافة الأطفال ، أن مفهوم الثقافة شامل ، يتسع للعادات والقيم والمعتقدات ، وأساليب السلوك والعلاقات ، والأدوار والتقنيات التي ينبغي تعلمها ، والتكيف معها بما يعطي الحياة نمطاً محدداً . أما ثقافة الأطفال العرب ، فتتصل بعملية التنشئة الاجتماعية برمتها ، انطلاقاً من مفهوم الثقافة ، ولا سيما الثقافة العربية ، وهذا يعني اعتمال ثقافة الأطفال العرب ، بتكوين شخصية الطفل العربي وانتمائه إلى ثقافته القومية وإرساء أسس هوية عربية متينة[١] .

وإذا كان للثقافة على وجه العموم وظائف محددة توجز بوظيفتين : اجتماعية ونفسية فإنها وظيفة واحدة تتوجه إلى (قولبة) أفراد المجتمع وفق الإيديولوجية السائدة وفي مجالات ثقافة الأطفال ، غالباً ماتورث تعارضات الإيديولوجية ، بوصفها نظاماً فكرياً ملتبساً يعنى بالعقائد السياسية بالدرجة الأولى .

إننا نخاطر في سبيل عملية التنشئة الاجتماعية إلى تهديد الأصالة الثقافية والتقاليد الثقافية القومية ، فالإيديولوجية توصف عادة بالتضليل ، والأفضل استخدام (فكر) .وقد احترزت الخطة الشاملة للثقافة العربية من محاذير تضييق الثقافة إلى حدود العقائد السياسية وتقلبات خطبها الإيديولوجية .

---

(١) حجازي ، د . مصطفى (وزملاؤه) : ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة ، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ـ الرباط ـ ١٩٩٠ ، ص ٣٠ـ٣١ .

والأهم من المحاذير طغيان الإيديولوجيات الاغترابية على ثقافة الطفل العربي ، وهو حاصل ، للأسف ، في كثير من المنتجات الثقافية الموجهة للطفل العربي(٢) .

غير أن مفهوم ثقافة الأطفال العرب لا يتحدد على مثل هذا النحو المجرد ، لأنه يتصل بواقع متغير يكتسب توصيفه من معاينة النظرة العربية إلى ثقافة الطفل ، ومن معاينة أدوار المؤسسات الاجتماعية والتربوية والثقافية والإعلامية الرسمية وغير الرسمية . المعنية بالخطاب الثقافي للأطفال ، ومن فعاليات التثقيف التي تسمى عند الباحثين بالآليات أو الديناميات عبر وسائط ثقافة الأطفال ووسائل الاتصال بجماهير الأطفال أي الصورة التي تتحقق بها ثقافة الأطفال العرب في مجتمعهم . لقد صاغت الخطة الشاملة للثقافة العربية أسساً ثابتة لتنمية ثقافة الأطفال العرب هي :

« ـ تأصيل الهوية الثقافية مع التطلع المستقبلي ، مع اهتمام خاص باللغة العربية .

ـ التأكيد على التراث العربي الإسلامي وما يزخر به من منجزات .

ـ استخدام الثقافة من أجل إطلاق طاقات النمو عند الطفل .

ـ التأكيد على التحصين الثقافي العربي ضد الغزو الثقافي والاغتراب .

ـ اعتماد مبدأ قومية وشمولية التخطيط لثقافة الطفل والتنسيق بين جميع مجالاتها ووسائطها .

ـ قيام هذا التخطيط على دراسات علمية تتناول جميع جوانب حياة الطفل ، يقوم على تنسيق جهود المختصين في مختلف وسائط ثقافة الطفل .

ـ العناية الخاصة بإعداد الخبراء والفنيين في مختلف مجالات ثقافة الطفل وتربيته .

---

(٢) أبو هيف ، د . عبد الله : الطفل والتراث والوطن في جريدة « صوت الكويت » ـ لندن ـ ٩ تشرين الأول ـ ١٩٩٢ م ـ ص ٢٨ .

ـ ثم تعرض الخطة توصيات فنية في مجالات محددة ، مثل أدب الأطفال ، الخدمات المكتبية ، النشر والتوزيع ، مسرح الطفل ، وسائل الترفيه ، ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية » .

ولتحيص واقع ثقافة الأطفال العرب يتعين علينا أن ننظر في أمرين :

١ ـ عرض تاريخي للموقف من ثقافة الأطفال العرب .
٢ ـ إشكاليات ثقافة الأطفال العرب .

إن مثل هذا التحيص يجعل البحث في الأهمية الراهنة لثقافة الأطفال العرب ضرورة وطنية وقومية مثلما هو ضرورة تربوية وثقافية .

٢ ـ الموقف من ثقافة الطفل العربي :

لم ينظر إلى ثقافة الطفل العربي بجدية إلا في العقدين الأخيرين ، فقد كانت حرب ١٩٦٧ م وبالاً على العرب ، أرغمتهم بأشكال مختلفة ، على تأمل الذات العربية ومصائرها الفاجعة في العصر الحديث ، وكان من ذلك شيوع النقد الذاتي والمراجعة الجذرية للخطاب الثقافي السائد فشرعت السياسة الثقافية العربية بالتفكير بالعناية بثقافة الأطفال ، غير أن تلك العناية ظلت هامشية في استراتيجية العمل الثقافي العربي وفي استراتيجية التربية العربية ، وظلت الصياغات جميلة تعبر عن تطلع مشروع ينتظر التطبيق حتى بعد تخصيص مؤتمر الوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية مؤتمرهم بالقاهرة عام ١٩٩١ م لموضوع (ثقافة الأطفال العرب) .

ومن مظاهر هذه الهامشية نذكر ما يلي :

أ ـ فقر وسائط ثقافة الأطفال العرب ، ففي مجال الكتاب ، ما يزال هذا الوسيط الأهم في ثقافة الأطفال مطية التجار وسوق الكتاب من جهة ومطية الدوائر الخارجية

التي تخاطب الطفل العربي بأغزر الإنتاج المطبوع وأفضله نوعية فنياً وطباعياً ، ومثل هذه الدوائر منتشرة في موسكو وباريس ولندن وأثينا وهونغ كونغ وصوفيا وغيرها .

ولعل الكتب الموسوعية كالقواميس ودوائر المعارف والأطالس وغيرها كاف للتدليل على فقر مكتبة الطفل العربي .

ب ـ ضعف أو سلبية صحافة الأطفال العرب ، فهي إما موغلة في قطريتها وخطابها القطري ، أو هي مترجمة بحرفيتها عن صحافة غريبة والشواهد أكثر من أن تعد وتحصى .

جـ ـ فقدان الإنتاج السينمائي الطفلي العربي ، فسينما الأطفال غير موجودة والأطفال العرب مستهلكون للإنتاج السينمائي العالمي ، ولم تفلح محاولات قطرية ، أو جزئية لشركات إنتاج عربية في صناعة أشرطة عربية للأطفال .

د ـ ضعف الإنتاج التلفزيوني الطفلي العربي ، فغالبية ما يشاهده الأطفال العرب (وبنسب تصل إلى ١٠٠٪ في بعض القنوات العربية) من إنتاج عالمي ، يعرض بصوته الخام ، أو بمنطوق عربي دون تعديل للصورة (إجراء عمليات تبديل الصورة أو الدوبلاج) ، أو بمنطوق عربي مع تعديل بسيط في الصورة .

هـ ـ عشوائية التعريب ، فهناك تراث إنساني هائل من أدب الأطفال العالمي في القارات كافة ، ما يزال خارج خطط التعريب ، ولا سيما الكلاسيكيات ، وهذا كله مرتبط بخطط النشر التي غالباً ما تهمل التنظيم والتنسيق والتكامل المطلوب للتعريب والتأليف بين أنواع الثقافة وأجناسها الأدبية .

و ـ أما وسيط المسرح فهو ضعيف أيضاً ، فليس هناك مسارح عربية ، لا في مسرح العرائس أو في مسرح الأطفال أو المسرح الغنائي الاستعراضي ، ناهيك عن انعدام أنواع كثيرة من مسارح الأطفال في الوطن العربي ، وغني عن القول إن المسرح

المدرسي ولا سيما « الدراما الخلاقة » مما يصلح لقاعات الدروس والمناشط الصفية يعاني من إهمال .

ومرد هذه الحال إلى الموقف العربي من ثقافة الطفل ، ونشير إلى بعض عناصره :

أولاً : نُظِرَ إلى وقت قريب ، حتى مطلع السبعينات على وجه التقريب إلى أن ثقافة الأطفال ، أدنى من الثقافة في الكتابة إليهم ، ثم اكتشف أن ثقافة الأطفال رائجة ورابحة فكثر الإقبال عليها دون مراعاة للقيمة الفنية والفكرية فامتلأت السوق العربية بكتب وكتابات ، ضررها أكثر من نفعها ، واليوم يندر أن نجد كاتباً لا يهتم كليّاً أو جزئيّاً بالكتابة للأطفال .

ثانياً : تداخل إلى وقت قريب مفهوم الأدب للأطفال بمفهوم الأدب عن الأطفال ، فثقافة الأطفال شيء مختلف عن الثقافة التي تتحدث عن الأطفال ، مما طرح فروقات واضحة على نظرية الأدب باتجاه تكون نظرية أدب الأطفال ، فشهد عقد الثمانينات على وجه الخصوص أولى محاولات الوعي بنظرية أدب الأطفال في الثقافة العربية . لقد ظهرت في القرن التاسع عشر أولى المحاولات على طريق النظرية ، عندما رهن أدب الأطفال بالنمو الإدراكي والمعرفي للطفل ، وكان الناقد الروسي بيلنيسكي قال عام ١٨٤٢ : « يمكن أن نقدم للأطفال المضامين نفسها التي نقدمها للراشدين ، غير أن عرضها فقط هو الذي يتكيف مع مستوى فهمهم » . ثم اشتد عود النظرية مع تقدم علم نفس الطفل والمؤلفات القليلة التي تقارب نظرية أدب الأطفال نحو هوية قومية لثقافة الطفل العربي ، وتبرز في هذا الميدان جهود أحمد نجيب وعلي الحديدي وعبد التواب يوسف وأحمد زلط في مصر ، وكافية رمضان في الكويت ، وأحمد عبد السلام البقالي في المغرب ، وأحمد أبو سعد ومصطفى حجازي ونجلاء نصير بشور وذكاء الحر في لبنان ، وهادي نعمان الهيتي في العراق ، وبشير الهاشمي في ليبيا ، ومحيي الدين خريف في تونس ، وثمة جهود أخرى في أقطار عربية أخرى .

ثالثاً : تغليب المنظور التربوي التعليمي وحده على فهم ثقافة الأطفال ، فقام تنازع استمر طويلاً بين المربين ومنتجي ثقافة الأطفال من أدباء وفنانين وفنيين وسواهم ، وفي عقد الثمانينات اعترف بالمسؤولية المشتركة بين هؤلاء جميعاً وهذا في جوهر التطورات الجدية التي شهدت شيئاً من الانتعاش في خمس سنوات هذا العقد لم تعد ثقافة الأطفال محتوى قيمياً أو أدباً تعليمياً أو محققاً لأغراض تربوية فحسب ، بل صار ذلك كله من خلال خصوصية هذه الثقافة كخطاب فني وإبداعي في هذا الوسيط الثقافي أو ذاك ، في هذه الوسيلة الاتصالية أو تلك .

ولعل وجهة النظر التي تغلب المنظور التربوي التعليمي وحده على فهم ثقافة الأطفال هي التي تحكم كتاب « أدب الأطفال » الذي يدرس منذ العام الدراسي ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ م في معاهد إعداد المعلمين والمدرسين ، فهذا الكتاب لا يرى أدب الأطفال أدباً ، لأنه يستند إلى مقولتين ، الأولى هي أن أدب الأطفال مادة في المنهاج ، وهذا الأدب لا يختلف عن أدب الراشدين ، فلا ضرورة لوجود أدب للأطفال ، والثانية هي أن هذه المادة قابلة للتحويل من أي مادة أدبية أخرى للراشدين ، والأخطر في المقولة الثانية ، هو أن المعلمين قادرون على القيام بالتحويل ، والنتيجة هي أننا لم نختر أدباً للأطفال ، ولم نتح لمعلميهم فرص الاختيار ، لاعتقاد واضعي المنهاج أن بمقدور المعلمين أن يعيدوا إنتاج أدب يناسب الأطفال عن طريق التحويل ، قد يكون التحويل وسيلة تربوية بيد المعلمين ولكنه نادراً ما ينتج أدباً للطفل أو أدباً يغذي وسائط ثقافة الأطفال . والنادر هنا متعلق بوجود معلمين مبدعين .

٣ ـ إشكاليات ثقافة الطفل العربي :

بالإضافة إلى بعض عناصر الموقف العربي من ثقافة الطفل التي ما تزال إشكاليات مستمرة نذكر إشكاليات أخرى :

أولاً ـ العلاقة بالموقف الأخلاقي :

فقد نظر إلى ثقافة الطفل على أنها سبيل للتربية الأخلاقية والقيمية ، وهذا عائد إلى ظروف نشأة أدب الأطفال العربي ، فقد انطلق من المدرسة رديفاً لها أداة للتوجيه الأخلاقي والقيمي مثل بقية مواد المنهاج المدرسي التي تسعى إلى تكريس القيم السائدة .

ولا شك ، أن آلاف المواد الثقافية الطفلية العربية المنتجة منذ مطلع القرن العشرين هي أدخل في النزوع المدرسي التعليمي الذي يباشر الوعظ والإرشاد وتزجية النصائح الأخلاقية والقيمية .

ثانياً ـ العلاقة بالاعتبارات التربوية والفنية :

ففي ظل إنجاز حدود الاعتبارات التربوية والفنية لثقافة الأطفال التي تجعلنا نميز الخطاب الثقافي للأطفال عن سواه ، لم يجر حتى مطلع السبعينات الاعتراف بهذه الاعتبارات ، وخلال عقدي السبعينات والثمانينات بذلت جهود لتعزيز هذه الاعتبارات بين جمهرة منتجي ثقافة الأطفال والمشتغلين في ميادينها ، ولكنها جهود فردية حاولت بعض المؤسسات الرسمية مثل (الاليكسو) الخوض فيها على نطاق ضيق ، كما هو الحال مع مشروع القاموس المشترك للغة الطفل العربي الذي ما يزال قيد الإنجاز .

ثالثاً ـ الدخول المبكر لثقافة الأطفال في مجال المثاقفة :

فقد غدت ثقافة الأطفال العرب ساحة لصراع الأفكار والتمثيل الإيديولوجي الاستغرابي ، فخوطب الطفل العربي عبر وسائط ثقافية أجنبية متعددة مبكراً بحجم أكبر مما خاطبته به المؤسسات العربية الرسمية ، وبتنوع ثرٍّ (أساليب ومضامين وموضوعات وتقنيات) .

رابعاً ـ غياب التخطيط القومي الشامل :

بالإضافة إلى غياب التخطيط القطري في كثير من الأقطار العربية ، فليس هناك مشروعات ثقافية عربية مشتركة للأطفال ، حتى محاولات مجلس (التعاون الخليجي في الإنتاج البرامجي المشترك) كبرنامج (افتح يا سمسم) أصبحت بعد حرب الخليج الثانية ذكرى عزيزة المنال .

بعد استعراض مفهوم ثقافة الأطفال العرب والموقف العربي من ثقافة الأطفال تاريخياً واستعراض بعض إشكالياتها نبحث في الأهمية الراهنة لثقافة الأطفال ، وسأتناولها على النحو التالي :

١ ـ الأهمية التربوية .
٢ ـ الأهمية القومية .
٣ ـ الأهمية الإبداعية والجمالية .
٤ ـ الأهمية الثقافية .
٥ ـ الأهمية النفسية .

٤ ـ الأهمية التربوية :

تبدأ الأهمية التربوية لثقافة الأطفال من اشتراط صريح هو أن تكون ثقافة الأطفال تربوية أي إن بعدها التربوي شرط لتحققها ، والبعد التربوي مرهون باعتبارات تربوية متعددة أهمها سن الطفل ومراحل النمو الإدراكي والنفسي وصلة ذلك ببيئة الطفل ومجتمعه وثقافته .

ومن المفيد أن نذكر بعض الملاحظات مما يثيره البعد التربوي :

ـ لا تباشر ثقافة الطفل مقاصدها التعليمية ؛ لأن المباشرة والتصريح بالمقاصد التعليمية ينفر الطفل ، وهذا يضيف للبعد التربوي أسباباً للعناية بأمرين أولهما تقبل

الطفل للمحتوى وثانيها تلبية احتياجات الطفل ، مما يعيد المسألة برمتها إلى انبثاق التربوي من الفني فليست ثقافة الطفل نصائحَ وإرشاداتٍ وتوجيهاً معرفياً وقيمياً مباشراً بالقدر الذي تنهض ثقافة الطفل بهذه الوظائف عبر بلاغتها وإبلاغيتها اللتين تميزان الخطاب الثقافي للأطفال حسب كل جنس ، وعبر كل وسيط ثقافي أو وسيلة اتصال بجمهور الأطفال .

- لا تكون ثقافة الطفل نافعة مالم تتصل ببيئة الطفل ومجتمعه وثقافته الخاصة ، لأن البعد التربوي يستلزم تعزيز مخاطبة الطفل من تقاليده الثقافية والاتصالية ، ومن ينابيع التراثية والشعبية والقومية ، مما يستدعي تخطيطاً تربوياً يرشد سبل الخطاب الثقافي للطفل في المؤسسات التربوية والاجتماعية والثقافية لئلا يقع الطفل فريسة ثقافة الاغتراب أو العزل أو الانعزال أو فراغ القيم .

- ليست مراحل النمو الإدراكي والنفسي وَصْفاتٍ جاهزةً من النظريات وحدها ؛ فالنظريات يستهدي بها ، والمعول دائماً هو صلاح تجارب العمل التربوي والثقافي مع الأطفال . وثمة قاعدة ذهبية تؤكد أن الأطفال يتبادلون التأثير مع خطابهم الثقافي والتربوي ، فهم يعدِّلون سلوكهم ولكنهم في الوقت نفسه يصوغون خصائص نموهم المعرفية والعاطفية .

أما الأهمية التربوية لثقافة الأطفال فنوجزها في المناحي التالية :

٤-١: المنهاج :

فالتربية بحد ذاتها عملية ثقافية وإيديولوجية ، وإذا كانت المدرسة تسعى إلى قولبة ذهن الطفل ، فإن ثقافة الأطفال مفيدة للتخفيف من وطأة هذه القولبة وللتخفيف من وطأة الممارسة الإيديولوجية الصريحة . إن ثقافة الأطفال بالنسبة للواقع ، فالطفل يواجه القولبة الذهنية من سلطان أسرته (الأب على وجه

الخصوص) إلى السلطان الاجتماعي (الدين وأشكال تنظيم المجتمع القديمة على وجه الخصوص) إلى سلطان الدولة (المدرسة ونظامها الإيديولوجي على وجه الخصوص) .

إن هذا السلطان الواسع متعدد الأشكال والضغوط يريد للطفل أن ينخرط في تنظيم المجتمع وإنتاجه بعد ذلك ، وتقوم به المدرسة عبر مناهجها جهراً أو ضبطاً يصل إلى حدود الضغط والإكراه ، هذا هو واقع الحال ، بينما تشكل ثقافة الأطفال نوعاً من المثال للنمو الحر والمبدع والفعال .

ولقد أثبتت التجارب التربوية ، أن استناد المنهاج إلى ثقافة الأطفال في اعتباراتها التربوية والفنية من شأنه أن ييسر المنهاج ، ويضمن للتنشئة الاجتماعية سيرورة ذاتية تجعل الطفل مشاركاً وليس متلقياً أو متلقناً يُحْشى بالمعلومات اللازمة وغير اللازمة لنموه .

٤ـ٢ : الكتاب المدرسي :

يعد الكتاب المدرسي الأداة الأمثل للمنهاج ؛ كونه المعيار الأول لتحقيق الأهداف التربوية العامة التي يرسمها المنهاج ، وهي أهداف طموحة في سورية نشدت تكويناً محدداً لملامح الإنسان العربي التي تسعى التربية إلى بلوغه ، أي إن المهام المطروحة على الكتاب المدرسي بالغة الأهمية والدقة والأولوية ، فالكتاب المدرسي أولاً وأخيراً . أما الوسائل المدرسية التالية فموضوعة لتنفيذ هذا الكتاب . والسؤال دائماً : ما حظ ثقافة الأطفال في هذا الكتاب ؟ هناك الأجناس الأدبية كالقصيدة والقصة والتمثيلية والمقالة ، وهي مبثوثة في غالبية الكتب ، حتى كتب الحساب فقد أنتج أدب تعليمي غزير في التراث العربي القديم لحفظ الأعداد والنحو والجغرافيا والتاريخ والدين وغير ذلك .

والسؤال دائماً أيضاً : ما حظ ثقافة الأطفال في هذه المواد الأدبية المبثوثة في هذا الكتاب المدرسي ؟

إن ثقافة الأطفال سبيل لترقية الكتاب المدرسي من مجرد المعلومات التلقينية إلى الاستجابة لمدارك الأطفال ووجدانهم النامي .

٤ـ٣ : المناشط المدرسية :

تستند فكرة المناشط المدرسية إلى إقحام الأطفال في عمليات التثقيف ، أي مساهمتهم في إنتاج ثقافتهم لمجاوزة أن يكون الطفل متلقياً للثقافة ، بل ممن يصنعونها أيضاً ، وتقوم فكرة المناشط المدرسية على عاتق الطفل بوصفه محوراً للعمل التربوي والثقافي والمعلم بوصفه مرشداً ومربياً ، حيث المناشط المدرسية عمليات تثقيف بالدرجة الأولى تتطلب تفاعلاً خلاقاً بين الأطفال ومربيهم قائماً على إعادة إنتاج ثقافة الأطفال الملبية لحاجات الأطفال . ويستطيع كل معلم أن يجعل من تلاميذه ورشة ثقافية تعيد إنتاج ثقافة الأطفال استجابة للمتطلبات التربوية .

إن المناشط المدرسية على اختلاف أنواعها حتى الرياضية منها ، تعتمد على بعد ثقافي في أشكال التواصل الاجتماعي وأشكال الإبداع الحركي وإيقاعات اللعب والحياة اليومية .

ولن تؤتي المناشط أكلها بعزل عن إرادة الطفل نفسه في التعلم الذاتي والتربية النفسية لديه ، وهذا ما برهنت عنه تجارب مربين وهبوا أنفسهم لأطفالهم نحو اكتشاف ذواتهم ونحو معرفة الطبيعة ، ونجد وصفاً لطرائقها عند مفكرين عظام مثل ليوتولستوي ورابندرانات طاغور من الغرب والشرق ، مثلما نجد وصفاً لها عند مربين بسطاء مثل الأوكراني سوخوملينسكي الذي وضع كتباً عن تجاربه في العمل التربوي مع الأطفال ، من أبرزها كتابه المشهور (للأطفال قلبي) ، وعماد تجاربه القاعدة الذهبية التي تقول : « إن دراسة العالم الروحي الداخلي للأطفال ولا سيا تفكيرهم تعد واحدة من أخطر مهام المعلم » .

إن مكانة ثقافة الأطفال في المناشط المدرسية أساسية وكبرى في غالبية نظريات التعلم ولا سيما البنائية والجشطالتية والتعلم الاجتماعي حين تصاغ جذور نظريات التعلم في مرحلة الطفولة[٣] .

٤ـ٤ : التربية الثقافية :

ويتضمن هذا التعبير إسهام التربية في التنمية الثقافية ، أي إن للتربية وظيفة أساسية في التنمية الثقافية تهتدي حسب (اليونسكو) في الدورة الثالثة والأربعين للمؤتمر الدولي للتربية (جنيف ـ أيلول ١٩٩٢ م) بالتعريف بالتراث الثقافي وتقديره ، والتعريف بالحياة الثقافية المعاصرة والتوعية بعملية انتشار الثقافات وتطورها ، والاعتراف بتساويها في الكرامة . وبالصلة التي لا تنفصم عراها بين التراث الثقافي والثقافة المعاصرة ، والتربية الفنية والجمالية ، والتنشئة على القيم الأخلاقية والمدنية ، والتربية في مجال وسائل الإعلام ، والتربية المشتركة بين الثقافات . ويفيد ذلك أيضاً تطوير ثقافة الأطفال في التربية ، عن طريق التنسيق بين سياسات واستراتيجيات الثقافة ، وبين سياسات واستراتيجيات التنمية ، ودور المدرسة في تعزيز الثقافة ، وتدعيم البعد الثقافي والفكري للمناهج المدرسية وتوفير المداخل لفهم التراث الثقافي القومي وتقديره ، وتعليم التاريخ القومي والتعريف بالمشكلات الكبرى للعالم المعاصر وغير ذلك .

إن ميادين التربية الثقافية تجعل من ثقافة الأطفال في الوقت نفسه معيناً حياً لتطوير التربية ذاتها نابعاً من الإقرار بدور الثقافة كأساس يرتكز عليه مضمون التربية .

---

(٣) انظر على سبيل المثال : نظريات التعلم : دراسة مقارنة جـ١ وجـ٢ (ترجمة علي حسين حجاج) ضمن : « عالم المعرفة » ـ الكويت ١٩٨٣ـ١٩٨٦ م .

أما أساليب ثقافة الأطفال ، بوصفها حرة قابلة للإبداع الذاتي ومشاركة الأطفال في إنتاجها فهي الأقرب لمتناول الأطفال والأقدر على تربية مشبعة بالروح الإيجابية الأصيلة المتفاعلة مع بيئتها ومجتمعها وعصرها وعناصرها وثقافتها القومية والوطنية .

٥ ـ الأهمية القومية :

أدخلت ثقافة الأطفال ميادين الصراع الفكري وعمليات المثاقفة ، واستخدمت وسائط ثقافة الأطفال قنوات لبث النمط التابع أو المغترب لأن جمهور الأطفال سريع التأثر بالخطاب الثقافي الموجه وتزداد خطورة هذا الخطاب المصنع بأغلفة التضليل الإعلامي (الصحافة والتلفزة والمطبوعات الأخرى) ، والمجمل للتسلل إلى المؤسسات الثقافية والتربوية والإعلامية . وقد أتيح لي أن أحضر خلال عقد الثانينات مؤتمرات وندوات ثقافية عربية حول الغزو الثقافي الأجنبي للأمة العربية ، (وأشهرها مؤتمر تونس عام ١٩٨٢ م) ، فدرست مظاهر التبعية في مختلف مجالات الفكر والثقافة ، باستثناء ثقافة الأطفال ، وهي الأخطر لأنها تتوجه إلى الناشئة الذين يتكونون في تأثيرات التصدير الثقافي التي تروج لمفاهيم الاستعمار والعدمية القومية واللاانتماء .

ومنها تعلم التاريخ القومي بما هو وعي للذات واستمرارها حقيقة من حقائق الثقافة الأصيلة وثقافة الأطفال مجال رحيب لفهم وقائع التاريخ الكبرى ، ومنعطفاته الرئيسية وأعلامه البارزين ودلالاته الحية التي صاغت ، وتصوغ الحاضر ، وتكون ثقافة الأطفال مجدية وفعالة أكثر إذا صارت وسائطها صوتاً لمنجزات الأجداد وقيمهم الباقية .

ومنها أيضاً ، انبثاق ثقافة الأطفال من ينابيعها الشعبية كالحكايات والأمثال والسير والشعر وطرائق تعبيرها وأساليب خطابها الأقرب لروح الأطفال وخصائص التلقي لديهم .

وغني عن القول : إن الأهمية القومية لثقافة الأطفال بوصفها حصناً للهوية القومية تتطلب جهداً تربوياً وثقافياً استراتيجياً يجيب في الواقع على أسئلة التراث والخصوصية والفرادة في تفاعلها الإيجابي مع تراث الإنسانية والحاجات الوظيفية المستقلة .

٦ ـ الأهمية الإبداعية والجمالية :

في الفيلم السوفيتي (الكلب الأبيض ذو العلامة السوداء) يتركز دأب المخرج على إظهار تعاطف الإنسان مع الحيوان حين يضع كلباً في مواقف متعددة مع أشخاص مختلفين كاشفاً عن الجوهر الإنساني لهؤلاء البشر في مواجهة جشع الإنسان وقسوة الطبيعة ، ثمة موقف عابر في ذلك الفيلم ، ولكنه مهم ، هو أن إحدى الأمهات تبدي جزعها من سلوك ابنها إزاء الموسيقا ، فقد كان مقلقاً لها أن ابنها لا يحب الموسيقا ولا يتأثر بها ، فهذا من شأنه أن يفسح مكاناً لبذور الشر في نفسه اليافعة .

والحق أن الأهمية الإبداعية والجمالية لثقافة الأطفال تبدأ من الاعتراف بالإطار الإبداعي والجمالي للتربية الثقافية ليكون مخصوصاً في مرحلة تالية بالتربية الجمالية والفنية ، لارتباط هذا الإطار بموضوع نماء الشخصية الطفلية وتفتح مدارك الأطفال وتنشيط الملكة الإبداعية ، بل إن كثيراً من المربين يرهنون تحقق الوظيفة التربوية بقابليات التربية الجمالية والفنية ، فقد ثبتت نجاعة مثل هذه القابليات في اقتراب أسلم لضفاف الروح وتربية القيم الإنسانية ، وهي في الوقت نفسه أقرب لوجدان الطفل النبيل وسلوكه الذي ينمو أساساً وسط الإدراك المعرفي .

تبين التربية الجمالية والفنية أن ثقافة الأطفال جهد تربوي ذو شفافية يتوجه إلى رهافة الحس والاحتفاء الصادق والحب بأسمى المشاعر والعواطف ، وإلى النفور من الوعظ والإرشاد لتكون حقاً ثقافة رفيعة ، تبعث أفضل ما في القلوب الطيبة اليانعة ، وتربي الأطفال على الجيد في حياة الإنسان ، والجمال بحد ذاته صنو الخير والاستهداف المتفهم لأعباء الحياة .

أما الفن وممارسته من قبل الأطفال أنفسهم فهو خوض الأطفال المبكر في نهر التجربة الجاري ، والتعرف إلى القيم الشريفة والفاضلة مباشرة ، ليصبح الصغار كباراً وهم يكتشفون بالفنون وممارستها ، رؤية أنقى للعالم . وهكذا ، يصبح التقبل المعرفي قرين التقبل الجمالي مما يقودنا إلى إضاءة بعض عناصر التربية الجمالية والفنية ، ونذكر منها :

ـ التوكيد المستمر على أن التربية الجمالية والفنية جزء لا يتجزأ من العملية التربوية المستمرة . ولا تلازم هذه التربية مرحلة دراسية بعينها ، بل ينبغي أن توفر التربية العامة للأطفال إمكانيات ثراء مناشطها وتنوعها الثقافي ، وعند التطبيق على وجه الخصوص .

ـ لا يصح أن تظل التربية الجمالية والفنية في حدود تلقي الأطفال ، لأن مشاركتهم في ممارستها إسهام مبكر في امتلاك رؤيتهم المعرفية للعالم .

فمن المفيد دائماً أن ينتج الأطفال مناشطها ، وأن تصدر عن توقهم المستمر لاكتشاف الأشياء والطبيعة وتناغمها مع الإنسان ومثل هذا السبيل يفتح الآفاق رحيبة لتربية القيم الإنسانية .

ـ العناية بتربية الموهبة الفنية وإدغامها بالجهد التربوي العام منطلقاً للإبداع ، وكثيراً ما كانت الاكتشافات العظيمة بنت الطفولة النابهة فقد روت مريام مورتون ، وهي كاتبة أطفال أمريكية معروفة ، إثر زيارة لها إلى ألماآتا في كازاخستان :

« إن الملحنين الفتيان الجدد يجربون في أشكال واتجاهات غير معتادة ، ومن المعروف أن أساتذة المدارس والمعاهد الموسيقية يوافقون على تجارب تلاميذهم الفتيان الجادة منها والخفيفة » .

« وقد تسنى لي حضور حفلة أقيمت في مدرسة موسيقية بألماآتا بمناسبة انتهاء العام

الدراسي ، حيث قام تلميذ من فرع البيانو بتغطية الأوتار بأوراق الجرائد ، وذلك للحصول على أصوات مكتومة خاصة يحتاجها لعزف مقطوعة حديثة للغاية من تأليفه . وقد يكون بعض الأساتذة المشاهير قد عقدوا حواجبهم استغراباً ولكن أحداً منهم لم يترضجة حول ذلك »[٤] .

غالباً ما تكون الاكتشافات العظيمة إلهامَ لحظة لا تتكرر ، وما تربية الموهبة الفنية إلا تطويع الأفئدة الغضة ليقظة الأمل ، على أن كل طفل قادر على الإتيان بجديد في أي ظرف ، وفي أي مكان . والمهم هو مساعدة الأطفال على التربية الجمالية والفنية ، أما الاختصاص فيأتي لاحقاً ، ومن المعروف أن الفنون جميعها ، وفي الختام وسيلة تربوية .

ـ العناية بتربية الحواس تمهيداً لتربية ملكات أكبر ، وأولها تربية الرؤية البصرية أو تربية القراءة بمعنى قراءة النص وقراءة المقطوعة الموسيقية أو الشريط السينمائي أي تنمية التذوق الفني لمعطيات ثقافة الأطفال في أجناسها ووسائطها المختلفة .

إن التذوق الفني عملية دربة ومران للأطفال على أمرين : الأول بسيط هو تربية الحواس (البصر والسمع واللمس على وجه الخصوص) ، وإدماجها في تربية قراءة الوسائط الثقافية الموجهة إليهم ، فقد أثبتت الدراسات النفسية التجريبية أن تربية الحواس هي الأقوى في تنمية السلوك الإبداعي عند الأطفال الذي لا بد منه لتربية التذوق الفني[٥] .

والثاني هو تربية المهارات والتّقنيات الخاصة بالوسائط الثقافية لدى الأطفال ، أي أن لا تستند القراءة إلى معرفة الأسس الفنية والتقنية لهذا الوسيط الثقافي أو ذاك .

(٤) مورتون ، مريام : من المهد إلى ريعان الشباب ، دار التقدم ـ موسكو ١٩٨٣ ، ص٦١ـ٦٢ .

(٥) حنورة ، د . مصري عبد الحميد : سيكولوجية التذوق الفني ـ منشورات دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ ص ١٦٣ .

ولا تعول التربية الجمالية والفنية اليوم على الفِطْرَةِ وحدَها . فثمة جهود تربوية محددة لتنمية السلوك الإبداعي بوصفه تفعيل لهذه العملية المتشابكة من مستوى تربية الحواس إلى مستوى تربية القراءة إلى مستوى تربية المهارات والتّقنيّات الثقافية .

ـ حماية خيال الأطفال ، وتتيحها التربية الجمالية والفنية بأيسر السبل وأكثرها فاعلية في وجدان الأطفال علينا ألا نستخف بهذه القضية ، فقد بات خيال الأطفال مهدداً بابتعادهم عن ينابيع ثقافتهم الشعبية ، وهيمنة وسائل الاتصال على عقولهم وقلوبهم ولا سيا التلفزة .

إن الأطفال يركنون إلى الخمول وبلادة الحس كلما وضعوا الكلمات أو الأدب الموجه إليهم خلف ظهورهم ، وفي المؤتمر العالمي الثاني لأدب الأطفال (موسكو ١٩٧٩) ، حدثنا الأديب التركي إسماعيل يواروغلو : « هناك مثل شعبي في تركيا يقول : الماء للأطفال والكلمة للراشدين . إنني لا أوافق هذا المثل الشعبي لأنه خاطئ وخطير ، لأنه يعطي الأطفال الكلمات تلقيناً ، ولا يعرف أفكارهم ، ويرى فيهم فقط مستمعين بكماء » ، إن ثقافة الأطفال ، ولا سيا كتبهم ، ونشاط الأطفال الثقافي عافية لخيال الأطفال وليس أكثر من التربية الجمالية والفنية حافظاً للخيال وباعثاً له من مجالدة الواقع وإدراك المحيط وتثيراً إيجابياً لثنائية الوهم والواقع إذ بالفن تصفو النفوس . ثمة فرق جلي بين الخيال السليم المعافى وغيره من أنواع الخيال المريض أو المزيف أو المثير لمجرد الإثارة ، وما لم يعالجه الأطفال بأنفسهم ويختبرونها بوسائلهم الخاصة البسيطة ، وبتقوية ذائقتهم الفنية ومقدرتهم على تطويرها ، فإنهم سيكونون عرضة لمخاطر تسطيح الخيال ومواته .

٧ ـ الأهمية الثقافية :

نشأت ثقافة الأطفال مثل التعليم نفسه عن طريق المدارس ، فكانت ثقافة تعليمية استعملتها المؤسسات الدينية والاجتماعية ، ولكنها تطورت كثيراً في ابتعادها عن

النزعات التعليمية التربوية والأخلاقية والدينية باتجاه التسلية ، حين التفت جمهور الأطفال عن ثقافة لا تعنى إلا بالمعرفة وطرائق الحصول عليها .

كانت المعضلة أن جمهور الأطفال يريد ثقافة مسلية ، بينما وجهت ثقافة الأطفال لتنقل القيم الأخلاقية والدينية ، ولدى العودة التاريخية وإلى جذور الخطاب الثقافي للأطفال نلاحظ أنها انطلقت من فكرة تبسيط الكتب الجيدة المنشورة للراشدين أو تعديلها لكي تناسب الأطفال ، فتداخل المفهوم الملتبس لأدب الأطفال مع الحاجة إلى التسلية من جهة ، وفيض الحكايات الشعبية وموروث اللعب والحركة والأغاني التراثية مثل أغاني ترقيص الأطفال من جهة أخرى[٦] .

كان التنازع بين التسلية والتوظيف الجدي المباشر لثقافة الأطفال انعطافة خامة في تطور ثقافة الأطفال ، ثم تلتها انعطافة أخرى مع اكتشاف الطفل كمتلق ، وكجمهور خاص ، مما سيطبع نظرية أدب الأطفال بخصائص علم نفس الطفولة وما يتصل بها .

وقد أدى ذلك إلى اكتشاف حقوق الطفل من مجرد التعديل أو التبسيط إلى إنتاج خطابه الثقافي الخاص استناداً إلى حق الطفل بالخيال ، وحق الطفل بالتذوق ، وحق الطفل بالأدب والفن ، أي حق الطفل في أن يكون موضوع ثقافته ، وحقه في إبداع أدب وفن خاصين به .

ثم كانت هناك انعطافة أخرى حين غدا تطور ثقافة الأطفال تطوراً حضارياً يتأثر بالتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية للشعب والمجتمع ، وجرى الإقرار بأن الحالة السياسية لبلد من البلدان هي التي تحدد حالته الثقافية ، ومنها حالة ثقافة الأطفال فيه . .وقد كشف الإقبال العربي على ثقافة الأطفال في العقدين الأخيرين أنها

---

(٦) انظر عرضاً تاريخياً شاملاً لتطور أدب الأطفال العالمي مقارباً في : أدب الطفولة والشباب (ترجمة د . نجيب الغزاوي) ، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٨٨ م .

ما تزال تحتاج إلى العون ، على الرغم من جذورها القوية الممتدة في التراث العربي ، وعلى الرغم من الوعي المبكر لأهميتها الثقافية ، فقد روى ابن رشيق عن الزبير بن بكار الحديث التالي :

« سمعت العمري يقول : روّوا أولادكم الشعر ، فإنه يحل عقدة اللسان ، ويشجع قلب الجبان ، ويطلق يد البخيل ، ويحض على الخلق الجميل » .

لا يماري أحد اليوم إزاء الأهمية الثقافية المتنامية لثقافة الأطفال في التربية القيمية ، وفي تنمية الإدراك المعرفي ، وفي صقل الشخصية ، وهناك علوم ناهضة تجعل الأهمية الثقافية في متناول اليد وتوثق علاقة الأطفال بشعر الأطفال وقصصهم ، وبوسائطهم الثقافية المتعددة .

٨ ـ الأهمية النفسية :

تعد ثقافة الأطفال وسيلة علاجية ثبتت فعاليتها في ترشيد السلوك وتعديله ، ثم اعتمد المربون كثيراً على ثقافة الأطفال في علاج أمراض النفس والعقد النفسية لأنها نتاج سنوات الطفولة وثمة صلة بين اللغة واللعب ، وهما سياقان تربويان وثقافيان يميزان النمو في هذه السنوات ، وثمة ما يؤكد أن طبيعة النمو مرتهنة في المكان الأول بطبيعة الظروف والمتغيرات الخاصة بالثقافة التي نعيش فيها . والتي ليست سوى حوار صامت أو صارخ بين لغة الطفل واللغات من حوله .

إن جوهر عمليات النمو هو انتقال من الانعكاسات إلى الأفعال الحسية وسواها ، إلى الأفكار إلى الأقوال حيث النمو اللغوي يميز النمو المعرفي ، تمهيداً للنمو الاجتماعي والانفعالي وتكون الشخصية ، وما يرافقها من مشاعر هي بدء تحسس الضمير الأخلاقي واكتشاف النفس مع مرحلة اللعب والحركة ودراما الحياة اليومية عندما يتكون السلوك السوي وغير السوي المصحوب بأمراض النفس والعقد النفسية .

إن ثقافة الأطفال بوسائطها المتعددة ، وسيلة علاجية من المشكلات التربوية والاجتماعية في بيئة الأطفال ومجتمعهم ، ومن الأمراض النفسية والعقلية عند نشوئها ، وفي المبدعات الثقافية للأطفال ، عن طريق تدعيم التلقي الموضوعي ، حالات إنسانية تجسد هذه المشكلات وهذه الأمراض تضيء للأطفال عوالم الروح الخيرة ، أو تنفر من السلوك غير الحميد وما يهدد العافية النفسية . ومن هذا الباب ، تزخر ثقافة الأطفال بالنماذج التي تحبب الجيران والطبيعة والتعاطف والنبل والأخلاق والعطاء والكرامة وغيرها من القيم الإنسانية .

ومن هذا الباب أيضاً ، تعرض ثقافة الأطفال هذه النماذج وسط الشدائد والمكابدة واجتياز الصعاب لاختبار وجدان الأطفال ومواجهتهم لما يهدد هذه القيم .

لقد كانت ثقافة الأطفال علاجاً تربوياً لمشكلات النطق والاضطرابات الحركية ، والانعزالية الاجتماعية والأنانية والكسل والسلبية والخنوع وسواها ، وعلاجاً سلوكياً لأمراض النفس والعقل كالرهاب والحصار والعصاب والمخاوف المرضية والمعتقدات الخاطئة وغير ذلك . وأجمل هذه الثقافة ما كان الأطفال موضوعها وأبطالها .

أما كيفية الأهمية النفسية لثقافة الأطفال فعن طريق التنمية الثقافية التي تعنى بالبعد النفسي وتبدأ مع الطفل منذ ولادته في برامج تراعي طبيعة النمو وخصائصه اللغوية والحركية والإدراكية ، وثمة ثقافة مناسبة لكل مرحلة تستند إلى الثقافة الشعبية التقليدية وتستفيد من إنجازات الثقافة المعاصرة في الوقت نفسه .

وفي هذا المجال ، علينا أن نحذر من الوجه الآخر للبعد النفسي لثقافة الأطفال ، فقد تصبح مرتعاً للانحراف ونقل المشكلات والأمراض وتأبيدها في غياب التنمية الثقافية التي تشرك الطفل في تلبية حاجاته ، أو التغلب على ضعفه ، أو تدعيم عامل الإرادة في نفسه .

الفَصْل الثّالث

خريطة أدب الأطفال عالمياً ومـوقـع الـوطـن الـعـربـي عـلـيـهـا

عبد التواب يوسف

يحكى أن ...

كان هناك طفل صغير ، يصدق حكايات الجنيات والعفاريت والديناصورات ، لكنه ما كان يعتقد بصدق الخرائط .. كيف لمدينته أن تصبح نقطة صغيرة !.. علّمه مدرِّسُه كيف يرسم حجرة الدراسة ، والمدرسة ، والمدينة ، ووطنه ... وكبر الطفل ، وأصبح كاتباً للأطفال ، يحزم حقائبه ، ويحمل خرائطه ويسافر بحثاً عن حكايات يرويها لأصدقائه الصغار ، وخلال ذلك ، فكر في أن يرسم لأدب الأطفال مجرد خريطة يستدل بها القراء على كنوز علي بابا ، ومصباح علاء الدين السحري ، وبساط الريح الطائر في ألف ليلة ، وسفن السندباد عائدة من سبع رحلات محملة بالذهب والفضة ...

ـ ١ ـ

أولى المعالم في هذه الخريطة ، التي تقود إلى هذه الكنوز ، نشكر عليها العلامة الفرنسي شمبليون ، الذي فكَّ رموز الكتابة الهيروغليفية القديمة ، وبذلك أتاح لكل الدنيا أن تقرأ أول أدب كتب في العالم .. واستطاع الأطفال والكبار قراءة : إيزيس وأُوزوريس ، وسنوحي ، والبحار الغريق ، والفلاح الفصيح الذي أطلق ـ من بلدتي التي ولدت فيها ـ أول صيحة للعدالة الاجتماعية في التاريخ ، حين كتب عدة رسائلُ يشكو الاستيلاء على حماره ، وحبسه ظلماً .. وكانت هذه كنوزاً قصصية في تقديري

الخاص ، لا تقل روعة عن تلك الكنوز التي عثرنا عليها في مقبرة توت عنخ آمون .. إنها قصص أدبي ، رفيع المستوى ، يمثل حضارة بلغت مجداً شامخاً ، واستمرت قرابة ألفي عام ، وصنعت تاريخاً طريفاً ، يقرؤه أطفال العالم ، في أولى صفحات حضارة الإنسان على الأرض ، متمثلاً في عصر بناة الأهرامات ، وفي أسماء لمعت ، وعرفتها كل الدنيا : رمسيس ، تحتمس ، أخناتون ، نفرتيتي ، حتشبسوت .. وكما ازدانت كل متاحف الدنيا بآثار مصر الفرعونية ، وكما وقفت مسلاتنا شامخة ، في ميادين باريس وروما ولندن ونيويورك واستنبول ، حفلت صفحات الكتب الأدبية بقصص أدبي عن الفراعنة ، أو منقولاً عنهم ..

ولم نحصل ، ولم يحصل الفراعنة ، على حقوق النشر ؛ إذ مضت على كتابة هذه القصص على ورق البردي ـ لا خمسون سنة ـ بل خمسة آلاف ..

ويطيب لي أن أذكر ، أن أول كتاب للعالم ، وجد في مصر قبل ٥٥٠٠ سنة ، واشتهر باسم (بردية إيبرس) ، وعثر عليه عام ١٨٤٧ ، وهو محفوظ بالمتحف البريطاني .. والكتاب في ١٨ صفحة ، كتب بلونين : الأحمر والأسود ، ويتضمن حكماً ومواعظ ، لاثنين من الحكماء : الأول قاقمنا ، وزير الملك حوتي ، من الأسرة الثالثة ، والثاني بتاح حوتب ، وهو وزير للملك آسي ، من الأسرة الخامسة القديمة ، وقال فيه لابنه :

« إذا سرت على نهج هذه الحكم السامية ، عمرت طويلاً ، وبلغت أوج الكمال ، وتدرجت في مواطن العلا والمجد .. ولا تغتر بعلمك ، فإن العلم بحر لا شاطئ له ، ولن يصل لآخره بحّار ، مهما خاض فيه ، وسبح .. والحكمة ـ يا بني ـ أغلى من الزمرد ، لأن الزمرد يلقاه العمال بين الصخور ، بعكس الحكمة ، إنها نادرة الوجود ، ولا يلتقطها أحد ، غير صاحب العقل الوضاء » .

وقد يتساءل البعض :

ـ هل هذا الأدب القديم ما زال يدخل في نسيج حياتكم وأدبكم ؟

الجواب : نعم ، بكل تأكيد .. وليس أدلّ على ذلك ، من أن نجيب محفوظ الفائز بجائزة نوبل له خمسة أعمال روائية تدور أحداثها في عهد الفراعنة ، وهي : رادوبيس (سندريلا) ، عبث الأقدار ، كفاح طيبة ، العائش في الحقيقة ، أمام العرش .. وقد ترجمت أغلبها إلى الإنجليزية ، وتمّ تبسيط بعضها بالعربية للأطفال .

ـ ٢ ـ

وتجيء ـ بعد ذلك ـ المرحلة التي تلت ظهور الإسلام ، نستطيع أن نقول : إنها مرحلة التجميع ، والتصنيف ، والتأليف ، والتدوين .. وقد حفلت بمئات الكتب ، التي امتلأت بالقصص ، والحكايات المتوارثة ، من أشهرها ما كتبه الجاحظ : (البخلاء) ، (الحيوان) ثم كتب مثل (العقد الفريد) ، و (نثر الدُّر) إنها مجلدات ، تحتوي على مئات الطرائف والنوادر ، التي يطرب لها الكبار والصغار .. وكانت هناك كتب في كل فن ، ومن كل لون ، منها أخبار الأذكياء ، ثم أخبار الحمقى ، وصولاً إلى غرائب المخلوقات للقزويني ..

وقد عاش الأطفال على هذه المائدة الحافلة ، التي ما زال الكثيرون يعودون إليها ، ينقلون عنها ، ويقتبسون منها ، بل قد يقومون بتبسيط كتاب كامل منها ، من أجل أن يقبل الأطفال على قراءته .. وعرض كتاب منها يكفي ، للتدليل على أن موضوعه سوف يشدهم إليه : في عجائب المخلوقات حديث عن الكواكب والنجوم ، وعجائب الفضاء ، ثم عجائب الأرض ، وعجائب الإنس والجن والحيوان و ... إلخ . وفي أخبار الأذكياء قصص عن ذكاء الساسة والقضاة والعسكريين والنساء والأطفال والحيوان ... إلخ .

وتزدحم الخريطة هنا بعناوين من كتب التراث العربي والإسلامي ، على أن بعض المعالم هنا لا بد أن يرد ذكرها ؛ ويبدأ الصغار في قراءتها في سن مبكرة ، مع أنها ليست مكتوبة لهم ..

١ ـ من بين هذه الكتب (المعالم) أعظم كتاب حكايات ظهر في العصر الوسيط ، وما زال يقرأ بلهفة وشغف ، وما زال منبعاً للكتابة للأطفال ، وموحياً لمن يريد أن يرتاد هذا المجال ، نعني به (ألف ليلة وليلة) .. وما نظن طفلاً ـ في العالم ـ منذ دوّن هذا الكتاب في القاهرة ـ لم يسمع بشهرزاد وشهريار ، ودنيا زاد الصغيرة ، والحكايات التي أنقذت رقاب الفتيات ، وأمتعت البشرية .. فولتير قال إنه قرأها ١٤ مرة ، قبل أن يبدأ أعماله الأدبية .. جوتة استوحاها في كتاباته .. روبرت لويس ستيفنسون كتب (ألف ليلة الجديدة) .. البرنامج الشهير (افتح يا سمسم) مأخوذ عنوانه عنها .. بل إن قصة الملك عجيب فيها تعد من أول قصص الخيال العلمي ؛ إذ إن بها جبلاً مغنطيسياً يجتذب حديد السفن ، ليغرقها !..

٢ ـ ومن بين (الكتب المعالم) حي بن يقظان لابن طفيل ـ ١١٥٤ ـ ١١٨ ، وهو يحكي عن طفل وحيد ، عاش ونشأ في جزيرة ، بلا رفيق ، وبعده بستة قرون ، ظهرت روبنسون كروزو متأثرة بها ، ومن بعدها صدرت عائلة روبنسون السويسرية ، وصولاً إلى رواية (جزيرة الدولفين الأزرق) ـ وقد ظهرت في فيلم كبير ـ للكاتب (سكوت أوديل) الحائز على جائزتي نيوبري واندرسون .

٣ ـ ومن أهم (الكتب المعالم) في تلك الفترة (كليلة ودمنة) التي كتبها ابن المقفع ، وهو أروع ما كتب عن الحيوان ، وقصصه الواعظة ، وتفوق صاحبه كثيراً على إيسوب لما يحويه الكتاب ، من مواعظ ومواقف ، سياسية وإنسانية .. بجانب كتاب آخر عنوانه (الأسد الغواص) كتب في القرن العاشر الميلادي ، وصاحبه يوجهه للصبيان ، ويحكي أيضاً قصصاً على ألسنة الحيوانات .. والعالم مدين للعرب بإثراء هذا

المجـال ، بل على نسقهـا كتب أرنولـد لوبيل فبيولاتـه ، الحـائز على جـائزة كالـدكـوت عام ١٩٨١ م .

٤ ـ حفلت ألف ليلـة ، وعجـائب المخلوقـات ، وحكايـات كتـاب حيـاة الحيـوان الكبرى (للدميري المصري) ، بحكايات عن مخلوقات غير بشرية .. ولا شك أنها كانت بعد ترجمتها وراء عشرات من القصص ، في هذا المجـال ، بل إني أؤكـد أني رأيت ملامح منهـا في حكايـات (تولكين الأمريكي) و (توف يـانسـون) الفنلنـديـة ، و (مـاري نورتن) في (المقترضون) ، الذين يعيشون تحت أقدامنـا ، ويستعيرون أشيـاءنـا بعض الوقت ـ حين تختفي عن أعيننا ـ ثم يعيدونها إلينا .

٥ ـ سبقنا في حكاياتنا العربية عن الخوارق ، ماقدمه الغرب إلى أطفالـه ، ممثلاً في (سوبرمـان) وغيره ، ولـدينـا مـارد مصبـاح علاء ، وعفريت الزجـاج مـع الصيـاد ، وغيرهـا من قصص المردة ، والعمالقـة ، غير أن مـاردنـا يتميز ، بـأنـه يـأتمر بـأمر العقـل الإنسـاني ، وليس لـديـه قوى تـدميريـة ، وقـدرة عقليـة فـائقـة ، بل هو تحت سيطرة البشر ، الذين منحهم الله وحـدهم القـدرة على التفكير والتـدبير والإبـداع .. وصـاحب المصباح يخرج له المارد معلناً : شبيك لبيك ، عبدك بين ايديك !

٦ ـ وعندنا (السير الشعبية) والملاحم قريبـة منهـا .. إنهـا حكايـات طويلـة عن أبطـال ، كان الرواة في المقاهي يحكون قصصهم على آلة موسيقية تسمى الربابـة . وهـذه السير مطبـوعـة ، وقـد تمتـد السيرة منهـا إلى عشرات المجلـدات ، مثـل (الهـلاليـة) .. وأبطـال هذه السير بعضهم عاش حقاً ، لكن عنصر الخيال دخل على روايـة حكايـاتهم ، مثل البطل اليمني سيف بن ذي يزن ، الذي كافح ضد الأحبـاش ، ليحفـظ لمصر منـابع نيلهـا ، وكـذلـك البطل عنترة الـذي كان عبداً أسـود ، وقـد تمكن من تحرير نفسـه ، ورفض العنصريـة البغيضـة ، وهنـاك الظـاهر بيبرس ، الـذي نـاضـل ضـد التتـار والصليبيين .. بـل لـدينـا واحــدة من هــذه السير ، بطلتهـا امرأة هي (الأميرة ذات

الهمة) .. وقد نقل الغرب إليه هذا اللون من السير ، وقلدها في كثير من أعماله ، إذ يظهر في (روبن هود) الكثير مما جاء في سيرة (علي الزيبق) ، كما أن (قصص الملك آرثر) حافلة بالاقتباسات من السير العربية ، بل نكاد نقول إنها مأخوذة عنها ، إذ بهرت هذه الأعمال الصليبيين ، خلال غزوهم لفلسطين والشرق العربي ، فأخذوها وقلدوها بشكل واضح ..

- ٣ -

وليس من باب الفخر ، أن ندلل على سبقنا للعالم في مجال الأدب عامة ، وأدب الطفل خاصة ، بل إن ذلك من قبيل الالتزام بالعلم والموضوعية ، وهذا السبق الذي نقدمه وثيقة ودليلاً عليه ، لا بد أن يحفزنا إلى محاولة اللحاق بالعالم المتقدم في هذا المجال ؛ وصولاً إلى الندية ـ كيفاً وكمّاً ـ لأن أبناءنا سيلقون أنفسهم في صراع حضاري ، لن يكتب لهم فيه الفوز بالإصالة وحدها ، بل بضرورة المعاصرة ، ومواكبة ما يجري على الساحة العالمية ..

وها هي الوثيقة التي أشرت إليها ..

جاء في كتاب (الأسد والغواص) الذي كتب في القرن الخامس الهجري ، وأعاد الدكتور رضوان السيد طباعته ، ونشره عن دار الطليعة ، في بيروت ، ما يلي :

« إن الحكماء جعلت الحكمة في ضمن الأخبار ، وعلى ألسنة الحيوانات ، وفي أثناء الحكايات ، لتخفف عن القلوب ، وتهش إليها الأسماع .. وزخرفوها بالصور المونقة ، والأصباغ الرائعة ، استجماماً لنفوس الحكماء عند الملل ، وترويحاً لقلوب العلماء عند الضجر ، لأن محمل الجد ثقيل ، وطريقه شاق بعيد .. وكان ذلك مهماً كفعل الطبيب الرفيق ، الذي يدفن الدواء في بعض ما تشوق النفس إليه من الغذاء ، وخدعة لنفوس الصبيان والأحداث ، ليميلوا إلى استطراف الخرافات ، لأن نفوسهم متطلعة إلى نوادر الأخبار ، تثبت معها الحكمة في صدورهم ، وتلج في قلوبهم ، ويرسخ العلم في نفوسهم ،

كالصياد الـذي يطرح الْحَبَّ خـدعـة للطـائر ، لا للعلف ، بل لغرض آخر ، غير مبـدو منه . ولا بأس بالخديعة ، إذا أدت إلى الصلاح والمنفعة » .

كذلك جاء في الصفحتين ١٥١ ، ١٥٢ :

« .. والمرء إذا أراد أن يخاطب صبياً ، بما يقبله ، ويسر بـه ، تصـابى لـه في حديثه ، ومخارج ألفاظه ، وقارنه ، وتشبـه بـه في كلامـه ، فليس اطراحـه عنـد ذلـك عقله ، ناقصاً فضله ، لأن الشكل للشكل آلف ، والمثل للمثل قـابل ، والضـد عن الضـد نافر ، ولا عيب على المرء في المقاربة .. » .

« .. إن الخيل تستجيب إلى الشراب بـالصفير ، أكثر مما تستجيب إليـه ، بـالكلام البليغ ، واللفظ الجميل » .

هذه العبارات ـ التي كتبت في القرن العاشر الميلادي ـ تكشف لنـا ، أن أجـدادنـا العرب قد تنبهوا لأدب الأطفال وثقـافتهم ، إذ هي تشير إلى (الحكمـة) و (الإخبـار) على (ألسنة الحيوانات) وفي (أثنـاء الحكايـات) .. بل تنبهوا إلى الرسوم والألوان ، في هذا التاريخ السابق على الطباعة ، فأشاروا إلى أن هذه الحكايـات (زخرفوهـا بـالصور المونقة) و (الأصباغ الرائعة) .. وذلك (خدعة لنفوس الصبيان والأحداث) .. وقـد تنبهوا لكل هذا قبل (هانز أندرسون) بنحو عشرة قرون ..

من يقول إذن بأنه الرائد الأول لأدب الأطفال عالمياً ؟

إننـا نقر بفضلـه ، ونعترف بجميلـه ، لكننـا نقول إن جـدودنـا قـد سبقوه إلى فن الكتـابـة لـلأطفـال ، وتقـديم الأخبـار والحكايـات إليهم ، من أجـل أن (تثبت معهـا الحكمـة) ولكي (يرسخ العلم في صـدورهم) .. أي أنهم قـدمـوا الحكايـات من أجـل (التربية) أولاً ، والعلم والمعرفة ثانياً .

كم نحن مقصرون في حق هؤلاء الأجداد ، بقدر تقصيرنـا في حق الأبنـاء ! وفي حق

أدبهم ، الذي تصور البعض أنه لا يتجاوز بعض حكايات الوعظ ، وقصص الإرشاد ، وكل ما يدور في هذا الفلك من نصيحة ، ومغزى ، غافلين عن الأهداف الحقيقية للأدب ، والتي تتجاوز ذلك ، ولا تقف عنده ، بل إن بعض مدارس الأدب لا تقبله ، وترى الأدب (هدفاً) في حدّ ذاته ، وليس لمجرد غرس بعض السلوكيات ، وغالباً ما لا تجد أذناً صاغية .

ـ ٤ ـ

ونصل إلى تاريخنا الحديث ، الذي اصطلح على أنه يبدأ مع حملة نابليون بونابرت ، على مصر والشام عام ١٧٩٨ .. وقد تصدت مصر له ، ثم للإنجليز ، وتصادمت مع حضارة الغرب ، وثارت على الاستعمار ، من أجل التحرر ، والحفاظ على هويتها الوطنية والقومية .. وساير أدب الأطفال ذلك .. ومن معالمه في البداية (رفاعة الطهطاوي) الذي سافر إماماً لبعثة طلابية إلى فرنسا ، وإذا به يتحول إلى طالب ودارس ، وعاد ليشيع النور في أرجاء البلاد ، وأعطى للتعليم مكانته ، وكتب (المرشد الأمين في تربية البنات والبنين) وأصدر مجلة (روضة المدارس) للمعلمين والطلاب معاً ..

وقد تأثرت مدارسنا بما حدث في أوربا ، وتأثر أطفالنا بأدب ايسوب ، وشارل بيرو ، ولافونتين ، وجريم ، واندرسون ، لكننا حاولنا أن نضيف .. بمعنى أن عثمان جلال ، وأمير الشعراء أحمد شوقي ، وغيرهما قدموا صياغات منقولة عن هؤلاء الرواد ، لكنهم قدموها في صياغات شعرية جميلة ، لأننا أمة عكاظ والمربد أكبر مهرجانات الشعر ، على مدى التاريخ .. وتبع هؤلاء : إبراهيم العرب (مصري ألف ديواناً للأطفال عام ١٩١١) ، ثم الرصافي في العراق ، وظهر شعراء للأطفال معاصرون من بينهم (سليمان العيسى) من سورية ، و (فاروق سلوم) من العراق ، و (إبراهيم

شعراوي) و (أحمد زرزور) من مصر .. ونحن نحاول أن نسترجع أطفالنا إلى ساحة الشعر بعد أن غادروها منذ وقت طال ، بسبب الشعر المدرسي الذي تتضمنه كتبهم التعليمية .

وفي ميدان القصة والنثر ، بدأ الرائد (كامل كيلاني) ينشر أعماله الكثيرة منذ عام ١٩٢٧ ، مقتبساً ومترجماً ، فقدم (جاليفر وربنسون كروزو) ، بجانب أعمال من ألف ليلة .. كما أن (محمد سعيد العريان) كتب (رحلات سندباد) ، على نسق ألف ليلة ، وحاز عليها جائزة الدولة التشجيعية ، التي منحت له لأول مرة عام ١٩٦٣ .. وكتب محمد أبو حديد أولى رواياتنا للأطفال في أوائل الستينات (عمرون شاه) و (كريم الدين البغدادي) .. ثم ظهر جيل جديد ، يحاول أن يؤلف ويبدع أدباً للأطفال ..

نعم ، كنا وما زلنا تعليميين ، أكثر مما ينبغي ، وتلك هي سمة أعمالنا للأطفال وطابعها التربوي ، يرجع ذلك ، ربما لطبيعة فينا ، وإن أرجعها بعضنا ، إلى قصور المدرسة عن أداء دورها ، وفي مجال الأدب بالذات ، وجعل الأطفال يتذوقونه .. وقد حاولت وزارات التعليم ، من خلال كتب القراءة الحرة ، والمكتبات المدرسية ، بذل جهد في هذا السبيل ، فوضعت بين أيدي أطفالنا كتباً مؤلفة ، بعضها حائز على جائزة الدولة ، وذلك لتضييق الهوة ، ما بين الثقافة من جانب ، والتعليم من جانب آخر ..

وقد ضغطت مؤسسات عالمية كبرى بإنتاجها ، وصدرته إلى أطفالنا (ميكي ، سوبرمان ، تان تان ، استريكس ، جرانديزر) ممثلاً في عشرات المجلات (الكوميكس) ، بجانب مسلسلات التليفزيون (افتح يا سمسم) ، وكان لهذه الأعمال تأثير سلبي على أطفالنا ، خاصة وأن أدب الأطفال الحقيقي في الغرب والشرق ، لم يصل إلى أيدي أطفالنا (ليس لدينا ترجمات للأعمال الفائزة بجوائز إندرسون ، نيوبري ، كارنيجي وغيرها ، ما لا يزيد على عشرة كتب فقط من تلك الأعمال الحديثة

الرائعة ، وإن كنا قد أولينا الكلاسيكيات اهتمامنا ، فصدرت ترجمات كثيرة لها في كل من مصر وسورية والعراق .. كما أن الأسماء اللامعة في دنيا الأطفال ، ليست معروفة للكثيرين من كتاب الأطفال) ..

وقد حاولنا أن نسد هذا النقص ، من خلال الإذاعة ، فقدمنا عدة أعمال مسلسلة تحت عنوان (ماذا يقرأ أطفالنا عن العالم اليوم ؟) و (كتب فائزة بالجائزة) و (هؤلاء الكتاب العظام وأعمالهم الرائعة) .. إنها محاولة لوضع أقدام أطفالنا على طريق الأدب المعاصر ..

وربما لا يعرف أطفالنا الكثير من أدب الفراعنة ، إذ يعرفون سندريلا ، ولا يعرفون رادوبيس الأصل الفرعوني لها ، والتي قدمها نجيب محفوظ في عمل روائي ، كما أننا قد أغرقنا أطفالنا في العديد من قصص التراث العربي وألف ليلة ، إلا أن البعض يجد في النقل والترجمة يسراً وسهولة ، مما حد من ازدهار الأدب الإبداعي للأطفال .. وربما كانت جوائز الدولة التشجيعية ـ وهي سنوية الآن ـ قد استطاعت أن تضيف جديداً لهذا المجال ..

وبرزت في السنوات الأخيرة اتجاهات حديثة في ثقافة الأطفال ، لكي يتجمع الأدب مع بقية الفنون ، من أجل إثراء وجدان الأطفال ، وتوسيع مداركهم ، وقد حفل المجال بالعديد من الندوات والمؤتمرات (المؤتمر الأول لثقافة الأطفال كان في مارس ١٩٧٠) ، ومنذ ذلك الحين عقد نحو خمسين مؤتمراً وحلقة بحث ، وندوة علمية ، حول قضية أدب الأطفال وثقافتهم ، أثمرت الكثير من البحوث والدراسات ، نعتقد يقيناً أن أدب الأطفال سيثري بها مستقبلاً .

ـ ٥ ـ

نصيب الطفل العربيّ من الأدب : كمّاً

السؤال الذي يطرح نفسه : كيف نحصي نصيب الطفل العربي من الأدب ؟

إن الإحصائية التي أوردتها في واحدة من دراساتي ، حول نصيب الطفل من الكتب ، وتداولها الكثيرون فيما بعد ، قد تساعد في هذا المجال .. إنهم يقسمون عدد الكتب الأدبية الصادرة في عام ، على عدد الأطفال القراء ، والنتيجة هي نصيب الطفل من الكتب الأدبية .. وهو أعلى نسبة في روسيا ـ وصلت ٧,٢ ـ بينما هي ٦,٣ في أمريكا و ٥,٤ في إنجلترا .. وهكذا .

وعندما فكرنا في قسمة ما لا يزيد على ٣٠٠ كتاب للأطفال على عددهم في الوطن العربي .. ترى كيف تكون النتيجة ؟ إنها على حد تعبيري الذي صار على الألسنة والأقلام : صفحة من كتاب ، وأحياناً سطر .. وربما كلمة !

إن كَمَّ الكتب الأدبية الصادرة للأطفال ضئيل إلى حد بعيد ، ولا يكاد يذكر ، وإن العناوين الجديدة قليلة إلى درجة مزعجة ، وعدد النسخ المطبوعة من هذه العناوين ما بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ نسخة ، على عدد من الأطفال القراء يزيد على أربعين مليوناً ، متناثرين في المدن والقرى والبوادي ، قد لا يصلهم كتاب واحد ...

وقد بحَّ صوتنا حديثاً حول هذا الموضوع ، وقلنا إنه لكي يحصل طفلنا على نصيب عادل من الأدب ، لا سبيل له إلا فيض من الإنتاج الأدبي الجيد من كل لون : قصة ورواية وشعراً ، شريطة أن يصل إلى قاعدة عريضة من الأطفال ..

ولدينا من الإحصائيات ما يؤكد المجاعة الأدبية التي يعيشها طفلنا العربي ، إذ يصدر في أمريكا سنوياً قرابة خمسة آلاف كتاب سنوياً ، بينما الوطن العربي ، الذي لديه تقريباً نفس عدد أطفال أمريكا ، فهو لا يصدر أكثر من ٥٪ من هذا القدر ، وأمة

﴿ اقرأ ﴾ لا تستهلك من ورق الطباعة أصلاً إلا ١٠٪ مما تستهلكه بلجيكا التي لا يزيد عدد سكانها على ١٠٪ من الأمة العربية .

إن هذا الكَمَّ الضئيل من كتبنا للأطفال لا يصل إليهم بسبب (سوء التوزيع) ، بمعنى أن توزيع هذه الكتب في أمريكا يكون من خلال المكتبات العامة والمكتبات المدرسية التي تقتني ما بين ٩٠٪ و ٧٥٪ مما يصدر من كتب الأطفال ، إذ لديهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مكتبة عامة للأطفال ، غير المكتبات المدرسية .. والسوق ، والشارع في هذه الدولة التي نعرف أن دخل أفرادها مرتفع ، لا يستوعب أكثر من ١٠٪ إلى ٢٥٪ .. والذي يحدث عندنا ، ومستوى الدخل متواضع ، أن السوق والأفراد يقتنون من هذه الكتب ما بين ٩٠٪ إلى ٧٥٪ وأن اقتناء الهيئات العامة يكون ما بين ١٠٪ و ٢٥٪ ، الأمر الذي يجعل وصول الكتاب إلى محدودي الدخل صعباً وعسيراً ، بل ومنعدماً في المناطق النائية .

والإنتاج الوفير يهبط بقيمة التكلفة ، وبالتالي بأسعار الكتاب ، لذلك بات من الضروري تنظيم اقتناء الكتب ، قبل طباعتها وصدورها ، وتشكيل لجنة للحكم على الكتاب ، لشرائه بكميات كبيرة ، من قبل مكتبات المدارس ، لكي يظهر في أعداد ضخمة تنزل بسعره إلى مستوى محدودي الدخل .

ومن الضروري ـ ونحن نتحدث عن الكم وعن لغة الأرقام ـ أن نشير إلى ما تقوله (جوان ايكن) في كتابها (كيف تكتب للأطفال ؟) إذ وردت إحصائية عن قراءات الطفل في البلدان المتقدمة خلال مرحلة طفولته ، وتقول إنها ٦٠٠ كتاب .. وإذا كان طفلهم يقرأ هذا الكم فيما بين السادسة والثانية عشرة من عمره ـ أي خلال ست سنوات ـ فهو إذن يقرأ بمعدل مائة كتاب في السنة ، أي نحو كتابين أو أكثر أسبوعياً ..

والسؤال : كم كتاباً يقرأ طفلنا خلال أسبوع ؟ خلال عام ؟ بل خلال مرحلة طفولته ؟

ونعرف أن الكتب التي يقرؤوها الطفل ـ غير الكتب المدرسية ـ موزعة بين العلوم والفنون والآداب ، والذين ليست لهم ميول أدبية قد لا يقبلون على هذا اللون من الكتب ، الأمر الذي يضاعف من قلة نصيبهم ، ويجعله متدنياً إلى درجة كبيرة ..

ونعرف عن يقين أن للمدرسة دوراً أساسياً في تقديم الأدب للطفل ، وكثيراً ما نتساءل : هل يتعرف الطفل حقاً على الأدب داخل حجرات الدراسة وفي المكتبة المدرسية ؟ هل نقول له ما الشعر ؟ ما القصة ؟ ما الرواية ؟.. إن هذا لا يأتي إلا في سن متأخرة ، في حين إنه الأساس ، ويجدر به أن يكون البداية .. أن تأخذ بأيديهم إلى درب الأدب من خلال تعريفهم به ، وتقريبهم إليه .. والحقيقة أن أساتذتنا التربويين ـ فيما أرى ـ يظنون أن الآداب ، والألعاب أيضاً ، لا يأخذ منها الطفل غير التسلية والمتعة ، وأنها هامشية ، ربما لقضاء وقت الفراغ .. ودليلي على ذلك واضح ، ويكمن في سؤال يقول :

ـ ما هو نصيب الطفل من الآداب في المنهج المدرسي ، والكتب المدرسية خلال مرحلة الطفولة ؟

التساؤل ينصب على ماهية الأدب ، وعلى قراءة الإنتاج الأدبي ، والنصوص في مرحلة التعليم الأساسي .. وقد رأيت أن أقلب في كتب المطالعة ، إذ هي بلا شك أولى ما يصل إلى أيدي أطفالنا من الأدب ، وقد رأيت على أغلفة بعض هذه الكتب أكثر من عشرة أسماء ، لمؤلفين للكتاب الواحد ، ليس بينهم كاتب واحد للأطفال .. بل ليس بين الموضوعات المختارة موضوع أدبي واحد ، لمن حصلوا على جائزة الدولة في أدب الأطفال ، وما من موضوع ثقافي واحد ، لمن حصلوا على جائزة الدولة في ثقافة الأطفال .. من بين الأموات أو الأحياء .. وما من لانفصام أو انفصال أوضح من هذا ، وكأنما منح هؤلاء جائزة الدولة في أدب الأطفال وثقافتهم في نيكارجوا أو بوركينافاسو ..

إن كتب الأدب التي يضعها التربويون قلما تنتمي إلى الأدب ..

وفي تقديرنا أن نصف العبء في تقديم الأدب للطفل ، يقع على عاتق المدرسة ...

والنصف الآخر يقع على أجهزة الإعلام ، والأسرة والمجتمع .. إنها عودة للنصيب العادل وفق الأرقام والإحصائيات ..

وإذا قيل لنا إن نصيب الطفل من الأدب ـ كمّاً ـ لا يصل إلى هذا الطفل عبر الكتاب وحدَه ، بل هناك وسائل الإعلام من مجلات وإذاعة وتلفاز .. والحقيقة أن الأدب عبر هذه الوسائل نسبته متواضعة إلى مواد التسلية والترفيه .. بجانب أن نصيب الطفل من هذه الوسائل ذاتها نصيب يحتاج إلى مراجعة .

أما مسرح الطفل ، والمسرح المدرسي ، فإن سؤالاً أطرحه دائماً على العالمين في هذا المجال ، ويلح عليَّ كثيراً :

ـ كم مسرحية يشاهدها الطفل العربي خلال مرحلة طفولته ، لكي نسهب في الحديث عن هذا المسرح ودوره ؟

وأعرف عن يقين أن المسرح مجمع فنون ، في مقدمتها الأدب ، نجده في النص ، والأغنيات ، والأدب هنا واحد من فنون سبعة ، ويتيسر لنا أن نجعل الطفل متذوقاً للدراما من خلال المسرح تمثيلاً ، ومشاهدة ، وقراءة .. لذلك نلجأ إلى نشر كتب تضم مسرحيات للأطفال ، تعويضاً لهم عن ندرة ارتيادهم للمسرح .. كما تحاول الإذاعة والتليفزيون تعويضهم أيضاً بتقديم أعمال مسرحية لهم .. وأزعم أن الإذاعة قد خلقت أدباً خاصاً بهم ، وللأطفال ذاتهم ، أدب مبني على (الكلمة المسموعة) فيما نسميه (البرنامج الخاص) ، وفي يقيني أنه تطور كثيراً ، خلال السنوات العشرين الماضية ..

ـ ٧ ـ

نصيب الطفل العربي من الأدب (كيفاً) و (نوعيةً) :

الأدب فن ، ودراسة أضحت علماً إنسانياً ، وأصبحت له أسسه ومناهجه ومدارسه ، وكما يتدرج الطفل في تعلم الحساب : الأرقام ، ثم الجمع والطرح ، ومن بعد ذلك الضرب والقسمة ، لابد وأن يتدرج الطفل في التعرف على الأدب وتذوقه ، بل

على ممارسته وإنتاجه .. وعلى هذا ، لا يجب أن يَعبُر طفلنا مرحلة طفولته ، قبل أن يتعرف على الأجناس الأدبية من شعر ونثر ، قصة وصورة وقصيدة ، رواية وتمثيلية ومسرحية ، مقالة ودراسة ونقد ، ويتم تقديم هذه المعرفة من خلال قراءة الأطفال لنماذج منها .. إنه أمر ضروري ، وأساسيّ وحيويّ .

وهناك أعمال أدبية يجب ألا تمر مرحلة الطفولة ـ عالمياً ـ دون أن يطالعها الطفل ويعرفها ، وهناك قوائم بهذه الأعمال الكلاسيكية ، وهي تقرأ منذ سنين ، جيلاً بعد جيل دون أن يفقد أجيال التلفاز متعة قراءتها ومشاهدتها .. نعم ، الأعمال الشعبية الموغلة في القدم ضرورية للأطفال ، كالفيتامينات والبروتينات والنشويات .. وما من طفل في عالمنا المتقدم ، يعبر مرحلة طفولته ، دون أن يعرف جيداً (سندريلا) ، ويحس من خلالها بتسلط عالم الكبار على عالم الصغار ، والجميلة النائمة ، التي يتعرف فيها على لون من الموت ، وذات الرداء الأحمر ، التي تتضمن جانباً من المفاهيم الجنسية ، والسندباد ورحلة الحياة ، وعلي بابا وسحر الكلمة المنطوقة (افتح يا سمسم) ، وعلاء الدين الذي يفتح الباب لتحقيق أحلام اليقظة ، و ... إلخ ، إذ ليس هناك مجال لإيراد القائمة كاملة ، لكن هذه القصص في تقديري بمنزلة الأرقام للحساب ، والحروف الأبجدية للكتابة .. إنها (حتمية) أن يقرأها كل طفل : مصري ، أو عربي ، أو عالمي .. لأنها مدخل عالم الأدب بكافة أجناسه .

وقد اكتشفت أنه تصور قاصر منا ، أن طفلنا يعرف هذه الحكايات .. بل إن مربيات دور الحضانة لا يعرفنها ، وصلتهن بها مقطوعة تماماً ، ولنا أن نتخيل ما الذي يحدث ، إذا كان نصيب الطفل من الآداب ، لا يقوم على هذا الأساس المكين الهام ، المتفق عليه ، عالمياً ؟

وطفلنا العربي لابد وأن يقرأ أدباً محلياً ، وأدباً عربياً ، وأدباً عالمياً .. وهناك سؤال مطروح :

ـ هل يجد طفلنا نفسه في أدبنا الموجه إليه ؟

والجواب بالقطع : لا .. لا شعراً ، ولا نثراً ..

لقد بدأ أدبنا للطفل شعراً على يد شوقي في الجزء الأول من الشوقيات عام ١٨٩٨ ، وبدأ نثراً على يد كامل كيلاني عام ١٩٢٧ .. ولست أدري إذا كنا قد أنتجنا أدباً حقيقياً للأطفال ، منذ ذلك الحين ، إلى اليوم ، أن محاولاتنا في هذا المجال ، مازالت قاصرة .. أقول هذا وعيني على أدب الأطفال العالمي ، وما أحرزه من تقدم مذهل ، فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، أعرف هذا من متابعتي الشديدة لهذا الإنتاج ، من خلال جائزة اندرسون ، ونيوبري ، وكارنيجي وغيرها ، وعبر الدراسات المنشورة عن هؤلاء الكتاب العظام للأطفال وأدبهم الرفيع ، البالغ الروعة ، والذي لم يصلنا منه إلا أقل القليل ..

وتعالوا بنا نتعسف قليلاً ، ونستخدم الأرقام .. في تقديرنا أن الطفل المصري ، يجب أن يقرأ أدباً محلياً ، وأن يكون هذا الأدب خمسين بالمائة مما يقرأ من آداب ... السؤال : أين يجدها ؟.. والخمسون بالمائة الأخرى نصفها للأدب المبدع والمنتج عربياً ، والنصف الآخر عالمي ، إنساني ، موزع بين الأدب الإفريقي ، والأدب الآسيوي وأدب أمريكا اللاتينية ، وأدب الغرب ـ أوربا وأمريكا ـ ثم أدب بلدان الاتحاد السوفييتي (فيما مضى) .

السؤال : ما السبيل إلى ذلك ؟

لا بد من منهج مدروس ، لقراءة الأدب في المدرسة ، وخارج المدرسة .

ولا بد من قراءة منهجية .

ولدينا فرصة إجازة الصيف ـ ولا مثيل لطولها على مستوى العالم ، إذ هي تصل إلى نصف العام ـ وبحساب الساعات ، يقضي الطفل في البلاد المتقدمة ١١٨٣ ساعة في حجرة الدراسة سنوياً ، في حين أن طفلنا لا تتجاوز عدد ساعاته الدراسية ٦٠٠ ساعة .. وهذا الفراغ العريض ـ نصف العام ـ يجب أن نشغله بالقراءة بشكل عام ، وقراءة الأدب بشكل خاص ..

ـ ٨ ـ

وحين نتحدث عن (الطفل العربي) يجب أن تكون بين أيدينا دراسة ، أو دراسات حول شخصية هذا الطفل .. ما الذي يميزه عن الطفل الآخر ؟ ما إيجابياته التي يجب أن نركز عليها وننميها ؟ وما سلبياته لكي نعالجها ونناقشها في أعمالنا ؟ ماذا يختلف عن الآخرين في ميوله ورغباته ، دوافعه واحتياجاته ؟ كيف علاقاته الأسرية ؟ علاقاته مع الكبار ؟ ماذا عن الصبي والبنت ؟ ما موقفه من (الحياة) ؟..

هذه الدراسات النفسية والاجتماعية ، نحن في أمسّ الحاجة إليها ، بجانب الدراسات الأدبية واللغوية ، التي نستهدي بها في إبداعاتنا للطفل العربي .. إننا مطالبون بأن نعرف جيداً ، وندرس بإمعان هذا المتلقي الصغير ، وظروفه : مدرسةً وبيتاً ومجتمعاً ، كمّاً يجدر بنا أن نعطي البيئة ـ التي يعيش فيها ـ اهتمامنا من أجل تصويرها في كتاباتنا ..

إن لدينا في الوطن العربي بيئاتٍ مختلفةً ، وهناك تساؤل عما إذا كانت قد ظهرت في أعمالنا للأطفال أم لا ..

هناك السواحل والبحر .. هل ظهرت في أدب الأطفال ؟

ونحن نعيش في صحارى وجبال .. قاحلة تقريباً .. هل ظهرت هذه البيئة الصحراوية وسكانها في أدب الأطفال ؟

والتساؤل قائم : هل ظهر هذا الطفل العربي ، وتلك البيئة في أدبنا للطفل ؟

ويقرأ الطفل العربي بالعربية ، ومما لا شك فيه أن الأدب العربي الذي يصدر خارج بلده يعدُّ رافداً هاماً ، يصب في أدبه ، ويثري به .. وتفد إلى بلده مجلات عدة من أرجاء متفرقة من الوطن العربي : ماجد من الإمارات ، أسامة من سورية ، سمير من مصر ، أحمد من لبنان ، باسم من السعودية ، مجلتي من العراق ... إلخ . وهذه

أيضاً تشارك في تقديم ألوان جديدة من الأدب لطفلنا ، خاصة في مجال الشعر ، الذي برزت فيه أسماء عدة : فؤاد بدوي ، أحمد زرزور ، إبراهيم شعراوي من مصر ، سليمان العيسى من سورية ، فاروق سلوم من العراق ، محمد الظاهر من الأردن ، علي الشرقاوي من البحرين ، ومحمد صيام من الكويت ، وعلي الصقلي من المغرب .. وكلهم مبدعون ، استطاعوا أن يصيغوا قصائد جميلة لأطفالنا ، ولا شك أن أدب الأطفال النثري تقدم كثيراً في مصر والعراق وسورية ، وترد كتب من مؤلفين ، رسخوا أقدامهم في ميدان الأدب والقصة للأطفال ، من بينهم زكريا تامر ، وعادل أبو شنب ، وشريف الراس ، وعبد الرزاق المطلبي ، وعبد الستار ناصر ، ونتيلة راشد ، وأحمد نجيب ، وسمير عبد الباقي ، إلى جوار عدد كبير من المترجمين ، وضعوا أيديهم على أعمال حديثة وكلاسيكية عالمية للأطفال ، نقلوها إلى اللغة العربية من خلال البيئة المصرية العامة للكتاب في مصر ودار ثقافة الأطفال ببغداد ، وظهرت في طبعات مقبولة السعر ، جيدة في مادتها وإخراجها ..

وطفلنا جزء لا يتجزأ من الوطن العربي ، وبالتالي فهو يستفيد من هذا الرافد العربي الثري الثر .. وإقبال أطفالنا على هذه المجلات العربية ـ وبعض كتابها من سورية والعراق ومصر ، والكثير من أعمالها الأدبية تجري أحداثها في بيئتنا ، وكذلك شخصياتها وأبطالها ..

والحق أننا بحاجة ماسة إلى تخطيط ما يجري في مجال نشر أدب الأطفال ، وتنسيق أعمال الترجمة للكتب العالمية .. إذ يحدث كثيراً ازدواج ما بين البيئات ، فيترجم كتاب مرتين ، بل إن (الأمير السعيد) (لأوسكار وايلد) ترجمت أربع مرات ، و (الأمير الصغير) (لاكسبوري) ترجمت ست مرات .. وهذا إهدار للوقت والمال ، في حين أن هناك قائمة طويلة من الكتب الرائعة ، تنتظر الترجمة ، خاصة تلك الكتب الفائزة بجوائز : هانز اندرسون ، ونيوبري ، وكارنيجي ، وغيرها من الجوائز ..

وبات من الضروري للوطن العربي أن ينشر أدبه الشعبي للأطفال بمساعدة اليونسكو كما حدث مع الأدب الآسيوي ، الذي صدرت منه ستة مجلدات ضخمة ، جيدة في مادتها وإخراجها .

كثيراً ما نشعر بالضيق إزاء ألوان من الغزو الثقافي من خلال (الأدب) العالمي ، والحق أن الكثير منه لا يمت إلى الأدب بصلة ، إذ إن هناك مؤسسات ضخمة تقف وراء نشر أعمال هابطة ، لا ترقى لمستوى الأدب ، الذي نريده لأطفالنا ، وأشير بالذات إلى سوبرمان وديزني ، وغيرهما .. والواقع أن الأدب الحقيقي ، الذي يثري وجدان أطفالنا ، ويوسع من خيالهم ، وينمي ذكاءهم ، قلما يصل إلينا ، إذ إن أطفالهم يستفيدون منه ، في حين يبقى أطفالنا أسيري الكوميكس ، والصور المتلاحقة ، والسيناريوهات ، التي لا تضيف إلى الأدب شيئاً ، بل هي لا تدرب الطفل على القراءة ، بل يكتفي بالمشاهدة ومتابعة الصور لا أكثر ، مما لا يترك في نفسه أثراً حقيقياً ، إنها مواد للتسلية ، وقتل للوقت ، وغرس مفاهيم تختلف عن مفاهيمنا ..

والسؤال : كيف نتفادى الغزو الثقافي ، وفي نفس الوقت ، كيف نفتح نوافذ لأطفالنا يطلون منها على الأدب العالمي ؟

أعرف أن قيمنا تقف صامدة في وجه الغزو ، لأننا مسلحون بالكثير مما يحول بينهم وبين إغرائنا في مادتهم ، سواء من الغرب ، أو من الشرق ، لتبقى لأطفالنا أصالتهم ، وليواكبوا العصر ، ولا يتخلفون عنه .

- ٩ -

المستقبل لم يعد ضرباً للرمل ، وقراءة للفنجان ، بل هو تحديد للأهداف ورسم الاستراتيجيات ، ووضع الخطط ، وتنفيذ للبرامج ، والتفكير فريضة إسلامية

(لا عبادة مثل التفكير) ، وقد منحنا العقل لنعمله ، كي نستشرف المستقبل ، ونعد له ، حتى لا يفاجئنا ..

والمستقبل حفيد للماضي ، وابن للحاضر ..

وماضي أدب الطفل ، قد يبدأ مشافهة ـ مع حواء ، تروي لقابيل وهابيل حكاية خروجها وآدم من الجنة ـ وقد صيغت هذه الحكايات بلغات العالم المختلفة ..

وكانت الميثولجي اليوناني مصدر آخر للقصص ، لم نتقبله لما يحويه من صراعات بين آلهتهم .. وإن كان هورثون قد صاغ بعضاً منها للأطفال بشكل رائع .. بجانب حكايات إيسوب اليوناني .

وجاء عصر الحضارة العربية الإسلامية ، وقد أمدَّ الإنسانية بكنز رائع من الحكايات .

ومن المهم أن نتوقف عند الأدب الشعبي ، الذي هو مصدر عالٍ لقصص الأطفال .. جهيمان جمع تراث الجزيرة ، وعبد الرحيم الغول جمع حكايات الأردن ، نزار الأسود جمع حكايات شامية ، وداود سلوم حكايات العراق ، وصفوت كمال حكايات الكويت ، د . طالب الدويك حكايات قطر ، وفي مصر جمع حسن الشامي وعبد الفتاح الجمال وشوقي عبد الحكيم الكثير من هذه الحكايات .. وقد بدأت ريادة الاهتمام بالأدب الشعبي على يد د . فؤاد حسنين و د . عبد الحميد يونس و دة . سهير القلماوي .. وفاروق خورشيد ود . عز الدين إسماعيل ، و د . نبيلة إبراهيم ، و د . أحمد مرسي .. والتجمع تمَّ بشكل متواتر على أيدي كثيرين .

وهناك ما جمعه (ريديارد كبلنج) من القصص السببية التي تفسر الظواهر الطبيعية فضلاً عن جامعي الحكايات عالمياً ، من أمثال الأخوين جريم في ألمانيا ، وشارل بيرو في فرنسا ، وكبلنج وجاكوبز في إنجلترا ... إلخ .

الماضي في الشرق والغرب ثري ، وكان إرهاصاً بما يقدم في الحاضر ...

ومأساة أدب الأطفال في الحاضر تتمثل في ركون البعض إلى مجرد صياغة القديم .. وكانت هناك محاولات للإبداع ، على منوال التراث من ذلك (سندباد) لسعيد العريان ، و (كريم الدين البغدادي) و (عمرون شاه) لفريد أبو حديد .. وكانت هناك جهود في المغرب لعبد السلام البقالي ، وفي سورية لزكريا تامر ، وفي السودان لإبراهيم إسحاق .

وازدهر أدب الأطفال في الغرب ازدهاراً كبيراً ، بل أظنه تجاوز أدب الكبار في كثير من البلدان .. يتبدى ذلك فيما يزيد على ثلث مليون كتاب في مكتبة I.Y.L في ميونيخ ، بجانب مراكز أدب الأطفال العالمية .

وكانت هناك محاولة لترجمة كلاسيكيات أدب الأطفال ، والكلاسيكيات هي الدعامة التي يمكن أن ينبني عليها أدب للأطفال ، إذ قرؤوها جيلاً بعد جيل .

والمأساة الحقيقية انفصام أدبنا للأطفال ، عن أدبهم العالمي ، فليس هناك كاتب واحد عالمي معروف للناس ، غير اندرسون ، وربما لويس كارول .. وبعد الحرب العالمية الثانية ، هناك سيل من الأعمال الأدبية الرائعة ، لا تصل إلينا ، بل ليس لدينا من يعرف اسم فائز واحد بجائزة اندرسون .. بدءاً من اليانور فارجون ، ووصولاً إلى فرجينيا هاملتون .. أسماء مجهولة هنا ، مع أنهم يتساوون مع الفائزين بنوبل .

هذا الأدب لم يصل إلينا ، في حين ألحت علينا المؤسسات التجارية ، التي تبيع لنا إنتاجها ، والذي هو في تقديرنا تدمير لهذا الأدب (والت ديزني وغيره) وهو يدغدغ مشاعر المشاهدين ، مغفلاً الاحتياجات الضرورية للأطفال ، الأمر الذي جعل النقاد يوجهون إليه انتقادات حادة .

ولا بد هنا من الإشارة إلى (أدب الخيال العلمي) الذي يحاول أن يستشرف المستقبل منه كتبه هـ . ج . ويلز الإنجليزي وجول فيرن الفرنسي ، وسلجاري

الإيطالي .. وقد تنبأ ڤيرن بنحو ١٩ اختراعاً توصلت الإنسانية إلى ١٧ منها .. وقد حدث انفجار فيها بعد هذا ، في هذا المجال ، بعد الحرب العالمية الثانية ، واشتهر به إسحاق اسيموف .

من الضروري أن نرصف جسوراً بيننا وبين كتاب الأطفال المرموقين على المستوى العالمي وبخاصة هؤلاء الذين حصلوا على جوائز كارنيجي ، ونيوبري ، ونوما ...

ومستقبل أدب الأطفال العرب يعتمد على ظهور (مبدعين) جدد .. وعلى انتهاء عهد اللصوصية والشارونية في هذا الأدب .. إذ إن هؤلاء يغلقون الطريق أمام (المؤلفين) لا بد من الكشف المبكر عن المبدعين ورعايتهم .. ومنح التفرغ لهم .. ولن يتأتى ازدهار هذا الأدب ، اللهم إلا إذا لقي تشجيعاً حقيقياً ، وإلا إذا وضعنا أيدينا على الأدب المبتكر .

إن أمريكا وحدها يصدر فيها سنوياً منذ عام ١٩٨٨ خمسة آلاف كتاب .. ولسنا ندري في عصر انفجار المعرفة كيف يكون المستقبل هنا .

والحديث عن أدب الأطفال شعراً ونثراً ، قصة ورواية ، تمثيلية ومسرحية .. وليس عن أدبيات الأطفال ، وما يكتب لهم من معارف ومعلومات .. والدراسات التي تكتب هنا عن هذا الأدب لا تواكب العصر .. بل نحن لا نعرف ما يكتب على المستوى العالمي ..

وهناك فنون أدبية حديثة مثل (الكتب المصورة) لم ننتج منها شيئاً ، وقد أضحت عالمياً لها مكانتها الكبيرة .. وهي أصعب ألوان الكتب الأدبية ، واقتحام عالمها في حاجة إلى جهد حميد ..

ونأتي للأدب الإسلامي للأطفال .. الكتابات الإسلامية قاصرة على التاريخ الإسلامي والسِّيَر ، والبطولات ، ونادر هو كاتب الأطفال الإسلامي ، الذي يكتب

عن العقيدة ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وأركان الإسلام ، والقيم التي يجب ترسيخها في نفوس الأطفال .

وتتعدد الرؤيا بقدر تعدد الزوايا ..

لقد رأيت أدب الأطفال شجرة ، لها بذورها (وهم جامعوا الحكايات الشعبية) وجذورها (وهم مَنْ كتبوا للكبار وأعجبوا الأطفال) وجذوعها (من أمثال اندرسون وكينيث جريهام) وفروعها (الموضوعية ، وفي كل بلدان العالم أيضاً) وأوراقها الكثيرة (ألوف الكتب الصادرة لهم) وأزهارها (وهي الأعمال المنتقاة التي حققت النجاح) ثم ثمارها (التي ظهرت في صورة ٦٠٠ كتاب يقرؤها الطفل الغربي في مرحلة طفولته ، كما تقول جوان ايكن ، وترى أن هذه الكتب ألفت فعلاً ، وإذا أردت أن تكتب واحداً ، فلا بد من أن يزاح آخر من على الرف ..) .

ولنفتح قلوبنا وصدورنا وعقولنا للرأي ، والرأي الآخر ، في قضية مستقبل أدب الطفل العربي ، فإنه يعني مستقبل أمتنا على المدى البعيد ..

وبعد

موضوع الأدب والطفل العربي يطول فيه الحديث مضموناً وشكلاً ، محتوى وقالباً ، لكن السنين العشر القادمة لا بد أن تضيف الكثير إلى هذا الأدب ، خاصة ، وهناك إقبال من جانب الكتاب على تناوله ، وإقبال من جانب الأطفال على قراءته ، ونتوقع له ازدهاراً كثمرة للتيارات العالمية ، والنهضة العربية ، وتقدمنا في هذا المجال ..

وفي تقديري أنه لابد من استثمار القارئ العربي الصغير ، في شتى أرجاء الوطن الكبير ، من أجل نشر الجديد ، الجيد الذي يأتي بمردود أدبي ومادي ، يظهر أثره على أبنائنا في المستقبل .

الفصل الرابع

حدود أدب الأطفال

د. عبد الرزاق جعفر

نودُّ أن نبدأ موضوعنا بسؤال نطرحه على أنفسنا هو : ما حدود أدب الأطفال ؟

ولكي نجيب عن هـذا السـؤال لا بـدَّ من أن نقف حـول كلمـة (حـدود) وكلمـة (أدب) . فأيّ حدود نقصد ؟ وبالاستناد إلى أيِّ شيء توضع هذه الحدود ؟

ثم ... أيّ أدب نريد ؟ هل هو ذلـك النتـاج المشوّه والمزيَّف للحكايـة الشعبيـة ، والحكاية الطريفة الخفيفة (الفانتازيا) ؟ هل هو ابتداع المربّين ؟ أم أنه ذلك الإنتـاج التجاري الذي ينبذه المستهلك الصغير حين يبلغ سن الرابعة عشرة ؟

هل يعدُّ (أدب الأطفال) أدباً ؟ وهل يتحتم علينا أن نقحم فيه أسرار الحيوانـات الأهلية ، والحيوانات المتوحشة ، وأعاجيب هذه الحيوانـات وتلـك ؟ من مؤلف (أدب الطفولة) ؟ وما فائدة هذا (الأدب الطفولي) ؟

كل هذا ليس جديداً علينا . فهذه الأسئلـة تطرح في بلادنـا ، وفي بلـدان أخرى ، منـذ سنوات عـديـدة . وكثيراً مـا أثيرت معضلة (كتـاب الأطفـال) ، على صفحـات المجلات ، وفي النـدوات المتخصصـة والمحـاضرات . وكثيراً مـا رفض (الكتّـاب الكبـار) و (المؤسسات الجامعية) النظر إلى (أدب الأطفال) على أنـه (أدب) . قـد يتسـاهل بعضهم فيصفـونـه بقـولهم إنـه (أدب مسـاعـد) أو (تجسيـد لـلأدب) أو (نـائب) أو (بـديـل) أو أيّ شيء آخر . أمـا كلمـة (أدب) ذاتهـا فهي كبيرة على الأطفـال

الصغار . وهذا مادعا كثيراً من الراشدين إلى أن ينظروا إلى ما يكتب الأطفال نظرة احتقار واستصغار ، لأنهم (يتذوَّقون) الأدب الرفيع وحده ...! أما ما يكتب للأطفال الصغار ، فلا يمسُّ أوتار قلوبهم ...! إنهم (ذوَّاقون) ...!!!

هذه الملاحظة الأولى تقودنا إلى ملاحظة ثانية ، نكتفي بذكرها ذكراً عابراً ، قبل الانطلاق في موضوعنا ، وهي أن الراشدين ، في بلادنا ، وفي بلاد أخرى ، يرون أن من الطبيعي جداً أن يكون (أدب الأطفال) متواضعاً مادام (صبيانياً) ...!!!

على الرغم من هذه الاعتراضات وغيرها ... ظهر (أدب الأطفال) إلى الوجود ، وفرض نفسه ، ووطَّد حركته ، وحارب تلك الأوهام . ولقد حدَّد كتَّاب الأطفال شكله ، في السنوات الأخيرة ، وأضافوا إلى الطباعة الأنيقة الواضحة والورق الصقيل ، صوراً جميلة ملوَّنة برَّاقة ساحرة . وأصبح أيّ كتاب جديد للأطفال لا يخلو من الصور . وقد ظهر ، في عدد من البلدان الأجنبية ، والبلدان العربية أيضاً ، إنتاج هائل متنوِّع وملحوظ من الكتب المصوَّرة للأطفال . ونتيجة لذلك ، ظهر نقد منظَّم في الصحافة الكبرى ، وسوق كبرى مستقرة نسبياً . وشارك في ذلك كلِّه ، الكتَّاب وأصحاب المكتبات ، في كثير من الدول ، سعياً وراء ترويج أدب الأطفال . أما في العالم العربي ، فما يزال النقد غائباً ، وبقيت السوق غير مستقرة . ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن النقَّاد فيه يأنفون من نقد كتب الصغار ، وإلى أن التجارة هي التي تشرف على إنتاج هذه الكتب . لذا كان علينا ـ إذا أردنا الخير لهذا (الأدب) الناشئ ـ أن نلتفت إلى مسألة النقد وإلى مسألة النشر .

إن النقد الأدبي الموجَّه إلى كتب الأطفال ، في عدد كبير من دول العالم ، قديم يعود إلى أكثر من نصف قرن . وهذا يعني أن نقَّادنا متخلِّفون في هذا الميدان أيضاً ، حوالي خمسين عاماً . لذا وجب عليهم أن يبدؤوا عملية النقد فوراً لهذا الأدب الناشئ . فالنقد عامل هام من عوامل تقدُّم أيّ أدب . وهو ضروري للغاية عندنا ، في هذه الأيام ، على وجه الخصوص ، بسبب إقبال كل (من هبَّ ودبَّ) على الكتابة للطفل .

فمن النقـد والحوار والمنـاقشـة الحرَّة تفتح أبواب أمـام المـؤلفـات الرائعـة ، والمسلسـلات المصوَّرة ، والقصص والحكايات الجميلة ، والأشعار الخفيفة الممتعة والمفيدة ...

لقد تطوَّر كتاب الأطفال تطوُّراً ملحوظاً من حيث المحتوى والشكل ، في أيـامنـا هذه ، كما تطوَّر وضع قرَّائه أيضاً تطوُّراً بارزاً . وإذا دقَّقنا في هذا التطوُّر ، الـذي نراه اليوم أمامنا ، تمكَّنا من أن نتنبّأ له بانعطاف هام ، سوف يشهـده في القريب العـاجل . كما نخشى أن يظلَّ هذا النجاح موقتاً لا غد له ولا مستقبل ، وأن يكون صداه ضعيفـاً . بيد أن ما نراه في العالم من اهتمام الكتَّاب أنفسهم ، والآبـاء ، والأولاد ، والجيل النشيـط من الرّسّامين ، أنه يعيد الشباب إلى أسلوب الحكاية والصورة .

لقد اكتشفت أموراً كثيرة ، وموضوعات عديدة ، على النطاق العالمي ، اكتشـافـاً أفضل وأصـدق ، ونظر إليهـا بصـدر أرحب وأوسـع . وشرع الكتَّـاب يتـوجَّهـون نحـو موضوعات جديـدة ، بعـد أن قطع بعضهم صلاتـه مع العـادات القـديمـة في الكتـابـة . واقترحت (كتب الجيب) لـلأولاد . وهنـا ظهرت مشكـلات جـديـدة ، إذ اتَّخـذت منشورات الأطفال (مظهراً راشداً) نتيجة للمبالغة في الاهتمام ، والحرص على النـاحيـة التجارية في أدب الصغار .

ارتبطت هـذه الأنواع من التقـدم بمركز اهتمام جـديـد ، عـدد جمهور الراشـدين ، الذين أخذوا يعنون في البحث ، عما يمكن أن يساعد على توسيع أفق الصغار ، وزيادة الاطلاع عندهم ، فأصبحوا أكثر إلحاحاً على مسألة (اصطفاء) كتب الصغار .

على هـذا النحـو ، يمكن أن نستخلص ، من تضـافر النقـد ، وحسن اختيـار المستهلكين من القراء ، نسبـة مئـويـة من الأعمـال الأدبيـة الهـامـة جـداً ، تقـدَّر ـ في أوروبا ـ بعشرة إلى عشرين في المئة ، من مجمل الإنتاج الموجَّه للصغار . أما عندنا فهـذه النسبة أضعف بكثير !

يرى النقّاد الأوروبيون أن هذه النسبة (١٠ ـ ٢٠ في المئة) قليلة جداً . إلا أنهم يضيفون إليها كل ما ينشر في الصحف والمجلات ، وكلّ ما يبثُّ في الإذاعة ، والشاشة الصغيرة ، والشاشة الكبيرة ، وما يمثِّل على خشبة المسرح . فترتفع هذه النسبة ، فتصبح مشجّعة . لكنها لا تمثِّل طموح المربّين ، وطموح الأولاد أنفسهم .

يتصف (أدب الأطفال) الراهن ، في كل أنحاء العالم تقريباً ، بصفة عامة ، هي أنه سجين بين دفّتي كتاب حدَّد الراشدون الكبار شكله وموضوعاته ، وأخضعوه للغة محدَّدة ، ولهجة محدَّدة . وتتذبذب فيه اللغة واللهجة بين الغرابة والإسفاف عادة . إذا انتقلنا من كتاب إلى آخر ، وجدنا النعوت ذاتيا ، والتشبيهات والموازنات ذاتها ، بل الجمل ذاتها تقريباً . وإذا وجدنا ، عند بعض المؤلفين ، قلقاً يدلُّ على شعورهم بالمسؤولية ، ويدفعهم نحو نشر الطمأنينة في نفوس الصغار ، فإننا نجد عند غيرهم ميلاً إلى خلق الصور المفزعة ، كما نجد عند آخرين رقة ورتابة تقودان إلى الملل إلى درجة قاتلة .

نستطيع أن نقدّم الملاحظات ذاتها حول الأفكار والموضوعات . إنها أفكار وموضوعات أزلية ، وجدت منذ عهود قديمة ، حيوانات تتقمّص شخصيات البشر ، فتتحدَّث ، وتحتال ، وتنتصر أو تنهزم ، ومغامرات متنوعة ، وصفات متميِّزة كالصداقة والطبيعة والبيئة ، ومعضلات (نفسية) وأخرى (اجتماعية) ، وشخصيات رئيسية وثانوية ، ومواقف (درامية) . إنها أمور أضحت سهلة تتكرر كثيراً . حتى أن (رواية الأطفال والفتيان) وضعت لها (وصفات جاهزة) منذ زمن طويل . ولسنا ندري ...!! لعل اختيار مواد (أدب الأطفال) سوف يصبح أمراً يعهد به إلى (العقل الحاسب) في المستقبل القريب .

في هذه الحال ... سوف يصاب الخيال إصابة بالغة ...!!!

أخيراً ... يجب أن نقرَّ أن (أدب الأطفال) يمنح نفعه حدوداً ، وذلك حين يقتصر على جمهور الأطفال وحدهم . بل إنه لم يكتف بذلك ، في هذه الأيام ، بل خلق فئات

ضمن هذا الجمهور . ولحسن الحظ ، ابتعد الناس ، بصورة عامة ، عن التمييز الجنسي ، بين الصبيان والبنات ، ذلك التمييز الذي كان يعبّر عنه بصراحة في الماضي ، على غلاف الكتاب ، حيث يوجّه بعض الأطفال نحو روايات المغامرة ، بينما يصرف بعضهم الآخر نحو حكايات الجن . إننا نرى الناشرين ، في السنوات الأخيرة ، وقد أخذوا يضعون علامات السن أيضاً على الكتب الموجَّهة للأولاد شيئاً فشيئاً . كما أن النقَّاد ، في الدول المتقدّمة ، شرعوا يسعون جاهدين في الكشف عن (الشريحة) التي تناسبها هذه المجموعة المصوَّرة ، أو تلك الرواية ، أو كتاب التوثيق ذاك . وهم يحاولون أن يكونوا دقيقين قدر المستطاع . إن هذا العمل يخصّص لكل كتاب جمهوراً محدَّداً إلى درجة نستطيع معها التنبّؤ بمجموعة الأذواق والاهتمامات ، عند كل فئة من فئات القراء .

لقد خلق حرص الناشرين على الربح ، واندفاع النقاد في الذّم والمدح ، بلبلة عند الآباء ، فأصبحوا يتردّدون في شراء الكتب لأبنائهم ، خوفاً من أن تكون عملية الشراء غير مجدية . ولقد ذهب الناشرون والنقاد بعيداً جداً ، وتجاوزوا شواغل الراشدين الحقيقية . كان بعض الناس ، إذا أرادوا شراء لباس لابنهم ، اشتروه للسن الأكبر ، لأنه ، في هذه الحال ، سوف يستخدم مدة أطول للولد ولأخيه الذي سيولد بعده . وهذا ما يحدث في كثير من البلدان . فكم من (الكتب والهدايا) تختار على هذا الأساس ؟ وكم من الأمهات قدّمن لأبنائهن ، بنية حسنة ، موسوعة مشهورة تصلح للواحد وللجميع ؟ لقد مرّت مرحلة على الآباء كانوا يخشون فيها شراء الكتاب (الرضيع) لأن الولد سوف يعبث به ، ويقذفه أرضاً ، أو يمزّقه . ونحن نعرف حساسية الصغار إزاء تلك الكتب المصوَّرة الملوَّنة الزاهية . يضاف إلى ذلك أن أسلوب إخراج الكتاب نفسه كان سبباً من أسباب سوء التفاهم ، لأن أفضل المجموعات المصوَّرة التي كانت تنزل إلى الأسواق ، تسحر أبناء السابعة وما فوقها .

قد يقول قائل : « إننا نسدُّ الطريق أمام الولد الذي يسبق عمره » . وقد يسألنا عن الضرر الذي يصيب هذا الولد إذا نحن أتحنا له الفرصة لكي يستمتع بكتاب الصور

الذي يخصُّ أخته . أليس هذا ما يفعله في الحضانة ، وفي المكتبة العامة ، بل في مكتبة البيت أيضاً ، عندما يمنح بعض الحرية ؟ هل نسيء إلى الولد إذا سمحنا له بالعبث بكتب من هم أكبر منه سنّاً ؟

علينا أن نثق بالطفل . علينا أن نمنح الثقة لأولئك الذين يسحرهم المجلّد الضخم الصعب ...!! نحن لا نرى أيَّ مانع يحول دون ذلك . لكن معظم الراشدين الكبار لا يهتمون بكتب الأطفال إلا قليلاً . لذا فهم يعتقدون أن من واجبهم التدخل في اصطفاء الكتاب ، لأنهم هم المشترون ، وهم الذين سيدفعون ثمنه . لكنهم ينسون أنهم ، في عملهم هذا ، يفرضون ذكرياتهم وأذواقهم ومعاييرهم ، ظنّاً منهم أنها صالحة لكل الأعمار . بل إنهم ينسون أيضاً أن اهتمامات أولادهم وحاجاتهم خاصة بهم ، وأنها تنتمي إلى زمان غير زمانهم . والمصيبة تكون أدهى وأعظم ، عند أولئك الذين لا يعرفون الصغار ، مع أن هؤلاء الصغار يشاطرونهم الحياة ...!

عاش الراشدون مع الصغار ، منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض . وتناول الراشدون الطفل ، عبر قرون طويلة ، بصبر وأناة ، وحاولوا دائماً أن يعلّموه كيف يكون نافعاً ومحترماً ومتعقّلاً . وفي نهاية القرن الماضي ، التاسع عشر ، تناولت الطفل علوم عديدة ، وجعلته موضوعاً للدراسة الجادّة المتناسقة . واهتم به علماء النفس ، والمحلّلون النفسانيون ، والمختصون في علم التربية وعلم الاجتماع ، وغير ذلك . وأخذ هؤلاء كلهم على عاتقهم مهمة معرفة خصائصه ، وعلاقاته العميقة بالراشد ، وقدراته الكامنة التي قد تحدّد مصيرنا ومصيره . وعلى الرغم من التقدم الهائل ، في هذا الميدان ، وعلى الرغم من ظهور عدد وفير من المؤلفات والمقالات والأبحاث ، وعلى الرغم من جهود التبسيط والتسهيل ، لم تتطوّر أفكار جماهير الناس تطوّراً كافياً ومناسباً . بل إن هذه الأفكار ظلّت مشوّشة مختلطة . فهم ما يزالون يرون الطفل حيواناً صغيراً أو إنساناً سيئاً عديم الشكل ، أو إنهم يرونه ملاكاً ، أو عبقرياً قيد التكوّن ، أو مواطن المستقبل ، أو محرّر الأمة والإنسانية . منهم من ينظر إليه على أنه (أبو الرجل) .

منهم من أحبَّه . ومنهم من خشي جانبه . بل إن هناك من أحبه وخشيه في وقت واحد ، لأن كل شيء كامن وممكن فيه ، رغم أنه لا يملك الخبرة في الحياة ، ورغم أنه لا يملك وعياً واضحاً لما هو عليه ، ورغم أنه لا يملك وسائل توطيد الذات .

إذن ... الطفل محدّد بكل شيء . وليس من الغريب أن نجد الأدب الذي يخاطبه ، والذي « يفصَّل على قدّه » يمكن خصائصه وطباعه . إلا أن الحدود التي تحيط بالطفل أقلّ من تلك التي تحيط بالراشد ، ذلك أن فرص الاختيار والعمل تظل متاحة أمامه ، وكل الإمكانات ميسَّرة له تقريباً ، قد لا يستطيع - بطبيعة الحال - أن يكتسب الخبرات كلها خلال طفولته القصيرة . وقد لا يتمثّل المعارف المتنوّعة الوفيرة ، في هذه المرحلة . وذلك يعني أنه لن يكون قادراً على اكتساب كل شيء ، مهما كان ذكياً . إذن ... ما الفائدة التي يجنيها هو ، ونجنيها نحن ، من الحديث عن المعجزات والأعاجيب ، وعن قدرات الطفولة ، ودراسة قاموس الطفولة ومفرداتها ، وعن الحدس الطفولي ، إذا كان ذلك كله يبعده عن حقائق الحياة اليومية ؟ وما فائدة الحديث عن ثقافة الطفل ، إذا كنا - في الوقت ذاته - نغربل هذه الثقافة ، وننقلها إليه عبر قنوات وممرات وسبل نشقّها نحن ، وندفعه نحوها دفعاً ؟ لأننا نريد أن نجعله كما نريد ....!!!

لقد بيّنت الدراسات العديدة ، حول وظائف أدب الأطفال ، ولغة هذا الأدب ، أن مجموعات الصور الأولى (الألبومات) ، وكتب الخيال العلمي ، وكتب التوثيق ، يجب أن تتلاءم مع فهم الطفل ، واهتماماته ، وحاجاته الحقيقية ، لكي تكون مقبولة لديه . بيد أن هذه النقطة ذاتها تدفعنا إلى التساؤل الدائم عن مدى ملاءمة هذه الوسائل الأدبية لمراحل تطوره ، ولتوسّع إدراكه المتنامي المرافق لهذا التطور ، ولمعرفته لنفسه وللعالم ، علماً بأن هذه المعرفة متطوّرة أيضاً .

إن فهم الطفل لنص من النصوص أمر خاص به . فكل طفل يفهم النص بطريقته . وهذا ناجم عن مستوى وعيه ، الذي يحصل عليه من بيته ومحيطه . ولما كان من المستحيل أن يشبه بيت بيتاً آخر ، أو أن تماثل تربية تربية أخرى ، فإن من

المستحيل كذلك أن يفهم طفلان النص الواحد بشكل واحد ، حتى لو كانا في عمر واحد . هذا الوضع يجعل المؤلف أمام عدة اختيارات ، على مستوى الموضوع ، أو الموضوعات التي ينوي كتابتها ، ومستوى التعبير الذي يلجأ إليه في طرح تلك الموضوعات . ولا ننس أن العمر يلعب دوراً حاسماً في تعريف أدب الأطفال . لكن هذا لا يعني حتماً ، أن يكون دور هذا الأدب محدّداً .

لقد تقدمت الدراسات حول حاضر الطفل ، واستخدمت بعض السمات النموذجية ، الخاصة بكل مرحلة من مراحل نموّه . لكننا ، مع الأسف الشديد ، شرعنا نتيه في سجن من التعريفات ، ونقيِّد أنفسنا بحدود اللغة والوسط الاجتماعي وغيرهما ، علماً بأن فهمنا للطفل ، يجب ألاّ يتوقف ، لأن الحياة نفسها ، لا تتوقف عند الطفل . إن الحياة ـ عند الطفل ـ تعني أن يتخطّاها باستمرار . فالطفل مكتشف دائم . لذلك كانت الكلمة ضرورية جداً عنده ، سواء كانت مقروءة أو مسموعة ، لأنها تساعده على الاكتشاف والاطلاع . فهو يدخل ، عن طريق الكلمة ، إلى مكتشفاته ، والكلمة تثير لديه الاهتمام ، وتجدِّد عنده الرغائب .

ومع كل ولد يعود الأدب إلى أصوله ، مادام هذا الأدب شفهياً في البداية . وبما أن الطفل الصغير لا يعرف القراءة ، فإنه سوف يستمع وينظر ، وحيداً أو ضمن رهط ، لأنه يتلقى القصة من راوية راشد حاضر أمامه فعلاً ، استماع جماعي في الصف أو في المعسكر ، أو في حصة القصة ، مشهد يدغدغ المخيلة ، حوار ودّي مع الأب أو الأم أو الأخ الأكبر ، أو المعلم أو المشرف ، حيث تجد الكلمة صداها في أعماق المستمع الصغير الصامت . يندمج الحقيقي مع الخيالي ، فيغني أحدهما الآخر ، وينعكس أحدهما على الآخر ، ويقوم الحب والذكاء والرقة والخبث بنزهة حرة ممتعة .

ثم تدخل الصورة طرفاً ثالثاً في هذه المسيرة . لكن الصورة قد تصبح عقبة ، إذ إنها تجمّد الحكاية في مكانها ، وتجعلها شبيهة بالحادثة المادية . لكنها ، عند المبتدئ وحده ، ومع أول كتاب له ، توفِّر للصغير متعة لذيذة عامة ، شبيهة بمتعة المسلسلات

المصورة ، أو شبيهة بالمتعة التي يبعث عنها الراشدون الكبار ، حين يجلسون أمام الشاشة الصغيرة ، أو الشاشة الكبيرة ، فيندمج الطفل مع الصورة ، ويعيش مع شخوصها ، وكأنه يعيش مع أناس حقيقيين ...!

وبذلك يقترب الطفل الصغير من الكتاب ...

وبعد فترة من الزمن ، تصبح المطالعة الفردية سبباً للقاءات خصبة ، حيث تأتي خبرة الطفل الشخصية ، فتدعم النص ، وتطيله ، وتوسّعه . بل إنها تغذّي توقُّعاته ، وتنقله إلى الحياة التي ابتدعها له المؤلف الراشد . لذا كانت رغبة الأهل في إبعاد الطفل عن الكتاب ، أو في المحافظة والحرص عليه ، عاملاً من عوامل قطعه عن مستقبله . يشدّد بعض الآباء الرقابة على الطفل ، فيحرمونه من التطلع إلى المستقبل ، ويقدمون إليه صورة مشوّهة ، أو معادية ، أو منحرفة ، لعالم الراشدين . وبذلك يجعلون انتقاله إلى النضج أمراً في غاية الصعوبة .

إن الطفل يحتاج إلى نماذج يتقمّصها . وعلينا ألا نجعله جاهلاً لكل أولئك الذين دفعوا إمكانات الإنسانية نحو الأمام . هذه النقطة هامة جداً . ومنها يخلق الطموح عند الطفل وتتحدَّد مطالبه المقبلة . إنه سوف يصبح مراهقاً في يوم مقبل . وسوف تبرز عنده الحاجة الرائعة إلى توطيد ذاته ، وتحديد موقعه ، ليتمكن من حسن التصرُّف .

يشعر عدد كبير من الراشدين بالقلق العميق ، حين يحاول الأطفال القفز فوق الحواجز ، وتخطّي الحدود . ولقد عبَّر عن هذا القلق ، في السنوات الأخيرة ، باستبدال بعض المفردات . حتى كلمة (طفل) ذاتها أصبحت كأنها شتيمة . ففي اللغة الفرنسية مثلاً تستعمل اليوم كلمة (شاب) بدلاً من كلمة (طفل) و (شباب) بدلاً من (طفولة) . إن الطفل (شاب) من المهد حتى مرحلة الرشد . لكن الأطفال يظلون أطفالاً مع ذلك . إنهم لا يأبهون بموقف الراشد منهم . أو إنهم لا يفهمون هذا الموقف ...!

هناك موقف آخر يعاني منه أدب الأطفال .

إن بعض الآباء يبعدون أبناءهم عن تحمل المسؤوليات ، ويعاملونهم معاملة الأطفال ، حتى عشية كسبهم عيشهم . وفجأة تحدث الطفرة . ويقذف بالفتى إلى مستقبل غير مضمون . لذا يجب أن يكون المرء مسلّحاً ، وأن يعرف العالم الذي يعيش فيه كما هو ، وليس على أنه عالم مثالي مليء بالخير ، أو بالشرور والآثام . يجب أن يتعلم الولد كيف يأخذ على عاتقه مسؤولية نفسه ، منذ سن مبكرة ، وأن يهيّأ للمعركة المقبلة التي سوف يخوضها ، بين يوم وآخر ...

ماذا فعلت تربيتنا ، في الوقت الحاضر ، في ميدان الكتاب ، لكي ترضي هذه الحاجات العاجلة ؟ يقال إن التربية هي « أمّ أدب الأطفال » . فهي التي قدّمت إليه ، في كل مكان وفي كل زمان ، أفكارها وأخلاقها ، وهي التي كان لها الفضل الأكبر عليه . إنها ـ في الوقت الحاضر ـ أكثر استنارة ، حول الأهمية الحاسمة للسنوات الأولى من الحياة ، وحول القدرة التي يتمتع بها اللاشعور ، الرغائب ، والتوترات النفسية ، والعنف . هذه الانفعالات وغيرها ، تدخل في العمل التربوي والأدبي ، وتكشف عن براءة (الأطفال التقليدية) وتبرزها بمفاهيمها الجديدة وأشكالها ومضمونها ، وتبيّن المهمات التي تقع على عاتق الراشدين ، في سبيل إطلاع الناشئة والترويح عنهم .

هذا الأدب تعليمي ، أكثر من أيِّ أدب ، في أي وقت مضى ، لكننا أسأنا تمييز سمات التربية الإيجابية ، التي تحدِّد مفهومه .

لقد امتلأت الكتب التعليمية والكتب الترويحية ، على حدٍّ سواء ، بأنواع من الفوضى والاضطراب ، وأصبح من الهام جداً القيام بتنقيتها وتوضيحها . ليست مستويات القراءة ، في عمر محدَّد ، هي ذاتها ، عند هؤلاء الأطفال ، أو عند غيرهم . هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، أن العناصر التوثيقية ، التي تقدَّم للطفل فتغني خياله ، قد تعرقل أحياناً ، أو تناقض المواد ، التي تفرض عليه في المدرسة . كما أنها قد

تعمل معها ، في بعض الأحيان ، عملاً مزدوجاً دائماً . وفضلاً عن ذلك ، نلاحظ أن الأولاد قد يبدون لنا ، وكأنهم لا يبذلون جهداً مرضياً إزاء تركيب هذين النوعين من المعلومات ، عندما تعالج في مرحلة زمنية واحدة ، في بلد معيَّن . إنهم يسيئون ، بعملهم هذا ، بلا ريب ، إلى العمل الإبداعي الأصيل . وبذلك يصبحون مثل كثير من الراشدين الذين يجدون صعوبة في العثور على أنفسهم في الأعمال الأُصيلة الإبداعية أحياناً .

لقد خفَّت حمّى الرواية التاريخية كثيراً . ولدينا عدد كبير من الأدلَّة والوثائق التي تبحث في ضعف الموضوعات التي تفرض على الأطفال ، في هذا المجال ، والتي كان يطلب إليهم فهمها وحفظها في عمر لا يقدر على الحفظ والفهم . إنها مفعمة بالادّعاء والتفاخر الفارغين ، والسخرية . يضاف إلى ذلك أن النبرة الصحفية تحلُّ فيها محلَّ الدرس ، فتبعد الصغير عن رؤية الحقيقة ، وتدخله في متاهات ، هو في غنى عنها ، وتطرح عليه شعارات عديدة تصرفه عن البحث عن الحقيقة .

تتصف الكتابات الجديدة ، التي تدور حول (الطبيعة) ، بالشذوذ والتكلُّف والبعد عن المألوف . وفي هذا الميدان أيضاً ، نجد عناوين الكتب الجديدة أضعف من عناوين الكتب التي وضعت في القرن التاسع عشر ، إذ تتكرَّر فيها دائماً ألفاظ مثل الأعاجيب والأسرار والخفايا ... (في فرنسا وفي معظم الدول الأوروبية على وجه الخصوص ...) .

نعم ... من واجبنا جذب القارئ الصغير إلينا . ومن واجبنا أيضاً أن نجعل الكتاب مقبولاً عنده ، بصورة خاصة . لكننا لا نطلب اليوم من الأولاد أبداً ، كما كنا نفعل في الماضي ، أن يبذلوا جهوداً جادة من أجل امتلاك الثقافة غير الناضجة ، ما دمنا نقدم إليهم ثقافة سطحية ، ساذجة ، متواضعة جداً ، ونضعها في متناول أيديهم .

وأخيراً ، إن الانتباه المصطنع ، الذي يوجّه إلى ضعاف العقول وبطيئي الفهم ، وإلى أولئك الذين يجدون صعوبة في النطق والقراءة ، وإلى أولئك (الصّعبين) الذين لا يتواءمون مع الآخرين ، بدفع المربين إلى وضع تعريف أكثر واقعية ـ إن لم يكن أكثر تشاؤماً ـ للقارئ المتوسط ...

فإذا كنا نقدّم لأطفال ، في العاشرة من العمر ، قصة (الكابتن فراكاس) ، أو حكايات أخرى تدور حول مواطن يحب التكتم ، أليس من المناسب أن نتساءل إن لم يكن من الملائم نقل الأدب الطفولي كله إلى (المفردات الأساسية) ؟ وبكلمة أخرى ، إننا نحكم على الأدب حكماً صارماً ، إلى الأبد ، ونصفه بالتسمّم والبلاهة ...!!

وفي الوقت ذاته ، نجد عدداً كبيراً من المربّين ، يزعمون أن من الصعب جداً علينا أن نتقدم ، إن لم نتجاوز أنفسنا ، ويرون أننا لم نفعل شيئاً ، سوى تقليد مفردات الطفل المبتدئ في القراءة ، وتقديم الكلمات والعبارات ، التي تدور حول الحاجات الراهنة اليومية إليه ، هذا إن لم نسجنه في عالم لفظي نظري فقير ، شبيه بعالم الكتب الخاصة بالسياح الأجانب ، الذين يريدون أن يتعلموا المحادثة في لغة غير لغتهم القومية .

إذا كانت اللغة هي الأمة ، وإن كانت اللغة هي الإنسان ، وإذا كان الإنسان هو الذي يصرفها ويخترعها ، وهو الذي يستعين بها للتعبير بها عما يجول في أعماقه ، وهو الذي يغنيها ، في الوقت ذاته ، بالتفوّه بكلمات تعبّر عن حوادث صامتة ، تجري في داخله ، فإن من المؤكد جداً أن الكلمات المجهولة ، الجهورية ، البرّاقة ، قادرة على إنارة المناطق العميقة المظلمة في داخل الكائن الإنساني وتنشيطها ، دفعة واحدة .

لقد بحث الكتّاب عن تحطيم الفئات بين الأولاد ، وخلقوا لذلك كتباً شاعرية ، مليئة بالصور الرائعة ، ومشبعة بالاستعارات والتشبيهات والتلاعب اللغوي ، وحاولوا استخدام لغة ، لا تكون سجينة العقل التقليدي . لكنهم لم ينجحوا في محاولاتهم . إذ إن

كل تجاربهم باءت بالإخفاق . وظلت اللغة تقوم بمهمة التثقيف المفروض من الراشدين . وبقيت بعيدة عن الجماهير التي كتب عليها أن تكون صغيرة ، وأن تكون أمانة في أيدي الراشدين . واستمرت هذه الجماهير الصغيرة ، تعتمد على الكتب ، التي تساعدها على تفكيك الكلمة والعبارة والأسلوب ... تلك الكتب التي يضعها (بابا) ...

تتركّز أكثر الجهود ، في السنوات الأخيرة ، على الأبحاث التجريبية ، التي تدور حول لغة الطفل الحقيقية ، وحول ظروف التواصل بين الراشدين ، وبين من هم دون سن السادسة . وقد ألحّت بعض الاقتراحات على قواعد اللغة ، بدعوى أن من المستحيل وجود تعبير صحيح ممكن ، من دون التحكّم في البنية الأولى للكلام ، في بداية الأمر . وعلى هذا الأساس طبعت مجموعات صور (ألبومات) مبسّطة جداً للصغار ، وهي تعرض حياتهم اليومية ، ومحيطهم المباشر ، وبذلك تقدّم لهم وسائل فهم اللغة ، والتحدث بها .

يحتلُّ الانفتاح ـ على العالم الخارجي ، والإبداع ـ المقام الأول من الاهتمامات الحالية عند المربين ، في كل مكان . ولكن ... كم من طريق يقال عنها : إنها مفتوحة وسالكة ، لكننا نكتشف أنها مسدودة ، ولا مخرج لها ، بكل أسف . نعتقد أن الكتب المثالية والنموذجية ، في هذا الميدان ، هي كتب النشاط ، التي تنتشر انتشاراً واسعاً ، منذ بعض الوقت ، إذ توضع فيها (تقنية) هامة جداً ، ومفصلة جداً ، في متناول القارئ ، عن طريق الجمع بين النص والصورة ، مع وصف واضح ودقيق للأجهزة ، وعرض بعض الشروح والتفسيرات عرضاً شيّقاً . ولكن ... هل تحلُّ المشكلة بتقديم (الوصفات) الجاهزة للأولاد ؟ أليس في هذا العمل تحديداً فعلياً للإبداع والخلق ؟ إن مثل هذا الاقتراح ، الذي يقدّم النماذج المثالية تقديماً دقيقاً للأولاد ، سوف يطلب منهم إعادة إنتاجها بدقة أيضاً . وهذا هو الهدف الوحيد من هذا العمل . إن النماذج المثالية المقترحة ، سواء كانت جميلة أو قبيحة ، عتيقة أو جديدة ، إنما تعبّر عن ذوق المؤلف ،

وطريقته في تبنّي علم الجمال ، في عصره ، أو عدم تبنّيه ؛ وكل هدفها ينحصر في بعث السرور في نفس الطفل . لكنها تفرض هذه الفكرة مسبقاً : كل العناصر التي اختيرت ، ما اختيرت إلا لتنفيذ هذا العمل وحده ، وليس عملاً آخر ...!!

هل ترضي هذه الصيغة الجديدة أكبر عدد من الناس ؟ الواقع أن الأطفال ، الذين يتصفون بسعة الخيال ، يتمتعون ، في الوقت ذاته ، بأفكار قليلة ومشوّشة ، تدفعهم إلى تلمُّس طريقهم تلمُّساً تعوزه الشجاعة ، وذلك بسبب جهلهم أو خجلهم . أما الراشدون ، الذين ينتظر منهم أن يحاولوا القيام بمغامرة نافعة لحثِّ الأطفال ، ودفعهم نحو العمل الجريء ، فنجدهم ، على العكس من ذلك ، يقومون بمغامرة خاسرة ، حيث يتنفسون الصعداء ، أمام حيرة الطفل ، بل إنهم ، في أغلب الأحيان ، يتمنّون لو ظل الطفل جامداً في مكانه . هذا ما تقدّمه كتب النشاط للأطفال . وهذا ما يدفع الآباء إلى الشعور بخيبة الأمل ، لأن (الوصفة) الجاهزة ، التي تقدمها تلك الكتب للأطفال ، ليست سهلة كما نتصوَّر ، فالصغار والكبار يشعرون إزاءها بشيء من القصور وإن كانوا أمام (نماذج) جميلة مصوَّرة بألوان بديعة .. ومجّدة في كمال متقن ..!!!

قد يقال لنا : « لكن السوق نشيطة والإنتاج منتعش » . ونردُّ على ذلك بقولنا : « لينتعش الإنتاج ... فهذا شأنه ... وسوف تصاب السوق بالتخمة قريباً إذا استمرَّ الإنتاج على هذه الوتيرة » . إننا واثقون ، من أن ثلاثة أرباع الكتب المتداولة لن تقدم للطفل شيئاً يذكر . فالطفل يحتاج إلى ما يثيره ، كما يحتاج إلى بعض النصائح الفنية العملية الأساسية ، بصورة خاصة . وعلى هذا النحو ، إذا قدَّمنا إليه وسائل الاكتشاف ، وتركناه يشقُّ دربه الخاص به ، فإنه سوف يعيش خبرته تماماً ، حتى لو كان الموضوع متعلقاً باختراع دمى العرائس ، والعبث بها ...

يقرُّ كلّ واحد منا أن للكتاب دوراً يلعبه . لكننا يجب ألا نضع الكتاب في كل مكان ، وفي كل مناسبة ، وألا نمنحه أكثر مما يستحق . وبكلمة أخرى ، يجب ألا نجعله

حاجزاً ، بين الأولاد وحياتهم الواقعية . ففي الماء يتعلم الإنسان السباحة ، وليس في الكتاب . وبممارسة طرق الحديد يتعلم الحدادة ، وفي العمل مع أولئك الذين يعرفون ، يكتسب المرء المهارة في العمل اليدوي .. وليس في الكتاب ..!!!

إلا أن ما تقدَّم لا يدفعنا إلى إغفال دور المطالعة . فالمطالعة يمكن أن تكون فعَّالة أيضاً ، بامتداداتها وتأويلاتها المتعدِّدة ، التي قد تصبح نقطة انطلاق لها أيضاً . لقد أثار موضوع المطالعة ، عند الأطفال في المدرسة ، كثيراً من الجدل . لكنه أنعش الآمال ، وسمح بالقيام بعدد من التجارب الهامة . إلا أننا صادفنا ، هنا أيضاً ، بعض (الكتب - العقبات) . إن كتاب الصور ، والحكاية ، والرواية ، تجازف هنا ، قبل أيِّ شيء آخر ، في أن تصبح ملحقة بميدان المدرسة ، وفي أن تصير مادة دراسية مثل بقية المواد ، مما ينزع عنها كل استقلال ، وكل حرية ، لأنها يجب أن تبقى متميِّزة عن المواد الدراسية .

وهذا يثير مسألة مضمون كتب الأطفال الأدبية ، الذي هو تعليمي فعلاً . أما المطالعة ، على اعتبارها نشاطاً : فهي فراغ ومتعة . وهذه الصفة خاصة بكتب أدب الأطفال ، وليس بكتب المدرسة . إن (شرح) كتاب الصور ، ضمن إطار الصف ، سوف يبعده عن الحياة ، لأنه سوف يفتِّته إلى مقاطع توثيقية جافة . وكأننا بذلك نشرِّح العصفور لكي ندرسه ، قبل أن نسمعه مغرِّداً .

إذا قلّص الكتاب إلى أداة تربوية فقط ، في مضمونه وفي استعماله الضيِّق ، فإنه يفقد الفرصة ، في أن يمثِّل ذلك العالم الواسع الحر ، الذي يجعل القارئ يشعر بالراحة التامة عند قراءته ، كما يشعر بها حين يكون في بيته . كما أنه سوف يفقد الهدف الذي كان قد حدَّده لنفسه ، أي الإسهام في تكوين الطفل وحثِّه على التلاؤم مع المواقف الجديدة . أما إذا وضع الطفل أمام المثل التعليمي ، والإعلام الثرثار ، والخبرة الجاهزة التي لا تدفع الطفل نحو المجازفة والمغامرة ، فإنه لن يقدم إلا استجابة سلبية . إن أدب الأطفال ، على عكس ذلك ، يقيم مع قارئه علاقة ودٍّ حيّة ، تفتح أمامه الطريق

واسعة على مصراعيها ، وتساعده على حلّ كثير من المسائل ، إذا تركت أمامه من غير حلّ ، وتعينه على حسن الاختيار ، إذا واجه بعض الأمور المعقّدة .

إن جانباً عظيماً من الحوار ، بين القارئ والكتاب ، سوف يظل حواراً صامتاً ، حتى لو وجد هذا القارئ في قاعة الصف أو في نادي المطالعة ، حيث تجري مناقشة بين المعلم وتلاميذه ، حول قصة أو حكاية ، بعد الفراغ من قراءتها ، وحيث يجد كل طفل فرصة ، للتعبير عن ذاته ، وتعميق ما أحسّ به ، فإن من الصعب الوقوف أحياناً ، على بعض الأسرار التي سوف يحتفظ بها لنفسه بعد القراءة . وسواء أسكت الطفل تأملاته ، أم لم يسكتها ، فإنه بحاجة إلى أن يجد حوله ما يؤكّد ، أو يفسّر ، ما اكتشفه عن طريق المطالعة ، كما هي الحال مع أيّ وسيلة من وسائل الإعلام والبثّ . حينئذ يصبح دور الوسط العائلي والعلائق الاجتماعية الأولى جوهرياً للغاية . لا يستطيع الأدب الطفولي القيام بكل شيء ، إن في الخير أو في الشر . ويظل الأمر الأساسي هو نظام المصادر ، التي يرجع إليها القارئ نفسه ، وبعد ذلك يأتي دور التفاعل الاجتماعي . وفائدة المكتسبات ، التي يحصل عليها القارئ سوف تظل متعلقة دائماً بمبادراته الشخصية . وكأنه هو النواة الأساسية التي تنضمّ إليها خبرات البيت والمجتمع ، فتجعل تلك المكتسبات حيّة فعّالة منظّمة . والتربية الحقيقية هي تلك التي تساعد الكائن الحيّ على بناء نفسه بناءً متيناً .

وإذا كان من الضروري جداً ، أن توفّر كل تربية للطفل ، في سنواته الأولى ، الألفة مع الكتاب ، ثم التمكن من القراءة ، على اعتبارها وسيلة ثقافة وإعلام ، فإننا ـ مقابل ذلك ـ نجد أنه لا شيء يسوّغ منح الأدب مركزاً متميّزاً ، في شواغل الطفل واهتماماته . ففي وسع الطفل ألاّ يحب القراءة . وفي وسعه أن يعبّر عن مكنونات نفسه تعبيراً واسع النطاق ، بطريق اللعب ، أو الفعاليات البدنية الأخرى ، وأسلوب تنظيم علاقاته مع الآخرين ، وطريقته في العمل وفي الفنون . وبذلك يكتشف أيضاً نمط إعداده وكيفية تغلغله في الحياة .

إنـه لمن البـدهي جـداً أن يقلـق المربـون والأهـل بخـاصـة ، من الأولاد الـذين لا يقرؤون ، ومن أولئـك الـذين يكتفـون بـالقراءة السطحيـة العـابرة . لكن الطفـل الصغير الذي ينزوي مع كتابه ، منعزلاً عن ذويه ، هو أيضـاً ، يعـاني من سوء المحبـة ، ويعيش عيشة سيئة . ولكي نقدّم له العون لا بدَّ من القيـام بعمل آخر تمـاماً غير اللجوء إلى الأدب ... وربما كانت التربية هنا خير معين لنا ...

إن التربية العملية ، في هذا الميدان ، أكثر نجعاً وأعظم فائدة من تربيـة الروايـات والحكايات . ولما كان الأهل يقعون في بلبلـة حول هـذا الموضوع ، فـإننـا نقول لهم بكل ثقة : « إن الصغار ، في كل الأعمار ، يتعلَّمون دائماً أكثر مما نعلِّمهم » .

بيد أن هذه التجربـة التي يحتفظون بـأسرارهـا لأنفسهم ، والتي يغمض الراشـدون عيونهم عنهـا ، تحـدث في الشـارع والمـدرسـة والبيت ، ومـع الأصـدقـاء ، ومن سلـوك الأشخاص الكبار ، ومن سمتهم ، وحتى من الأعمال والأحاديث ، التي يعتقد الكبـار أن الصغار لا يعيرونها لفتة . إن كل ما يحيط بـالطفل ، يربِّي الطفل ويعلِّمـه . يكون كل شيء ، في البداية ، مشوَّشاً مقطَّعاً ، غير مشروح ، غير مفهوم ، ومزعجاً للصغار . لكن هذه الأمور ، غير المحدَّدة ، ما تلبث أن تنضج وتنتظم عند سن المراهقـة . حينئـذ يبـدأ الطفل في إدراك العالم ، الذي صوَّره له محيط الراشدين ونظَّمه من غير ظلال .

ليس ثمة شيء غريب على الطفل ، وعلى الراشـد ، إذا كان يتعلق بـالإنسـان . بل إن كل مـا هو إنسـاني يظـل رائـداً طبيعيـاً للطفـل ، في عـالم يعيش فيـه مـع الصغـار والراشدين سوية ، وإن كان كل واحد منهم يتصوَّره بشكل مغاير لما يتصوَّره به غيره . لقد ظهر أدب جديد كامل ، أخذ على عاتقه التنبّؤ بأسئلـة الصغـار ، وتقـديم الأجوبـة عنها ، وطرح عـدداً من المعضلات التي تشجِّع الصغـار على البحث ، وعلى بلوغ مرحلـة الوعي . هـذا الأدب الجـديـد منـدفع جـداً نحو خلق القلق عنـد الأولاد بـدلاً من بعث الطمأنينـة في نفوسهم ، كما كان يفعل الأدب في المـاضي . وعلى هـذا النحو ، شرع الأدب

الجديد في تناول موضوعات مثيرة (محرقة) مع شيء قليل ، أو كثير ، من المرح والخفّة والسعادة ...

لقد وجّه لوم كبير لكتاب الأولاد ، بدعوى أنه متأخر عن تطور الأخلاق والعادات . مع ذلك ، يعترف عدد كبير من الناس ، أن هذا الكتاب كان (بطولياً) حين احتاج الوطن إلى الجنود ، كما كان مسالماً حين استدعى الأمر نسيان الحروب وإعادة العلاقات الاقتصادية والتجارية إلى نصابها .. إن كتاب الأولاد يعرف كيف يحترم النظام القائم ، ويعرف كيف يبدي استنكاره حين تغامر السلطة بخرق القوانين . وإنه لصحيح أيضاً أن أبطال الروايات ، منذ زمن طويل ، كانوا يعيشون منعّمين قرب مدافئهم ، في بيوتهم الريفية ، بينما كان القرّاء الصغار يلعبون بصواريخ موجَّهة نحو بنايات من الإسمنت المسلّح ، أو بدبابات من الحديد المصفّح . يمضي كل شيء سريعاً في هذه الأيام ، إلى درجة تجعل من الصعب جداً ، عودة جنان المدن الحديثة الخضراء ، إلى النموذج الريفي القديم ، ومن المستحيل العودة إلى الحرف اليدوية التقليدية .

يلاحظ شيء من الاستياء والتذمُّر في أدب الأطفال . وعلّة ذلك أن هذا الأدب ، يسعى في أن يصبح ملتزماً وموضوعياً في آن واحد . هناك أطفال من كل لون يعبثون بكتبنا بلهفة ومودّة ، لكننا ما نزال ، حتى الآن ، بعيدين عن إدراك استجاباتهم الفطرية ، إزاء النزعة العنصرية مثلاً . كذلك ما تزال صورة المرأة ، في أدب الأطفال ، تتذبذب بين المكتب والمطبخ . ومؤلّفو الأطفال لا يعرفون أبداً لمن يعهدون بالطناجر وبالرّضاعة كيلا يصدموا أحداً . والنقد الأساسي يوجّه إلى هذا الأدب ، خصوصاً فيما يتعلق بنظرته إلى المستقبل . فهو - إلى الآن - ماضٍ في تغيير زيّه على مستوى الكلمات والصور فقط .

من المؤكد أيضاً أنه ما تزال توجد موضوعات محرّمة . بيد أن هذه الموضوعات المحرّمة أخذت تقلّ شيئاً فشيئاً . إلا أن المؤلفين لا يتجنّبونها ، بل يعدّلونها . وقد

ظهرت ، في الآونة الأخيرة ، روايات مبسَّطة للأطفال ، تبحث في الطلاق ، وجناح الأحداث ، والمخدرات ، والجنسية المبكرة . إلا أن هذه الروايات لا تتعرض لشخصيات حاضرة فعلاً ، مع كل تناقضاتها وأبعادها ، إلا قليلاً . إنها تكتفي بتقديم شخصيات قليلة الخطر ، محرومة من الشحنة العاطفية . ولقد أدّى هذا الوضع إلى ظهور عملية تجزيئية ، حاولت التربية الجنسية القيام بها ، زاعمة أنها تفعل ذلك سعياً وراء أهداف نبيلة . لذا فهي تعرض ، في الكتب المتخصصة ، حقائق لا يعرف أحد ماذا يصنع بها . وبذلك تصبح عملية قاصرة ، مادام العبث الصبياني غير خاضع للرقابة ، وما دامت مغامرات الحب ، في سن المراهقة ، قد دخلت حديثاً في أذهان الفتيان ، بتشجيع من التطور السريع لوسائل الإعلام العديدة .

هناك ظواهر أخرى نراها في أدب الأطفال العالمي الحديث : أيتام أقلّ مما كان يوجد في روايات الماضي ، ولعلهم أيتام مع وجود آبائهم ، إذ إنهم أبناء لآباء وأمهات منفصلين عن بعضهم ... مع تقهقر الحساسية المعبِّرة الصريحة ، والسخرية الفجّة التي حلَّت محلَّ الحنان والعطف . وبصورة أعمّ ، أصبح الكتّاب ، في الوقت الحاضر ، يتحاشون (العواطف الجميلة) . وقد استبدلوا الشخصية (النموذجية) بـ (البطل المتمرِّد المخالف) ، خصوصاً في روايات المراهقين ، حيث يبدو أن الأكثر واقعية ، أو الأكثر نفعاً وربحاً ، هو إبراز الفتيان الضائعين على خشبة المسرح . ولا يستطيع المرء ، إزاء هذا الوضع ، إلا أن يعبِّر عن الشفقة والعطف على هذه الرسوم ذات الأفق المحدود ، التي تبدو أحياناً ، وكأنها انعكاس لشعور شقي تعيس ، هو شعور الراشدين أنفسهم ، الراشدين الذين لا يجدون أنفسهم على وفاق مع الجيل الجديد ، إلا أنهم لا يملكون ما يقدّمونه إليه .

هذه الحدود التي عرفناها في السطور السابقة ، ليست من وضعنا نحن . إن أدب الأطفال ، من حيث المبدأ ، يتوجّه إلى الأطفال جميعاً . ومعنى هذا أنه يجب أن يشتمل على تنوُّع بالغ في الأذواق والذكاء والحساسية والرغائب والمواهب ، اللهم إلا إذا قرَّرنا

رغم كل حقائق الواقع والخبرة والعلم ـ أن جمهور الصغار ليس له إلا وجه واحد ، هو الوجه الذي نودُّ ـ نحن الراشدين ـ منحه إياه .

هذا هو واقع الحال تقريباً ، مع الأسف الشديد ، إذ إننا نلاحظ هذا الهدف بارزاً في كل دراسة تظهر في السوق ، قبل توزيع مجموعة من الصور أو عرض كتب مصوَّرة ، إذ إن كل دراسة تسعى نحو ضمان مردودية الإنتاج ، فترى أنه من الملائم أن تقدِّم تعريفاً شاملاً واسعاً لوجه المستهلك . وبالاختصار ، إن النزعة التجارية السائدة تتحدث عن المتوسط ، وتحاول إرضاء هذا المتوسط ، سواء كان الأمر متعلقاً بالقراءة أو بالشاشة الصغيرة ، أو بدارات التوزيع السينمائي . ويُؤكد وجهة النظر هذه نجاح المسلسلات المصوَّرة . لكننا نلحُّ على القول : إن كل نتيجة مرتبطة بقابلية الأطفال الحقيقية . وهذه النتيجة سوف تكون خاطئة إذا لم تأخذ بعين الاعتبار الظروف التي يخضع لها الأطفال في حياتهم . ومن الخطر الجسيم النظر إلى هذه الظروف وكأنها غير قابلة للتعديل . قد يتمكن الطفل من أن يصبح أكثر القرّاء إلحاحاً . لكنه يجهل ما يريد ، في البداية . وعلينا نحن أن نعلِّمه ما يريد . وذلك بزيادة نقاط الموازنة بين الأشياء والأحداث . وإن لم نفعل ذلك ، فإنه سوف يكتفي بالقليل مما نقدِّمه إليه . ولهذا نقول : إن معيار نجاح كتاب من كتب الأولاد يظل قاصراً . والحكم على قيمة عمل أدبي أمر صعب للغاية .

إنه لمن المؤسف فعلاً ، أن نرى المربين ما زالوا يتحدثون عن القارئ (المتوسط) ؛ ويتكلمون عن أهداف القارئ (المتوسط) . ولقد وجدنا أن من الضروري جداً إخضاع كتب الأطفال إلى عدة مستويات ، قد تبدو لنا متناقضة أحياناً . لذا كان من الأفضل (تفصيل الكتاب على قدِّهم) . وهذا ما بدأ يبرز في معظم الأحوال . وأسهل طريقة لذلك هي العمل ضمن فريق . قد تكون النية الحسنة موجودة ، إلا أنها لا تصنع المؤلفات الرائعة ، وكذلك العفوية لا تكفي أيضاً ...

من الناحية المنطقية ... يعني أدب الأطفال ذلك الأدب الذي يكتبه الأطفال أنفسهم ، وهو موجود ومنتشر في هذه الأيام . حتى لو كان الراشدون ، هم الذين يقرّرونه ، ويختارونه ، وينظّمونه . ليس من الضروري أن يكتشف الأطفال أنفسهم فيه . إلا أنهم يفضلونه على الآخر . وإن كانوا لا يصرحون بذلك . وهذا دليل على وجود انفتاح أكبر ، لم يعرف في الأزمنة الغابرة . إذن ... يبقى أن نعرف أن للكتاب وظيفة (التجاوز) كما نعتقد ، لذا كان عليه أن يجد نفحته وغناه ، فيما وراء التجربة الصبيانية . ولهذا نرى أن كل فن الكاتب ، يكمن في إقامة الحوار ، المألوف جداً مع الطفل ، ما وسعه ذلك ، شريطة ألا يضحّي بوضعه ، وبالفروق الراشدة .

الواقع أن أكثر الحدود إفقاراً لأدب الأطفال ، ربما كان في أنه لا يجتذب العبقرية والموهبة ، بمعنى أن ذاك الذي يعتقد أنه قادر على ادّعائهما لا يهتمّ به . ترى ....! ألا يستطيع المؤلفون ، الذين يحدبون على الطفل ، سواء كانوا آباء أو معلمين ، أو أقارب أو أصدقاء ، أن يكتشفوا من الكتاب نفسه أهمية الكلام الشفهي ، الذي ألفه الطفل وتذوّقه ، وذلك حين يريدون سرد قصة على هذا الطفل ؟ لقد عرفنا أن ثمة تفاعلاً قائماً بين المستمع وذاك الذي يتحدث . واستجابات الطفل الماثل فعلاً هي إعلان مباشر عن العبقرية ، واعتراف بفضل الراوية ، وبصدقه . والكاتب الذي يجلس وحيداً أمام الورقة البيضاء ، سوف يسير في درب آخر مختلف . دربه واضح ، كما كانت كلماته واضحة ، وسلسلة أفكاره حسنة الإعداد والترتيب . ولكن ... هل يعرف دائماً ماذا ينسج بكلماته ؟ وهل يدرك ما يكشف عما في داخله ؟ إنه يقدّم أفكاراً صبيانية مكبوتة ، ورغائب راشدة منحرفة عن غرضها ، وضروباً من الرقابة الذاتية ، التي أصبحت آلية عنده ، ورواسب من كل لون ، دون أن نعدّد الأوهام المسبقة ، والأفكار الجاهزة . إن كتاب الصور ، أو القصة الموجّهة للأولاد يساويان ما يساويه مؤلفهما ، كما هي الحال ، في أيّ عمل أدبي أو فنّي آخر .

وهنا أيضاً لا يكفي امتلاك الصفات الأدبية ، والشهرة ، لضمان النجاح .

فالصفات الأدبية والشهرة ، قد تسحر الآباء المثقفين . لكن ... هل من الضروري أن ينسجم الأدبي مع الصبياني ؟ ربما كان هذا هو السبب في إخفاق اقتباس الروائع الأدبية ، التي كتبها كبار الكتّاب للقرّاء الصغار . إن هذه الروائع الأدبية قد تفقد سحرها . وقد تظل (عاقلة) تقليدية ، مقتطعة ، مختزلة ، مملّة ..!

إذن ، نحن لا نستطيع أن نتوجّه إلى الأطفال ، كيفما نريد . كما أننا لا نستطيع أن نقول لهم كل شيء . يخيل إلينا أن (مارك تواين) و (مارسيل آيمه) و (كيبلينغ) لم يكونوا يرغمون أنفسهم لكي يلاقوا قرّاء من جماهير الأطفال . ونحن نعرف الآن ، أنه يوجد ، في جميع أنحاء العالم ، كثير من المؤلفين ، فيدفعوا هؤلاء المؤلفين نحو الاعتراف بأهمية النشر العالمي ، الذي يجعلهم في متناول الناس جميعاً ، في كل أصقاع الدنيا ، لكي يشعر الكبار والصغار ، في أيِّ بقعة من بقاع الأرض ، بالسعادة أيضاً . إن كتاباً واحداً ساحراً للأطفال ، لن يكون غريباً على أيِّ ثقافة ، ولسوف ينتشر انتشاراً سريعاً كما تنتشر النار في الهشيم ، دون أن تقف في طريقه الحدود والحواجز ...

الكنز الثقافي هو ما نصنعه نحن . نستطيع أن نملأ به واجبات المكتبات ، وأن نصنع منه حبوباً ومعجّنات مشوّشة عسيرة الهضم ، يستخدمها طلاب المدارس الثانوية ، أو أن نستخلص منه نصوصاً تستعين بها الوسائل السمعية البصرية . هذا الكنز الثقافي الذي نصنعه ، يتغذّى بكل جديد . أما الماضي ... فليس علينا أن نحتفظ به كله جميعاً . ربما كان (والتر سكوت) قد خدم زمانه . لندع بعض القدماء التقليديين يموتون ميتتهم الجميلة الهانئة . ولنترك الصدى الأخير ينطفئ في (فيلم) أو شريط مصوّر مسلسل . لكن ... علينا ألا نقتل ما هو حيّ ...!!!

تقول الناقدة الفرنسية (سيمون لامبلان) : « إن العمل مع (موبي ديك) أو (شارتروز دي بارم) من أجل وضعها بلغة فرنسية سهلة ، وفي متناول قرّاء مجلة (تان ـ تان) هو قلة شرف وحماقة . مع ذلك ، إنه لمن المذهل فعلاً أن يلقى هذا

النوع من الممارسة تساهلاً في أوساط لا تجهل شيئاً من أعمال النقد الحديث . صحيح أن للاقتباس درجاته . إنه يكتفي أحياناً ، بأن يقتطع من هنا ومن هناك ، جملة جارحة ، أو غامضة ، من أجل خلق عمل لحامل المقص ، أو يستخدم لفظة مسلحة أو يضع المحسوس في موضع حادثة ، أو بساطة في مكان إطناب ... » .

من المؤكد أن الدوافع الاقتصادية ليست مسؤولة عن كل شيء ، لكننا كثيراً ما نقطّع نصّاً لكي نجعله مناسباً لعدد معيَّن من الصفحات ، ونرتِّب أمور الترجمة لنتفادى أجورها المرتفعة . لكننا نقتبس كثيراً كيلا يبتعد هنا القراء الصغار ، أو كي نجعلهم يربحون خمس سنوات ، في دراساتهم الأدبية . والمسيرة ذاتها تحدث أيضاً في كتب التوثيق ، أو في معظمها على الأقل ، فكل شيء يجري ، وكأننا على عجلة من أمرنا ، في تصوير المجموعات الخاصة بالمنجزات الثقافية ، ووضع أكبر عدد ممكن من المفاهيم فيها ، حتى لو كان هذا التمثيل كله ، ينحلُّ إلى عنوان مبهم ، وقصة غامضة . يتمُّ الأمر وكأنه ثقافة لعب (متلفزة) . إن الكلمات هي لحم الكتاب . ونحن قادرون على العيش من دون كتب . لكن الكتب ليست شيئاً يذكر من غير الكلمات التي تقطن فيها .

إن من واجبنا ، قبل كل شيء ، ألا نجعل الحكايات التقليدية عقيمة . وما يقوله (برونو بيتيليم) ، في كتابه (التحليل النفسي لحكايات الجن) ينطبق ، في جوهره ، على المؤلف الذي يعرف كيف يمسُّ الأولاد ، ويضحكهم ويثيرهم ، لكي يجعل كل واحد منهم يقرأ ويفهم ، ويقتنع بكل ما قاله في كتابه ، وليكون شاهداً على البساطة ومثلاً يحتذى .

لقد اعترضتنا ـ في أثناء اهتمامنا بحدود أدب الأطفال ـ حدود عديدة ، منها : حدود الإنتاج المتداول ، وحدود التربية ، وحدود المؤلفين المتخصصين ، وحدود الكتاب ذاته ، والأدب . كان في وسعنا أن نفصّل ـ بكل بساطة ـ سلبيات الراشدين إزاء حاجات الطفولة وآفاقها . لكن ذلك كان سيهدر وقتنا . فلن نتعجل البناء .. ففي العجلة الندامة .

كل ما نودُّ أن نقوله ، في الوقت الحاضر ، بدلاً من سجن الأطفال في أجسادهم الصغيرة وخصائصهم النفسية ، علينا أن نضع تحت تصرفهم شبكة من الكتب الناجحة . إن إرهاقهم بالكتب المبسطة ، بدعوى عدم التأثير في اختيارهم ، يبدو في نظرنا نفاقاً وابتعاداً عن الواقع . ربما كانت محاولة الأدب ، تعريف الكتاب الخاص بالأطفال ، أمراً غير جوهري . فالأدب يقدم لنا مفهوماً غامضاً عنه أو عن مضمونه . ولا يأخذ بعين الاعتبار الصورة التي قد تكون مساعدة للنص والتي لا يمكن فصلها عنه . إن التنوع الهائل للكتب المصورة المنشورة حالياً ، والاستقبال الذي تلقاه عند الكبار أحياناً ، وعند الصغار دائماً ، من المؤكد لنا ، بأننا نستطيع المضيّ قدماً نحو الانفتاح ، وليس نحو التحديد ، إذا أخذنا بعين الاهتمام ، خبرة الطفل ، ومستوى فهمه . يضاف إلى ذلك أن الإبداع الحقيقي أمر عام ، ومفرح للناس جميعاً . إن حقل الاكتشاف واسع جداً : فهناك الرسم والكتابة ، والتلاعب بالألفاظ ، وتمرين الملاحظة ، والذكاء ، واستكشاف الواقع ، والروح المرحة ...

والشعر يفتح آفاقاً أخرى أيضاً . إنه واحد من الأجناس الأدبية التي تستطيع كل الأعمار تقبُّلها ، مهما كانت درجة خبرتها ، شريطة ألا نسمح بغزو التكلُّف والتصنُّع للشعر ، وهذا ما نراه منذ بعض الوقت ، في مجموعات الصغار جداً ، مع الأسف الشديد . لقد دلَّت التجربة أن الطفل ، ينجذب نحو الخلق الشعري ، الموجَّه للكبار أصلاً ، إذا كان سلساً . ولوحظ الأمر ذاته في كل ما يتبنَّاه في الأدب الشامل : كالحكايات ، والروايات الحالية ، أو القديمة . كأن الطفل ، في صفته هذه ، يسخر من الزمن ومن الحدود ، التي تفرض على فئات الأعمار .

يدفعنا ذلك كله إلى القول : إن ميدان أدب الأطفال ، يجب أن يكون مفتوحاً بلا حدود . ويظلّ أمامنا الشيء الكثير ، يجب أن نكتشفه في كتب العالم أجمع . ما علينا إلا شقّ الدروب ، ومضاعفة الممرات ، والقنوات والجسور التي تربط بين الشعوب . كما أن علينا أن نفرح بكل مبادرة ، تمزج الأجناس والأمم والأعمار ببعضها ،

مزجاً أخوياً . وهذه أفضل طريقة لبعث الحياة في (الكلاسيكيات) التي حبسناها في الواجبات وأفقدناها حيويتها ونشاطها ، حين اعتقدنا أننا قادرون على اقتباسها للأولاد .

وأخيراً ... يجب أن نتصف بالحذر واليقظة ، أمام بعض التشوّشات التي نراها في التربية ، وفي النزعة التجارية ، التي تطيل أمد الحدود وترسّخها ، وعلينا أن نقف في وجه النزعة ، التي تحاول إعطاء الأنماط القديمة أشكالاً جديدة في الظاهر . ليست الروايات التي تبحث في المعضلات إلا وجهاً واحداً من وجوه عديدة . وهناك وجوه أخرى . وفوق سن ١٢ ـ ١٣ يحتاج الفتيان إلى مزيد من المقوِّيات ، وليس إلى اللجام الذي يشدّهم إلى الوراء . وذلك من أجل تهيئتهم للقفزة المقبلة ، التي سيترتّب عليهم القيام بها . إن الحفاظ على القارئ الصغير ، لأكبر وقت ممكن ، هو إغراء من الناشر المتخصص بالأطفال . وهو أمر يهرب منه المربي أيضاً .

إن الكتب التي تفصّل على القدّ (سوف تكون ، في نهاية المطاف ، ضيقة جداً على المراهق الذي يبحث عن حريته) . وعلينا أن نكتشف الكتب التي تعلّم ، والتي تفتح الدرب أمام ثقافة الرجال ... فيما وراء ميدان الأطفال .

الفصل الخامس

أدب الأطفال
دعوة إلى الأصالة والإبداع

باسمة العسلي

يـــا من أراه خـــلال طيف ... الغيب يرفـــل في الشبـــاب
وأراه بـــالآمـــال خُلُقـــاً ... نيِّراً غضَّ الإهـــــــاب
وأراه خـــــــاض إلى العلى ... والمجـــد أغـــوار العبـــاب
وأراه بـالإيمـان والعرفـان ... مرفـــــوع الجنــــــاب
يتقـــــــدم الصف الأبيّ ... ولا يحيـــــد ولا يهـــــاب[1]

أطفالنا بهجة القلوب ، زينة الحياة وأفراحها الماتعة ، وهم بعد ذلك جيل الغد والأمل المنشود . وأمة لا تحرص على رعاية أطفالها وتحقيق كافة احتياجاتهم غير جديرة بالحياة . فكيف إذا كانت هذه الأمة تعيش أقسى التحديات لوجودها ؟

قد تثق أمة بقدراتها المادية أو بمُدَّخراتها وثرواتها الكامنة ، أما أمتنا فإنها وإن أكرمها الله فجعلها من أغنى الأمم بثرواتها ومقدَّراتها إلا أنها ومن منطلق عقيدتها الإسلامية تدرك تماماً أن ثروتها الحقيقية هي الإنسان ، وأنها مسؤولة أمام الله عن كرامة وعزّة كل فرد فيها . هذه الكرامة والحرية لا تتحقق ما لم يتم إشباع حاجاته والحفاظ على دينه ونفسه وعقله ونسبه وماله[2] .

وكما تتساوق الحقوق والواجبات يتحتم علينا أداء الحقوق لأطفالنا كاملةً دون نقص إن نشدنا غداً أفضل من حاضرنا .

---

(١) رياض الرياحين ، عمر بهاء الدين الأميري . (نقلاً عن مجلة الوعي الإسلامي ، العدد ٣٢٢ ، جمادى الآخرة ١٤١٣ ، ص ١١٦) .

(٢) الضرورات الخمس تمثل مقاصد الشريعة . راجع الموافقات ، أبو إسحاق الشاطبي ، ٣٨/١ و٤٦/٣-٤٧ ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

وأمتنا حين تستشرف الزمن تشعر أن لها مستقبلاً تبنيه ورسالةً تؤدّيها للإنسانية جمعاء ، هي رسالة القيم والفضائل الإسلامية التي انحسرت في عالم الماديات الممسوخ . ويقيننا أن الله يهيئ هذه الأمة لهذا الدور فعلى حين تأفل شمس الغرب وتنحدر إلى مستوى الأمة العاقر ، وتتدنّى نسبة أطفالها وفتيانها ضمن تعداد السكان نجد « الأطفال حتى سن السادسة يشكّلون في متوسط الإحصاءات الرسمية للدول العربية ٤٥ في المئة من السكان »[٣] .

من هذه المنطلقات بدأت كثير من الحكومات والمؤسسات تلحظ باهتمام أدب الأطفال ؛ إذ يمثل الأداة الفعالة لنقل قيم الأمة وذاتيتها وثقافتها وحضارتها . إلى جانب كونه أداة مثلى لتشكيل وجدان الطفل وعقله وطبع سلوكه وتنمية ملكة التخيل عنده وإيجاد التوازن النفسي وإشباع فضوله المعرفي وإثراء لغته وتنمية إحساسه بالجمال .

فعلى سبيل الذكر لا الحصر نجد جمهورية مصر العربية تقيم معرضاً سنوياً لكتب الأطفال وترعى حلقات دراسية إقليمية ؛ [تناولت الحلقة الدراسية الإقليمية لعام ١٩٨٣ (كتب الأطفال في الدول العربية والنامية) . وتمحورت حلقتان دراسيتان إقليميتان لعام ١٩٨٤ حول : (كتب الأطفال ومجلاتهم في الدول المتقدمة) و (الثقافة العلمية في كتب الأطفال) ، أما الحلقة الدراسية لعام ١٩٨٦ فقد عنونت تحت اسم (الندوة الدولية لكتاب الطفل : الماضي ـ الحاضر ـ المستقبل)[٤] .

وفي البحرين من عام ١٩٨٥ تمّت رعاية ندوة كتب الأطفال في دول الخليج العربية[٥] .

---

(٣) جريدة الحياة . العدد ١٠٩٦٦ . الجمعة ١٩ شباط ١٩٩٣ . الصفحة الأخيرة .

(٤) راجع منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة . ج.م.ع. السنوات ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ ـ ١٩٨٧ .

(٥) وقائع ندوة كتب الأطفال في دول الخليج العربية : البحرين ٢٠ ـ ٢٣ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ/الموافق ٢ ـ ٥ ديسمبر ١٩٨٥ . مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ اليونسكو ـ الرياض ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

وفي دمشق وفي المؤتمر العام الثاني عشر للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ومهرجان الشعر الرابع عشر تم تقديم بحث عن « تطور فن الكتابة للأطفال في البلاد العربية ومشكلاته » ، للأستاذ أحمد أبو سعد[٦] .

كذلك أقيم في الرياض - المملكة العربية السعودية - المهرجان الثامن للتراث والثقافة (الجنادرية) في ١٩٩٣/٤/٧ ، وكان موضوع أدب الطفل محوراً رئيسياً للندوة المتخصصة حيث أوراق عمل تناولت مواضيع شتى منها : السيرة الشعبية في أدب الأطفال ، نظرة مستقبلية إلى أدب الأطفال ، القصة والمسرح في أدب الأطفال ، الطفل ووسائل الإعلام ، الشعر والأغنية في أدب الأطفال ، المنعطفات الرئيسة في تطور أدب الطفل .

إن هذه الندوات والمؤتمرات على أهميتها تأتي استجابة ملحّة لحاجة ، ولكنها ما زالت الخطوات الأولى في رحلة المئة ميل . ولنا عليها مآخذ :

أولها : نطالب بنشر كافة البحوث المطروحة في المؤتمرات ضمن كتب وتعميمها على الجمهور ليتمكن الكتّاب ورسّاموا أدب الأطفال من الاطّلاع عليها ، فلا تبقى تلك البحوث رهينة المحبسين : محبس قاعات المؤتمرات ومحبس الأدباء المحاضرين . ولتأمين أوسع انتشار لها ، نتمنى عرضها ضمن معارض الكتب في كافة الدول العربية .

لقد انفتحت دول أوربا شرقيها وغربيها ثقافياً . وآن الأوان لشعوب هذه الأمة أن تتعرف على مثل هذه الإصدارات . فإلى متى يعيش رواد كل بلد عربي ضمن إطار التجربة الإقليمية الضيّقة ولا يستفيد من تجارب الأخوة في سائر البلاد العربية والإسلامية ؟ وأيها أحرى بالصواب أن يبدأ الجميع من نقطة الصفر ، أم أن تتعاضد التجارب لتكون أكثر غنىً وتكون القفزات أوسع على مدارج الترقّي والخير ؟

---

(٦) إصدار اتحاد الكتاب العرب - دمشق - مطبعة الكاتب العربي - ١٩٧٩ م - ١٤٠٠ هـ .

ثانيها : أن تثمر هذه المؤتمرات والندوات ثماراً عملية على صعيد الواقع . لقد تعبت هذه الشعوب من الكلام ، وتكراره ، وتفسيره ، ثم اختزاله . ومؤسسة عملية واحدة مخلصة وصادقة ترجح آلاف المؤتمرات والندوات . فما المشاريع العملية التي نطالب بها ؟

يتبادر إلى الذهن أنواع من المشاريع ، كلها بحاجة إلى دعم حكومي أو مؤسساتي ضخم .

الأول : إصدار سلاسل لكتب الأطفال ، وفق مستويات العمر ، من مثل مادعت إليه دار الفكر بدمشق . وإصدار **كتاب شهري للطفل** وقد دعت إليه الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية(٧) .

الثاني : مشروع النشر المشترك : بالاتفاق بين عدة مؤسسات ودور نشر ضمن الدولة ، أو بين دور نشر عربية . يكون من أهم وظائفها إصدار كتاب الطفل على النحو المرجو ، جمالاً وإتقاناً ، وبسعر يناسب طاقة القوة الشرائية للأطفال وذويهم . فمن المعلوم أنه لكي تصدر كتب الأطفال بثمن معقول لابد من طبع كميات كبيرة وتأمين تسويق واسع لها .

الثالث : إصدار دليل عربي للعاملين في مجال أدب الأطفال وذلك لتسجيل الاتجاهات الرئيسة في كتب الأطفال في بلادنا والدول العربية على مدى يقترب من خمسة وسبعين عاماً ، ولتسجيل أسماء المتخصصين في هذا المجال من مؤلفين وكتّاب ورسامين ومصممين وناشرين ، بهدف التعريف بهم محلياً وعربياً وعالمياً من أجل مزيد من التعاون(٨) .

الرابع : إصدار مجلة شهرية لكتّاب ورسامي أدب الأطفال بهدف :

---

(٧) جريدة الحياة ، العدد ١٠٧٠٣ ، الجمعة ٢٩ أيار ١٩٩٢ م - ٢٨ ذو القعدة ١٤١٢ هـ ، ص ٥ .

(٨) كتب الأطفال في الدول العربية والنامية ، عبد التواب يوسف ، ٣٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٤ م .

- توضيح خصائص كل مرحلة عمرية للطفل عقلياً ونفسياً ولغوياً .
- إجراء المزيد من الدراسات للتعرف على الميول القرائية لدى الأطفال .
- مواكبة الإصدارات المحلية والعربية والعالمية في أدب الأطفال .
- طرح دراسات نقدية حول ما كتب في أدب الطفل عربياً وعالمياً ، وما كتب عن أدب الطفل عربياً وعالمياً . فمن خلال ذلك يستشف الأديب الأسس والمعايير التي يجب أن يلتزمها في الكتابة للصغار ، في أي مرحلة عمرية كانوا . وهذا الاطلاع يزيده فكراً وثقافة وعلماً ، مما ينعكس على جودة العمل فيقترب من تحقيق الغرض . كما يصوِّب هذا الاطلاع الحركة النقدية لأدب الطفل ، فتجلِّي الطريق أمام الأدباء ، وترفع من أمامهم العثرات .

الخامس : إنشاء مركز توثيق وبحوث أدب الطفل - كما حدث في جمهورية مصر العربية - وهو يهدف إلى جمع وتوثيق كل المواد المتعلقة بأدب الطفل في العالم العربي ، كما أنه يقوم بتسهيل عمل الباحثين وتطوير الأبحاث بحيث يشمل مركزاً للمعلومات ومكتبة نموذجية للأطفال تمارس أنشطة عدّة من مثل :

تشجيع الرسوم والنشاطات الفنية ورسم القصص التي قرأها الطفل ، كتابة الأطفال مقالات عن أهم الأحداث المحلية والعالمية ، ومناقشتها ضمن ندوة للأطفال ، استخدام الحاسوب وبرمجته ليشمل معلومات التاريخ والجغرافيا وجسم الإنسان بحيث يستعملها الأطفال ضمن مسابقات ، تحرير الأطفال مجلة خاصة بهم تؤخذ مادتها الصحفية من الكتب والموسوعات ، تحويل الأطفال الكتب العلمية إلى خطة بحث كدراسة الكهرباء ، إعداد المقالات في المسابقات الدينية وفق المناسبات والاحتفالات الدينية المختلفة ، اختيار الأطفال إحدى المسرحيات شهرياً لأشهر شعراء وكتّاب الأطفال وقيامهم بإخراجها وتمثيلها ، إيجاد حلقات نشاط خاصة تروي فيها مربيات ومختصات لأطفال ما قبل المدرسة قصصاً مناسبة ثم يعيد الأطفال الصغار تمثيلها[9] .

(٩) مجلة أكتوبر ، العدد ٧٧٧ . الأحد ١٥ أيلول ١٩٩١ م . ص ٤٧ - ٤٩ بتصرف .

السادس : الاتجاه العملي لتنمية القراءة عند الأطفال وفق مستويات ثلاثة :

أ ـ على صعيد الأسرة : من خلال الاهتمام بدور الأسرة في غرس الثقافة وحب القراءة بوجه خاص ، وحث الأسرة على اقتناء مكتبات في البيوت لتشجيع الأطفال على حفظ الكتب ومطالعتها .

ب ـ على صعيد الإعلام : من خلال الانفتاح الثقافي أمام كافة إصدارات دور النشر في الدول العربية لكتب الأطفال . وإغراق السوق بها مع ما يحمل ذلك من رفع مستوى التنافس بين دور النشر لتقديم الأصوب والأسلم .

ـ ومن خلال تقديم برامج إذاعية وتلفزيونية (مرئية) خاصة لعرض كتب الأطفال الصادرة عن دور النشر في الدولة والعالم العربي . كأن تعالج حلقات مسلسلة في الرائي . مدة كل واحدة منها نصف ساعة ـ قضايا القراءة ، وأنسب الكتب التي يجدر بالأطفال قراءتها ، والتي لا بد من مطالعتها خلال مراحل العمر المختلفة ... كما تعرض نماذج تمثيلية من هذه الكتب ترغيباً للأطفال واستثارة لاهتماماتهم .

ومثل هذه البرامج مكلفة ، إلا أنها قوية التأثير ، ومن الممكن إنتاجها على مستوى بالغ الجودة لكي تقدم من خلال كل أجهزة الرائي في الوطن العربي بغية تعميم الفائدة[١٠] .

جـ ـ على صعيد الدولة : بتعميم انتشار مكتبات الأطفال في المدن الرئيسة . واعتماد مدرسة في كل محافظة بمثابة المكتبة المركزية لأطفال المحافظة تمدُّ مكتبات المدن الصغيرة والقرى بكتب الأطفال . وتزويد كل مكتبة بما لا يقل عن ألفي عنوان ، وبأكثر من نسخة من كل منها . بهدف وصول الكتاب للطفل حيث هو ، ولتكوين قاعدة عريضة من القرّاء في الأقاليم ، واعتماد أمينات مكتبات ممن تخرّجن من قسم

(١٠) كتب الأطفال في الدول العربية والنامية ، مـ.س ، ص ٣٦ .

المكتبات بعد تدريبهن على التعامل مع الأطفال ، وبعد أن تدرسن ما صدر لهم من كتب في بلادنا .

كما يستحسن أن تتبع كل مكتبة مركزية للأطفال « سيارة مكتبة » لكي يصل الكتاب إلى القرى البعيدة(١١).

ومع توفر هذه المراكز يمكن إنشاء مهرجان سنوي صيفي للقراءة ومثاله : « ما أقيم في مصر في جميع مدنها وقراها في وقت واحد كأول مهرجان للقراءة عام ١٩٩١ م واستمر المهرجان من ٧ حزيران إلى نهاية آب أي حوالي ثلاثة أشهر »(١٢). بغية تأصيل عادة القراءة عند الطفل بعد أن استلبها وأفسدها التعلق بالرائي ومشاهدته لساعات طوال أو الانشغال بمباريات لعب الكرة في الشوارع .

وإذا كانت طموحاتنا هذه ضخمة فهذا أمر بدهي ، إن الحملة المسعورة التي يمارسها التوجيه الغربي لفكر أطفالنا من خلال الرائي لا يمكن أن تجابه بالجهد الفردي أو الشركات الصغيرة بإمكانياتها البسيطة . إن الرّدّ يجب أن يأتي على قدر التحدّي وإلا فهو التواصل للهزيمة الروحية .

تلكم نقطة انطلاق منها نلج إلى التفاصيل التي تراود أدباء الأطفال .

في البداية سؤال لا بدّ أن يطرحه كل أديب على نفسه قبل أن يمسك قلمه ليكتب : ما الغاية والهدف من وراء هذا العمل ؟

إن وضوح الهدف هو الذي يسهّل الطريق ويبيّن معالمه ، وهو الذي يحدّد المسارات التي يمكن اختراقها وينبّه إلى إشارات الخطر والمحظورات والممنوعات .

---

(١١) كتب الأطفال في الدول العربية والنامية ، م.س ، ص ٣٧ .

(١٢) مجلة أكتوبر ، م.س ، ص ٤٧ .

ووضوح الهدف يقابل عند علماء الحديث الشريف صحة النيَّة ، فنجد المحدِّثين الكبار يستفتحون صحاحهم بكتاب النية وبحديث :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى[١٣] » ؛ لأنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أن النيـة هي التي تسبق كل عمل . وهي التي تحوِّل العمل إلى عبادة إن توجَّهت لله تعالى .

وأنت أيها الكاتب الأديب ما نيتك ؟ ما الفكر الذي تحمله ؟ وهل ستعبِّر عن ذاتية أمتك وأصالتها وقيمها وعقيدتها ؟

لقد عاشت أمتنا واقعاً مريراً . فمع مطلع القرن وقف رواد الأمة في حالة انبهار كامل أمام الحضارة الغربية ، وظهرت منهم مواقف التبعية والتقليد . وفي تيه الضياع شرد البعض بما استورد من إيديولوجيات ظنَّ فيها الخلاص .

ومضت السنون وسقطت تلك الإيديولوجيات وانتهت ببساطة . وكما يفقد الشيء نقطة ارتكازه فتحتاج إلى إعادة توازنه . تحتاج هذه الأمة إلى أسس ترتكز عليها من جديد . فهل ستعود من جديد تبحث عن بدائل غريبة تستخذي أمامها وتقلدها . أما آن لها أن تنطلق من هذا العقال . لقد استطاعت اليابان أن تطور نفسها علمياً دون أن تفقد عقائدها وقيم حضارتها . ألا تعدّ تجربة اليابان تجربة ناجحة تمثل ذلك التوافق بين الأصالة والإبداع ؟

ثم أيها الأخ الكريم ماذا نستفيد من حالة تقليد تمارسها على صعيد الفكر والتوجه والتأليف والتوليف ؟

إن التقليد نسخة مشوهة لأصل ما . فهل يتحتم علينا أن ندفع الضريبة مضاعفة . بتحمّل أصل غريب ثم تقليدٍ مشوه لذلك الأصل الغريب ؟ مسألة فيها نظر !

---

(١٣) رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ومتفق على صحته .

ويطيب لنا أن نستقرئ بعض الشواهد العالمية لمحاولات الغزو الفكري ؛ ففي ندوة عقدت في تامبير بفنلندا من ٢١ إلى ٢٣ أيار ١٩٧٢ قال د . أورهو كيكونين ، رئيس الجمهورية :

« عندما تمت صياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بعد الحرب العالمية الثانية كانت الخطوط الهادية مستوحاة من النظرة الليبرالية للعالم حسب أفكار وروح آدم سميث وجون ستيوارت ميل ، وكانت أبرز القيم في عالم المال والعقائديات هي حرية العمل والتجارة ، بغض النظر عمن يكون النجاح على حسابهم في هذا العالم ، لقد أعطت الدولة حق العمل والتصرف للجميع ولكنها لم تضطلع بمسؤوليتها تجاه النتائج ، وهكذا أدّت حرية الأقوياء إلى نجاحهم ، في حين ضاع الضعفاء في المعترك رغم حريتهم المزعومة ... وتدفق المعلومات بين دول العالم يمضي في اتجاه واحد وعبر طريق غير متوازن ويفتقر إلى العمق والمدى الذي تتطلبه وتفرضه مبادئ حرية التعبير » .

وقد أوضحت الدراسة المشتركة بين ندوة تامبير واليونيسكو اتجاهين لا جدال حولهما في مجال التدفق الدولي للمعلومات : **الأول أنه تدفق ذو اتجاه واحد من الدول الكبرى المصدّرة إلى باقي دول العالم ... والثاني أن المادة الترفيهية هي السائدة في هذا التدفق .**

وتشير دراسات ندوة تامبير - التي شاركت اليونيسكو فيها سنة ١٩٧١ - إلى أن التدفق الحرّ للمعلومات والذي تدعمه القوة الاقتصادية قد أدى إلى موقف عالمي بالنسبة للدول النامية . حيث **تشيد هذه المعلومات مراكز داخل حدودها من خلاله للدول صاحبة هذه البرامج أن تمارس نفوذها على هذه الدول النامية**[١٤] .

وفي ندوة الحوار الكندي الأمريكي في مايو ١٩٧٦ ، كان فولكنر وزير خارجية كندا صريحاً في خطابه .. قال :

(١٤) رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ومتفق على صحته .

« ولئن كان الاحتكار أمراً سيئاً في صناعة استهلاكية فإنه أسوأ إلى أقصى درجة في صناعة الثقافة ، حيث لا يقتصر الأمر على تثبيت الأسعار ، بل على تثبيت الأفكار أيضاً . فلو تملك الأجانب صناعة الفكر في بلد ، لاعتبرنا ذلك احتكاراً من وجهة نظرنا ...

إن الاتجاه السائد في الميل للقراءة عن الولايات المتحدة وليس عن الوطن اتجاه مثير للفزع ... إن مشكلتنا مع الولايات المتحدة ليست قاصرة أساساً على حجم الولايات المتحدة أو على أننا نرقد على سرير واحد مع فيل ضخم ـ على حد التعبير في هذا التشبيه المعروف ـ ولكن **أكبر مشكلة تواجهنا هي مدى جاذبية الحياة الأمريكية والولع بمؤسساتها والمستوى الثقافي الرفيع الذي حققته** ... إننا نجتذب بعنف شديد إلى الولايات المتحدة لثروتها ، ولثراء وتنوع الحياة فيها .

نحن لا بد أن نضمن أن صناعة نشر الكتب لن تتصدع ، وأن لها مجالها في النمو والتطور ، ولهذا فإنكم سوف تشاهدوننا في كندا ونحن نتخذ الإجراءات التي تضمن صحة هذه الصناعة . إجراءات تتضمن الفحص الدقيق لأي وجود أجنبي جديد يهدد صناعة نشر الكتب في بلدنا . وكندا واحدة من عشر دول متقدمة . لكن مجلة ريدرز دايجست الأمريكية تلقى إقبالاً جعلها تبيع ملايين النسخ وتربح من ورائها ملايين الدولارات بينما تغلق المجلات الوطنية أبوابها ! » .

وهذا كله يجعلنا حذرين إزاء الثقافات الأجنبية الوافدة ، وإننا نرفض أن ننساق ويجرفنا التيار .. **خاصة مع الأطفال ، فإن الغزو الفكري لهم يعني السيطرة على مصائر أوطاننا مستقبلاً ، واستعمارها واستغلالها بلا أساطيل أو جيوش .. إذ يتم**

(١٥) كتب الأطفال في الدول العربية والنامية ، عبد التواب يوسف ، ص ٥٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٤ م .

الغزو من داخل النفوس والعقول ، ولعل هذا أشد فظاعة حتى من الاستعمار الاستيطاني[١٦] .

إذاً هي دعوة صادقة للعودة إلى معين الأصالة نستقي منه ماءً ريّانَ للظامئين على دروب المكابدة الدائبة ، ونجد فيه رفداً يريحنا من وعثاء الاضطراب والقلق والحيرة حين يعرض الحياة على أطفالنا وفق التصور الأمثل للوجود وغائية الحياة ـ التصور الإسلامي ـ ومن خلال الشكل القصصي الذي اختاره الله سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ في قرآنه . فقال جلَّ من قائل :

﴿ نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القصصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ ﴾[١٧] .

لقد قصَّ الحق سبحانه أحسن القصص في كتابه الكريم ، لما للقصة من أثر في النفوس ، ولقدرتها على بثِّ القيم وتأصيلها والإيحاء بها بشكل غير مباشر .

وأنت أخي الأديب تستشعر ثقل المسؤولية الملقاة على كاهلك . كيف لا وأنت قبل كل شيء ناقل حفيظ لرسالة أمتك ، ووارثٌ أمين لميراث النبوة الصافي . يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد :

فكاتب الأطفال هو بالدرجة الأولى مربٍّ قبل أن يكون مؤلف قصة أو رجل مسرح ، وإن الاعتبارات التربوية يجب أن تحتل مكان الصدارة في أي عملية موازنة بين الاعتبارات بحيث لا يمكن التضحية بها ولو بصورة جزئية أو مؤقتة[١٨] .

---

(١٦) كتب الأطفال في الدول العربية والنامية ، عبد التواب يوسف ، ص ٦٠ـ٦١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٤ .

(١٧) يوسف : ٣٠ .

(١٨) دراسة تحليلة في الرواية والأقصوصة وأدب الأطفال والشعر المرسل ، محمد فريد أبو حديد ص ٢٣٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٧٩ م .

وفي ظل هذه المسؤولية الأخلاقية كان الدين أكبر مناصر للفن وحريته في حدود القيم الأخلاقية ، وفي حدود الاستمتاع القلبي والعقلي ، لا في حدود اللهو واللعب »[١٩] .

أخي ، إذا اتفقنا على أهمية الصدور من ذاتية هذه الأمة بما تحمله من عقيدة إسلامية تستعلي بها . فإن التعبير عن هذه العقيدة لن يكون - كما يخطئ البعض الصواب - مقصوراً على مواضيع النبوة والسيرة وتراجم الرجال ، لأن هذه على أهميتها لا تعكس وحدها العقيدة ، إنها جانب ، أما العقيدة الإسلامية فمجالها الحياة بأفقها الواسع الرَّحب الذي يشمل الكون الكبير المنظور وغير المنظور ، وعالم الأحياء والأشياء ولواعج النفوس الخيِّرة والشريرة بآلامها وآمالها وأفراحها وأتراحها وضعفها وقوتها وسقوطها وطموحها وكافة تجاربها .

وهي تشمل العلوم والمعارف كما تشمل الخيالات الطموحة والرؤى الملونة .

إنها ذلك كله وفوق ذلك . فلا تمتهنها بالحدود . لأننا نحن من يضع الحدود ، وصدق الشيخ الشعراوي إذ يقول :

« الأفق الضيق يملؤه قليل العلم »[٢٠] .

وتبقى أهمية الإمساك بخطيّ الأصالة والإبداع بشكل متوازن حتى لا تفلت من بين أيدينا إصدارات أدب الأطفال ، وتنطلق بحركة عبثية فوضوية ، فتخرق وتحرق ، بدل أن تزكي وتطيِّب ، وتهدم بدل أن تبني .

وإذا أمعنا في النظر إلى هذه الإصدارات وتوفرنا عليها رجحت أمامنا مساءلات لا تعوزنا الإجابة عليها ، وهي تبرز تحت عباءة قصص الأطفال مبوبة على النحو التالي :

---

(١٩) الفن والجماهير : عبد المنعم شميس ، ص ٩١ (نقلاً عن التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جودة السحار) ، د . صفوت يوسف زيد ، ص ١١١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ م .

(٢٠) الشيخ الشعراوي حياته وفقهه ، د . السيد الجميلي ، ص ٥٤ ، المختار الإسلامي ، ط١ رمضان ١٤٠٠ هـ يوليو ١٩٨٠ م .

أساطير الحيوان ـ الحكايات الشعبية ـ القصص الاجتماعية ـ القصص العلمية .

أساطير الحيوان :

الأسطورة : شكل أدبي يسعى لتفسير الخطوط العريضة لبعض المظاهر الكونية بشيء من الرمزية المعقدة[٢١]. ومن بين أبسط حكايات الأساطير : الحكايات ذات التفسير المفتعل أو حكايات لماذا ؟

لماذا يصيح الديك عند الفجر ؟ لماذا ذنب الضبّ طويل وذنب الضفدع قصير ؟

والعرب في جاهليتها عرفت هذا النوع من الأساطير . وكانت لها تعليلاتها المفتعلة توضح فكر الشرك حين يعلل الإنسان بعقله القاصر مظاهر الطبيعة ولا يردّها إلى مشيئة الله الفاعلة . ومن وراء المشيئة والقدرة الحكمة الإلهية .

واليوم ومع تنامي الفكر الإلحادي على المستوى العالمي يزداد طرح هذه الأساطير . أتراها ردّة الإنسانية إلى مستنقعات وثنيات الأساطير اليونانية والرومانية ! وهل يطيب للمربين استبدال المنطق والتعليل العلمي المتوافق مع التصور الإسلامي للكون بهذه الأساطير وتعليلاتها المستوخِمة وخزعبلاتها ؟

من هنا ندرك خطر إرساء هذا النوع من القصص في الأدب الموجّه لأطفالنا .

الحكايات الشعبية :

« يشكل التراث الشعبي بالنسبة للمربي مخزناً ثرّاً من الوسائل التربوية لأن سحره ورقته وحركته تشكّل واقعاً للأطفال ، يلج الطفل عبره وبشكل تلقائي إلى عالم مدهش مثير »[٢٢] .

---

(٢١) Children and Books, May.Hill.Arbuthnot and Zena. Sutherland, P.190-192. Scott, Foresman and Company. Glenview. Illinois, London. Fourth edition. 1972.

(٢٢) أدب الأطفال والفتيان في العالم ، ترجمة : نادر ذكرى ، ص ٦٩ ، دار الحوار للنشر والتوزيع . ج.ع.س . اللاذقية ، ط٢ ، ١٩٨٥ م .

ولقد أهدى الأدب العربي لأدب الأطفال العالمي الكثير الكثير ، بدءاً من « ألف ليلة وليلة » ، وعرف العالم : السندباد ، وعلاء الدين ، وعلي بابا ، وعقلة الأصبع ، وعفريت الزجاجة ، ولص بغداد . وقد صارت كلمة « افتح يا سمسم » التي تفتح الكنوز عنواناً لأشهر مسلسل موجّه لأطفال ما قبل السادسة . Sesseme street .

ومما استوحاه الغرب من ألف ليلة وليلة :

أ ـ قصص الخوارق :

والمارد العربي لا يتحرك من تلقاء نفسه كالرجل الأخضر ورجل بستة ملايين دولار ، بل ماردنا يأتمر بالعقل الإنساني ويخاطب الطفل بعبارته الشهيرة :

« شبيك لبيك عبدك بين إيديك » .

ب ـ قصص المخلوقات الغريبة :

وقد قرأنا قصة « أليس في بلاد العجائب » و « رحلات جليفر » ، وإصدارات الغرب منها كثيرة وهي تذكرنا بتلك المخلوقات الغريبة في ألف ليلة وعجائب المخلوقات للقزويني والحيوان للجاحظ وحياة الحيوان الكبرى للدميري ، والمستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي .

جـ ـ أما قصص الحيوان :

فقد كان ابن المقفَّع واضع كليلة ودمنة هو السَّبّاق ، والعالم مدين بهذا اللون من القصص للعرب .

د ـ السيرة الشعبية :

أشهرها السيرة الهلالية وعلي الزيبق وسيف بن ذي يزن وحمزة العرب ، والأميرة ذات الهمّة وعنترة . ومن سيرة الظاهر بيبرس يبدو تأثر أوربا ؛ إذ نقلت شيم الفروسية النبيلة في قصصها :

(King Arthurs Knights) فرسان الملك آرثر ، (Robin Hood) روبن هود .

وتراثنا الشعبي يحوي قصصاً عن الجن ، والحديث عن الجن خصيصة من خصائص أدب الأطفال عند العرب المسلمين بعد أن صار الإيمان بالجن - العالم غير المنظور - من صلب العقيدة الإسلامية . وقد جاء النص القرآني المتواتر بذكر الجن وجعل اسم إحدى سوره الكريمة سورة الجن . ومع القصاصين وخيالهم الجامح ظهرت في قصص شهرزاد وألف ليلة وليلة حكايات الجن التي ألفها الأطفال العرب المسلمون واستمتعوا بها ، بالمقابل نجد أطفال أوربا يملكون صورة ضبابية عن هذا العالم غير المنظور تختلف تماماً عما نتصوره .

ويتساءل بعض الأدباء هل من داعٍ لهذا النوع من الحكايات ؟

والجواب على ذلك نقول :

ليس هناك محظورات دائماً ولا مباحات دائماً ، وإنما تكمن الحكمة في وضع الأمور في نصابها أو هي « قول ما ينبغي لمن ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي » ، وحكايات الجان لا تثير اهتمامات الأطفال الصغار بحال ، بل إن الآثار السلبية من مخاوف وهمية للعالم غير المنظور تجعل الأسلم عدم التطرق لها . ولكن مع نمو الأطفال في عمر ١٠ - ١٥ سنة ونمو خيال الأطفال تحلو لهم مثل هذه القراءات ، لذلك لا نجد بأساً من طرح هذه القصص بأسلوب منتقى ومصطفى إلى أبعد الحدود . وقد نجحت دار الفتى العربي - لبنان بيروت - بجمع هذه الحكايات في إصداراتها : حكايات شعبية من العراق - حكايات شعبية من فلسطين[٢٣] . فحفظت لنا تراثنا ونبهتنا إلى وحدة التراث ووحدة الخيال لدى الشعب العربي المسلم من وراء كل الحدود .

---

(٢٣) حكايات شعبية من العراق ، وداد حسين حسني - دار الفتى العربي ، لبنان بيروت ، ط١ ١٩٨٨ م .
حكايات شعبية من فلسطين ، نمر سرحان . إعداد صفاء زيتون - دار الفتى العربي ، ط١ ١٩٨٧ م .

إن الحكايـات الشعبيـة بستـان زاخر بشتى أنـواع الثمار . وأحلى الثمار مـا حَسُنَ انتقاؤها .

القصص الواقعية :

في مجال القصص الواقعية تثار تساؤلات حول تنـاول بعض الأموز بشكل معـاصر وعلى نحو سليم . من هذه التساؤلات : مكانة المرأة ، والمعالجة الواقعية للقصة .

إذا كان الحـديث حول مكانـة المرأة فـإن واقـع مجـلات وكتب الأطفـال يـدلّ على النظرة المجحفة بحق المرأة . « وقد قدم الباحث حازم النعيمي الـدليل على ذلـك بتحليل عينات من مجلات الأطفال المصرية والتي ترأس تحريرها سيدات ! وتبدأ الدراسة بإبراز حقيقة غريبة ، هي أنه لا توجـد مجلـة أطفـال عربيـة اسمهـا مؤنث بل كلّهـا مـذكرة : أسامة ، حسن ، مـاجـد ، سعـد ، أحمـد !! وهي في الوقت نفسـه أسماء البطـل الرئيمي لكل مجلة .

ومن تحليل عينات مجلات الأطفال ، تبيَّن أن من بين ٨ شخصيات رئيسة في مجلد يضمّ ١٢ عدد ، توجـد فتـاة واحـدة . وتبيّن أن نسبـة الشخصيـات النسـائيـة إلى مجموع شخصيات القصص ١٣٪ ، في حين أن نسبة شخصيات الرجال ٨٧٪ . وبالنسبة للسلوك والصفات الشخصية في القصص المقدمة للأطفـال ، تبيَّن أن الصفـات الإيجـابيـة للرجل أكثر من الصفات الإيجابية بالنسبة للمرأة . كذلك فإن الصفـات السلبيـة للرجل تنسب لشخصية ثانوية بهدف إبراز الصفات الإيجابية لبطل القصة ، أما الصفات السلبية للمرأة فهي لصيقة بها وغـالبـة ، والصفـات الإيجـابيـة طـارئـة ونـادرة ، فلم تظهر مثلاً إلا في حوالي ثلاث قصص من ٥٣ قصة . فنحن نرى دائماً شخصيـة البطـل المـذكر ، في مجلات الأطفال ، ذات طـابع حيوي : فهو ذكي ، قوي ، نشيـط ، مكافح ، مخلص ، شجـاع ، مغـامر ، مستقل ، حسن التصرف ، مـع وجـود بعض (الفهلـوة) والإجرام والغرور في تصرفاتـه أحيـانـاً ، وهو صـاحب الكلمـة الأخيرة في القصـة والموضوع . أمـا المرأة فهي

مضحيـة ، ضعيفـة ، وتستحـق العطف ، وفي أحيـانٌ قليلـة لـديهـا بعض الـذكاء وحب الرياضة والعمل .

إن هـذه المجلات والقصص تترك انطبـاعـاً عـامـاً لـدى الأطفـال ، (البنـات والصّبْيـان) بـأن الرجل هو العنصر الأفضل والحيوي ، والمرأة هي العنصر الأقل شـأنـاً والسلبي في المجتمع »[٢٤] . فكيف نصحح هذا الاتجاه ؟ ونحن أمـام أمرين ، أحلاهمـا مرٌّ ، يمثل الأول : النظرة الدونية للمرأة . ويمثل الثاني « مجتمع الجنس الواحد » كما يحـدث في الغرب حيث لا يحتفي المجتمع بسوى عمل الرجل كونه عملاً إنتاجياً مادياً مما يحدو بـالمرأة إلى تقليد الرجل في محاولة تأفف من أنوثتها وتظاهر بالرجولة .

إن هـذه الفكرة أنست المرأة دورهـا الخـاص الـذي تلعبـه ، وهـو أقـدس دور في الوجود ، ولئن كانت قيْمة العمل تعلو أو تنقص وفق المواد الأوليـة التي يتمّ العمل عليهـا فإن الرجل دائم العمل بالأرض وما عليها من أشياء ، والمرأة دائمة التعـامل مع الإنسـان طفلاً أو أخاً أو زوجاً أو أباً . فأي العملين أقدس ؟

لقـد صرّح القرآن بـأن المرأة والرجل متسـاويـان في مقـام الإنسـانيـة والواجبـات الدينيـة والأخلاقيـة ، وفي التربيـة والتعليم ، وفي الشخصيـة الحقوقيـة « القـانونيـة » ، ولكنه حافظ على مجتمع الجنسين ـ الذي يقوم فيه كل من الرجل والمرأة بدوره الخـاص ـ على أساس من التفاهم والتعاون[٢٥] .

هذه النظرة الصائبة هي التي يجب أن توجّه معالجة القصص الواقعية الاجتماعيـة ، وهي الأحق في أن تصغي إليها أفئدتنا وترتضيها عقولنا مـذهبـاً وتصوراً ونعيشهـا بعـد

---

(٢٤) تنمية عادة القراءة عند الأطفال ، يعقوب الشاروني ، ٥٦ ـ ٥٨ ، مجلة اقرأ ، العدد ٤٨٣ ، دار المعـارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .

(٢٥) واقرأ إن شئت : المرأة في القرآن ، د . لميعة الفاروقي ، مجلة الغدير ، المجلد الثـالث ، العـدد ٢١ ـ ٢٢ ، خريف شتاء ١٩٩٢ م ، ٧٤ ـ ٨٨ .

ذلك ممارسة وسلوكاً . وإن الضرب بهذه التصورات الأساسية لقيام مجتمع عرض الحائط لن يعود على أمتنا إلا بالنكد والتبرُّم والضجر من تكاليف الحياة وأعبائها .

بالمقابل تعلو أصوات المتأثرين بالمدرسة الواقعية في الأدب العالمي مطالبين بتطبيق الواقعية في قصص الأطفال .

كيف ؟

يقولون : إنكم تقدمون قصص الأطفال وعليها مسحة شاعرية فيها ينتصر الخير دائماً . ويكبر الطفل ويخرج إلى معترك الحياة ليجدها صراعاً حادّاً وشرّاً طاغياً فيصاب عندئذ بصدمة ويكتشف فيما قرأ خديعة طاولت طفولته وبراءته .

ولهؤلاء نقول :

الحياة صراع لا يخلو من شرّ ، حقيقة نعترف بها ويجب أن نطرحها في قصص الأطفال لأنها تمثل الواقعية التي نؤمن بها . أما القول بحتمية انتصار الشر في قصص الأطفال ليعوا حقيقة الحياة فهذا مرفوض من وجهين :

الأول : يثبت الواقع أنه لا يمكن للشرّ أن ينتصر في ختام أي تجربة حياتية ؛ نعم قد يستمر لفترة ويتفشى ، ولكنه لا بدّ أن ينتهي إما بالجزاء الطبيعي في الحياة ، أو بوهنه أمام الحق ، أو بتدخل يد القدر والقضاء عليه .

وصحّ ما قيل : بذرة الشر تهيج وبذرة الخير تثمر .

الثاني : نحن نريد لأطفال اليوم وجيل الغد التسلُّح بالقيم والفضائل الإسلامية وأن يكونوا جنود الخير حيث وجد . فإذا مثلنا أمامه في أدبه انتصار الشرّ ضعف إيمانه بالحياة وتزعزعت ثقته بالمستقبل .

هذا جانبٌ من القصص الاجتماعية الواقعية ، وننتقل إلى مساءلات حول القصص العلمية .

القصص العلمية :

أصابت القصص العلمية رواجاً كبيراً في العالم في عصرنا الحاضر . أما في بلادنا فهي ما زالت تدرج وتتعثر وتقف لتسقط من جديد . لا جَرَم كانت الدعوة ملحّة لمواصلة الجهود لتطرح القصص العلمية على المستوى المطلوب . لماذا ؟

قلنا إن من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ عقل الفرد المسلم . ولا يعني ذلك حفظه ضمن صندوق مربوط بإحكام من سائر جهاته كما يفعل أصدقاؤنا اليابانيون الذين يضعون أقدام صغارهم في أحذية معدنية صغيرة فلا تنمو الأقدام نمواً كبيراً وتبقى صغيرة لطيفة وجميلة كما يرغبون .

لا ، ليس بهذه الطريقة نحفظ عقول صغارنا ، بل وباتجاه معاكس عن طريق رعاية العقل وإنمائه الفكري وتوسيع آفاقه . ولقد احتفى القرآن بالعقل وكثرت الآيات التي توجّه الإنسان إلى استخدام عقله حتى بلغت تسعاً وأربعين آية . ذلك أن التفكير الدائم والمركز كالتدريبات البدنية ... التفكير الدائب يصلح العقل وينمي الذكاء كما التدريبات البدنية تصلح الصحة وجسم الإنسان .

« من ثمّ ندرك لماذا استخدم القرآن مادة « عقل » بصيغة الفعل . وصيغة الفعل المضارع على وجه الخصوص ؛ استفهاماً ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ، أو ترجّياً ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، أو تقريراً ﴿ لقومٍ يعقلون ﴾ ، أو نفياً ﴿ لا يعقلونَ ﴾ . ولم يستخدمها بصيغة الاسم « عقل » ، فالقرآن يخاطب العقل على أنه أداة التفكير والبحث وعرض المقدمات للوصول إلى النتائج »[٢٦] .

فكيف يمكن استثارة كوامن التفكير العلمي عند الطفل ؟

(٢٦) مفهوم العقل والقلب في القرآن والسُّنّة ، الشيخ محمد علي الجوزو ، ص ٥٥ ـ ٥٩ ، دار العلم للملايين ، ط٢ ، ١٩٨٣ م .

أعتقد أن القصص العلمية تلعب دوراً جيداً في هذا الشأن . فما القصص التي نريد ؟

القصص العلمية تعريفاً :

هي نوع من القصص يدور حول حدث أو اكتشاف أو اختراع علمي وقع في عصر من العصور وكتب بأسلوب قصصي مبسط يناسب المستوى العقلي والثقافي للطفل[٢٧] .

ومادة القصة العلمية قد تكون علوماً نظرية : تعنى بالحقائق العلمية المجردة وبالقوانين العلمية المكتشفة حول الكون والكائنات التي تعيش في هذا الكون الشاسع .

أو علوما تطبيقية تستخدم هذه الحقائق والقوانين العلمية لتطبيقها ليستفيد منها الإنسان[٢٨] . وأهداف هذه القصص متعددة ، نذكر منها :

ـ إنشاء الفكر العلمي : بتحديد أبعاد المشكلة بدقة ـ فرض الفروض القابلة للتمحيص والمتصلة بالمشكلة ـ جمع البيانات بلا تحيز ـ التحقق من الفروض واستبقاء المناسب واستبعاد ما سواه ـ التعميم والتنبؤ العلمي .

ـ المهارة العلمية : بالوصف الدقيق لكل موقف من خلال الملاحظة المدركة للأشياء ـ التصنيف والتبويب ـ التحليل والتركيب للوصول إلى القاعدة الكلية التفسير السببي في حدود الشروط المتوفرة .

ـ الاتجاه العلمي : حب الاستطلاع والتفتح الذهني ـ تقدير جهود الآخرين ـ استعذاب المعاناة وتحمل المشاق في البحث عن حل للمشكلة .

---

(٢٧) الثقافة العلمية في كتب الأطفال : بحث قدمه حامد الشافعي دياب تحت اسم : قصص الأطفال العلمية في نصف قرن ، ص ١٥٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٥ م .

(٢٨) الثقافة العلمية في كتب الأطفال : بحث قدمته نتيلة راشد تحت اسم : المواد العلمية في مجلات الأطفال ، ص ١٢٥ .

ـ تقديم المعلومة العلمية : معلومة أساسية : مثل الميكروبات ، جاذبية الأرض ، وظائف الكبد . معلومة تطبيقية : تربط بين المعلومة والإنسان والبيئة مثل تكييف الهواء وتعليب الأطعمة .

ـ توجيه الميل العلمي : الميل نحو هواية علمية : مثل التصوير .
الميل نحو مهنة علمية : مثل الصيدلة والهندسة(٢٩) .

لتحقيق هذه الأهداف يمكن الارتكاز على أي مادة علمية لإنتاج قصص علمية مستحدثة إبداعية فمثلاً :

ـ فكرة درجة الشفافية ومعاملات الانكسار : يمكن استثمارها في قصص أخرى على منوال قصة هـ.ج. ويلز (الرجل الخفي) .

ـ خاصة أشعة الليزر غير المرئية في قطع المعادن : يمكن استثمارها فنياً في قصص المغامرات وبخاصة أن بعض أجهزة توليد الليزر في حجم علبة الدخائن الكبيرة(٣٠) .

ـ خاصية سماع الخفاش للموجات فوق الصوتية التي لا يسمعها الإنسان : يمكن أن تكون عنصراً فعالاً في توجيه معركة .

ـ خاصية كبريتيد الخارصين في الفسفرة وإعطاء وميض مرئي في الظلام : يمكن أن تكون وسيلة الجاسوس لإرشاد الطائرات المغيرة .

ـ فكرة انعكاس الضوء في المرايا : يمكن استثمارها في قصص تضليل العصابات .

---

(٢٩) الثقافة العلمية في كتب الأطفال : بحث قدمه د . فيليب اسكاروس تحت اسم : الفكر العلمي . قصص الأطفال العلمية في نصف قرن ، ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

(٣٠) استعمل الأديب مصطفى صادق الرافعي كلمة الدخينة للسيجارة ، وجمعها دخائن . راجع تحت راية القرآن ، ص ٢١٠ ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، بيروت ، ط٧ ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م .

- فكرة تكبير أو تصغير المرئيات بواسطة المرايا الكروية أو العدسات : يمكن أن تكون وسيلة علمية في تكبير القزم أو تصغير العملاق .

- فكرة الاستشعار عن بعد ، والتصوير في الظلام بالأشعة تحت الحمراء ، وظاهرة امتصاص بعض المواد للطيف غير المنظور وإعطاء وميض منظور ، وما إلى ذلك من أفكار علمية بحتة يمكن أن تكون محاور لقصص تدور حول خوارق يقوم بها البطل . وسيكتشف الصغير عندما يكبر أن هناك أساساً علمياً سليماً للخوارق التي سمع عنها في صغره[٣١] .

الطموح كبير ولتحقيقه نستفزّ الهمم بالتوصيات التالية علّها تدفع بعجلة تطوير الكتابة العلمية للأطفال :

- الاهتمام بقضية إنماء المهارات اليدوية المرتبطة بالحياة اليومية عند عرض مضمون علمي محدد حتى يشب الصغير ولديه استعداد لممارسة المهارات .

- ضرورة مراعاة أعمار الأطفال في الكتب المتخصصة لهم في مجال العلم . والبدء بلفت نظر الأطفال في سن ما قبل المدرسة إلى الظواهر الطبيعية[٣٢] .

- تشجيع الاتجاه إلى التأليف الجماعي في ميدان الكتابة العلمية للأطفال بحيث يتعاون العالم المتخصص مع كاتب الأطفال القدير مع الرسام المتمكن ، لتقديم كتابات علمية تستهوي الأطفال ، وتجمع بين الدقة والتشويق .

- تنويع ألوان الكتابة العلمية للأطفال ، بحيث تتيح لهم فرص الاختيار ، وفرص التعرف على مختلف الألوان ، مثل الكتب الإعلامية - والقصص العلمية - وكتب الخيال العلمي - وكتب الأنشطة والهوايات ... وما إلى ذلك .

---

(٣١) الثقافة العلمية في كتب الأطفال : بحث د . فيليب اسكاروس بعنوان الفكر العلمي ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٣٢) م.س ، ٢٤٩ - ٢٥٠ . توصيات الندوة .

ـ تحقيق عناية متوازنة لتغطية مختلف مجالات المضمون العلمي في كتب الأطفال . كمعرفة ومعلومات ، كسلوك واتجاهات وقدرات ، كأنشطة علمية وتطبيقات وتجارب ، في إطار من الأساليب الشائقة المحببة للأطفال[٣٣] .

إذا كانت الأصالة والإبداع خطين متوازيين نطالب بهما في مجال الكتابة ، فإن الدعوة إليهما في حيز رسوم قصص الأطفال واضحة .

في آسيا تنظم مسابقة لرسامي بلدان آسية وإفريقية والدول العربية مهرجان « نوما لرسوم كتب الأطفال » وتعود الجوائز الأولى لإيران تليها الهند والصين وقد تلقت إيران منذ عام ١٩٧٤ ميدالية اندرسن[٣٤] .

لماذا ؟

يثبت الواقع تفوق الإيرانيين بمزج الألوان ومن ذلك المنمنات والصور الصغيرة التي توضع على الجدران وفي رسومهم التشكيلية . أما في بلادنا العربية فقد ظهرت حالات إبداعية شفافة لرسامين شكلوا لأنفسهم نهجاً أصيلاً متميزاً . أشهرهم اليوم : اللباد (مدرسة معاصرة خاصة) حلمي التوني (يجمع إلى المعاصرة أصالة التراث) فائز نوار وأحمد الخطيب (وضوح السمات العربية وخصائص البيئة العربية المعاصرة) . ولكن إلى جانب هذه الاستثناءات يومئ الوضع الراهن بالتحديات التالية :

ـ غياب تصور يحدد اتجاهات نشر الكتب وبالتالي يحدد اتجاهات ونوعيات ومستوى الرسوم لكتب الأطفال .

---

(٣٣) الندوة الدولية لكتاب الطفل : ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ . توصيات الندوة بالكتابة العلمية للأطفال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٧ م .

(٣٤) أدب الأطفال والفتيان في العالم ، مجموعة مؤلفين ، ترجمة نادر ذكرى ، ص ١٦ ، دار الحوار ، اللاذقية سورية ، ط٢ ١٩٨٥ م .

ـ لا يزال التوجّه في مجمله تجارياً ؛ يستهدفْ الرواج والربح المضمون والسريع ، وتتحدد أنواع الكتب في الأنواع المضمونة الربح في ظروف السوق المحلية .

ـ تجاهل احتياجات الطفل الحقيقية من الكتاب وسيادة : اتجاهات الإلهاء والتسلية التشويشية الاستهلاكية ، أو اتجاهات التلقين والتعبئة والتوجيه .

ـ ندرة النصوص الأدبية الإبداعية وعدم تنوعها يقيد تطور رسوم كتاب الطفل .

ـ في ظل الأوضاع السائدة ، فإن الفرصة معدومة أمام محاولات التجريب لتجاوز السائد سواء في النصوص أو في الرسوم ، إذ يميل معظم الناشرين إلى النمطية وعدم المجازفة .

ـ التردّي الخطير والمتزايد في المستوى البصري للكتاب المدرسي (أكثر أنواع كتب الأطفال توزيعاً على الإطلاق) ، وتدني مستوى الرسوم والتصميم إلى أبعد حدّ .

ـ غياب دور المدير الفني Art director. في كثير من دور النشر الهامة ، واتخاذ القرارات بشأن إخراج الكتب وتصميمها واختيار رسومها بمعرفة مسؤولين غير مؤهلين لهذه المهمة أو غير متصلين بالمعرفة الفنية والثقافية(٣٥) .

إن الرسوم والصور تلعب دوراً هاماً في تنشئة الطفل جمالياً . وفي تكوين نفسية الطفل وتحديد مسار توجهه : مبدعاً في خياله وعطائه ، أو استهلاكياً تقليدياً .

والحديث عن أدب الأطفال يطول . وتقصّيه من كافة جوانبه في بضعة سطور أمر محال . وما مضى غيض من فيض . يبقى منه في القلوب شجون وفي النفس آمال . وتعلو الصيحة داعية إلى الأصالة والإبداع ، وإلى تكاتف الجهود .

فهل من مجيب !؟.

(٣٥) الندوة الدولية لكتاب الطفل : الماضي ـ الحاضر ـ المستقبل . بحث مقدّم من محيي الدين اللباد بعنوان رسوم كتاب ومجلة الطفل في مصر . ٢٣٣ ٢٥٢ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٨٧ م .

الفَصْل السَّادس

أدب الأطفال
وواقع الأطفال في مجتمعنا

إبراهيم محمود

١ ـ مقاربة لمفهوم الأدب :

لكي نفهم الأدب ، لا بد من طرح سؤال : كيف يكون الأدب ؟ وليس : ما (هو) الأدب ، لأن (ماهية) الأدب تبعدنا عن حقيقة الأدب ، وحركيته كفعل مؤثر في الواقع . و : ما هو : سؤال تصوري ، يشير إلى البعيد والغائب ، وتعريفه يبقى معتَمداً عليه تصورياً بدوره ، في إطاره التجريدي . ونحن نبتغي مقاربته ، بقصد امتلاك البنية المحركة الداخليه له ، وكيفية تجذره في الواقع ، أما سؤال : كيف يكون الأدب ؟ فهو الذي يقربنا من الأدب كمفهوم ، كحقيقة معاشة : نفسياً واجتماعياً ، ومن ثم كتصور يستند إلى أرضية دلالية ، يمكن تلمسها ، ومعايشة متضمناتها . عدا عن أن كون (كيف يكون الأدب) كسؤال ، يشير إلى حركة مؤثرة في النفس ، ومتابعتها ، وإلى إمكانية استيعاب مكونها بصورة أفضل ..

بين سؤال : ما هو الأدب ، وسؤال : كيف يكون الأدب ، يتراكم (جبل) هائل من الأوهام والتصورات اللاواقعية :

أ ـ فسؤال الأدب ، ليس سوى السؤال الذي يفترض أنه السؤال الذي يجب طرحه !

ب ـ وجواب هذا السؤال ، ليس سوى الجواب الذي يُعتقَد أنه الجواب الذي يجب وضعه .

جـ ـ وما يطرح ، أو ما يوضع من جواب ، لا يمثل سوى ما هو متصوَّر في الذهن ، وما هو معتمَد عليه ، باعتباره ، أفضل ما يجب الاعتماد عليه ، وليس أفضل ما ينبغي التوجه نحوه ، والسعي إلى ملامسته ومعايشته ..

د ـ ولأن سلسلة الأسئلة التي تُطرح ، والأجوبة التي توضع ، لا تعبر إلا عن وعي مؤطر ، وليس عن وعي نافذ ، وفكر لا يتوقف عند حد ، يمنعه من تجاوز نفسه باستمرار .

هـ ـ وكلما تقادم الزمن ، تشكلت تصورات تمثل مجموعة من الحقائق النفسية ، لا العقلية ، والنابعة من ذهنية متصلبة ، وظهرت أفكار ، هي في محصلتها ، لا تساهم إلا في منع كل فكرة جديدة ، من الصعود والبروز ... إلخ .

ولهذا فإن نظرتنا إلى ما نسميه بـ (الأدب) ، ليست سوى نظرتنا إلى ما اعتبرناه أدباً ، وهو في حقيقته ليس كذلك ، كون هذا الأدب ، الذي نعيشه ، ونتعامل معه ، ويسكننا على الصعيد الجمالي والدلالي والقيمي ، ونمارس الكتابة فيه وعنه ، وكذلك نقوله هنا وهناك ، عندما نصطدم بمواقف مختلفة ، أو نعيش حالة صدامية يومية مع الواقع ... إلخ ، لا يمثل « وجودنا » الموضوعي والشمولي العميق في هذا الواقع .. لأننا ـ نحن أنفسنا ـ ، لكي نقول أدباً ، ونكتبه ، ونعيشه ، و (ننتجه) ، في معانيه المختلفة كتكوين قيمي ودلالي ورمزي متجذر في المجتمع ، وحافز للإنسان (لنا جميعاً) على تأمل ذاته ، وتشذيبها وبنائها بناءً أفضل باستمرار ... إلخ ، يجب أن نرتقي إلى مستواه المفهومي كحقيقة مجتمعية (معلّمة) ، وكفضاء تربوي لاستقطاب (النفوس) ، والتأثير فيها ، ودفعها إلى التلاحم في كل واحد ، من خلال فعل جماعي خلاق ...

إن ما نقصده ونقصد إليه ، هو أننا لا نعيش الأدب من الداخل ، ككيان وظيفي ، كشبكة رموز ، تشكلت بصورة طبيعية في واقعنا ، إنما كان أقرب إلى التبني ، إلى الاستعارة ، ولم يجر استيعابه على صعيد التوافق مع المجتمع الذي يضمنا .

فالأدب ليس هو ما يخص (الأدب) المقابل للحياء ، وضرورة أن يحترم الإنسان نفسه[1] . إنما هو وظيفة تتطلب ممارستها أرضيةً مجتمعية واسعة ، تتلاقى فيها وتتداخل

(١) يذكر الدكتور « عبد الرزاق جعفر » أن (الأدب) كما جاء في (لسان العرب) من التأدب الذي =

خطوط وإشارات ، تمثل عموم المجتمع ، وتستهدف تعزيزه نحو الأفضل دائماً .. وما دمنا بعيدين قليلاً أو كثيراً (نحن الكبار) عن هذا المفهوم ، وعن حركيته ، وخطورة أبعاده ودلالاته ، فإن الهدف المرتبط به ، على صعيد وعي الواقع ، هو نفسه يظل بعيداً عنا ، أو نحن بعيدون عنه ، ويبقى إشكالياً بدوره ..

وهذا يعني أن عدة الأدب ، لم تُمتلك بعد ، لدينا أو معنا ، ورغم قسوة تصور كهذا ، إلا إنه واضح ومسوغ بالنسبة إلى الواقع الذي نعيش ، واختلاف نوازعنا ، وتضارب تصوراتنا المفزع ، واستخفافنا ـ كذلك ـ بما نقول ونكتب ونسميه أدباً ، بسهولة ، دون أن نراعي المناخ الذي يتطلبه ، ليكون بالفعل أدباً (مثمراً) مجتمعياً ، ويُعترف به ، وهو ليس كذلك ، لأن مفهوم الإنسان نفسه (عندنا) لم يزل يفتقر إلى معناه الإبداعي والفعلي . هو الذي يرينا هشاشة وضحالة هذا المفهوم وهذا الهدف . وإذا كان الوضع كذلك في مفهوم الأدب بشكل عام ، فكيف يكون مفهوم أدب الأطفال ؟ وأين هو ؟ وأين يكون مثل هذا الأدب حضوراً فعلياً ، وإبداعياً ؟ وإذا كنا بصدد إشكالية مفهومه ، فكيف هو ، ويكون الهدف المرتبط به في إشكاليته كذلك ؟

٢ ـ مقاربة مفهوم أدب الأطفال ، والوهم الكبير :

الإشكال هنا أكبر ، والخطورة الكامنة في أدب الأطفال ، وما إذا كان هناك بالفعل أدب أطفال لدينا ، هي أكثر حضوراً .. وهذا يعني أن الهدف المرتسم بأدب كهذا ، يفتقر إلى الواقع الذي نصبو إلى العيش فيه ، أو تحقيقه ..

= يتأدب به الأديب من الناس . وسمي (أدباً) لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح . وأصل الأدب الدُّعاء . ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس : مدعاة ومأدبة . ثم يذكر على لسان أحدهم بعد ذلك أن الأدب ، هو أدب النفس والدرس . والأدب : الظرف وحسن التناول . وأدَّبه فتأدب ؛ علَّمه ... إلخ . ـ انظر كتابه (أدب الأطفال) ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ١٩٧٩ ـ ص (١٥) ـ وتعليقنا على مثل هذا المفهوم ، هو أنه لا يخرج عن إطار اللغة الوصائية والوعظية ، في بعدها الأبوي . ويؤكد على علاقة تتخذ غالباً من طرف واحد : فاعل والآخر المتلقي هو المنفعل ..

ولكن قبل الانتقال إلى طرح تساؤلات ، وإثارة بعض النقاط ـ التي نعتبرها أساسية من وجهة نظرنا ـ بخصوص ما نحن بصدده (أي مفهوم أدب الأطفال ، وما يرتبط ، ويُربَط به من أهدافٍ تربوية) ، من خلال أمثلة داعمة لذلك .. يستحسن التوقف عند نقطة ـ تعتبر في نظرنا ـ المدخل الرئيس إلى موضوعنا هذا ـ تتعلق بكيفية تحويل أدب الكبار إلى أدب أطفال ! إن ما نكتبه ونعتبره أدب أطفال ، ليس سوى ما نعتقده كذلك . وهذا يعني أن نظرتنا (ونحن بصدد موضوع خطير من هذا النوع) هي في حقيقتها لا تنبع من الواقع ، وإنما تستمد مصداقيتها من تصورنا الذهني / النفسي ، حيث يُلحق بها الواقع نفسه . ويعني ذلك أن (الواقع ليس دائماً « يمكننا أن نعتقده » لكنه على الدوام ما كان يفترض أن نفكِّر فيه)[2] ، كما قال (غاستون باشلار) . ولعل وضعاً كهذا ، وتصوراً كهذا ، من شأنها تعقيد الموضوع بدلاً من توضيحه ، وتبسيطه ..

إن البحث عن أدب الأطفال ، أو أدب أطفال ، والكتابة فيه وعنه ، يتطلبان توفر أرضية مناسبة ، ومناخاً صحياً تماماً .. والذي كتب أو يكتب أدباً للأطفال ، بوسعنا توجيه مثل هذه الأسئلة إليه :

- ما نوع الطفولة التي عاشها ، ليمارس كتابة معينة للأطفال ؟

- وهل عاش طفولة ، يمكن اعتبارها متوازنة ، ليستطيع معايشة الطفولة ، ومن ثم الكتابة للأطفال ؟

- وأي واقع يعيشه ، ليستطيع الكتابة ـ دون وجود عوائق ـ للأطفال إيجابياً ؟

وكيف يستطيع تحديد علاقته بالطفولة ، حتى يستطيع الكتابة فيها ، وللأطفال ؟

(٢) باشلار ، غاستون : تكوين التفكير العلمي ـ ترجمة د . خليل أحمد خليل ـ المؤسسة الجامعية بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٢ ـ ص (١٣) .

نطرح مثل هذه الأسئلة وغيرها ، وهي كثيرة ، لنعلن أن الذي يكتب ويسمي ما يكتبه أدب أطفال ، لا بد أن يكون مسكوناً بالطفل « صحياً » من النواحي كافة « ديمقراطي المبنى والمعنى » ، و « يعيشه » ، وهو يكتب له أو عنه .. والسؤال : هل هناك من يمتلك مثل هذا الشرط ، حتى يستطيع ادعاء أنه يكتب للأطفال وعنهم ، أو أنه يمثلهم ؟ أم يريد أن يقنع نفسه ، ويخلق أو يختلق ـ بشكل أصح ـ في ذهنه طفلاً ، يعتبره نموذجاً يفهمه ، ويتواصل بالتالي معه ؟

إننا عندما نعلم أنه لا توجد دراسة اجتماعية ، أو سياسية ، أو نفسية ، أو ثقافية ... إلخ تتناول الإنسان في مجتمعنا ، إلا وتؤكد الاغتراب المجتمعي فيه ، من خلال تركيزها على مفهوم التخلف بمعانيه المختلفة ، وهذا يعني أنه يستحيل ظهور أدب « حقيقي » ، « صحي » للأطفال ، انطلاقاً من هذا الموقع الذي أشرنا إليه !

وبوسعنا الإشارة ـ مثلاً ـ إلى ما يقوله الدكتور (علي زيعور) في كتاب له ، يتناول هذه الظاهرة سيكولوجياً ، وفي المقدمة مباشرة : (الشخصية العربية مصابة بترجرج ، وقلق ، وتخلخل في القيم ، وانجراح في مشاعر الأمن والانتماء . نلاحظ اضطرابها دون صعوبة : هناك الوعي بالتخلف ، وبتسلط الآخرين ، وبفشل التجارب الإنهاضية)[٣] . ورغم عدم قناعتنا بمصداقية تقييمات عامة من هذا النوع : ترجرج ـ قلق ـ تخلخل ـ انجراح .. إلخ نفسية النزوع ، إلا أننا لا ننكر ظهورها بشكل ما ، وبدرجات متفاوتة هنا وهناك في مجتمعنا .

ولعل ما يقوله باحث أكثر شهرة (ولا نقول أكثر صراحة) هو الدكتور (مصطفى حجازي) في مقدمة كتابه المعروف : (سيكولوجية الإنسان المقهور) ، يعزّز من واقعية الحقيقة التي أشرنا إليها ، وأكّدنا عليها : (يعاش التخلف على المستوى

---

(٣) زيعور ، د . علي : التحليل النفسي للذات العربية « أنماطها السلوكية والأسطورية » ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٨ ـ ص (٧) .

الإنساني ، نمط وجود مميز له ديناميياته النفسية والعقلية والعلائقية النوعية . والإنسان المتخلف ، منذ أن ينشأ تبعاً لبنية اجتماعية معينة ، يصبح قوة فاعلة مؤثرة فيها . فهو يعزّز هذه البنية ويدعم استقرارها ، بمقاومة تغييرها ، نظراً لارتباطها ببنيته النفسية)[٤] .

ومن ثم يقول لاحقاً وموضحاً قوله « ذلك لأن إنسان هذه المجتمعات « مجتمعات العالم الثالث » لم يؤخذ بعين الاعتبار ، عنصراً أساسياً ومحورياً في أي خطة تنموية »[٥] .

فكيف يداوي الداء من كان يعاني أو يشكو منه ؟ أو كيف تتم عندنا ولادة أدب أطفال ، من قبل مَنْ يفتقد الإمكانات الكاملة ؟ أوليس الطفل المخاطَب هنا ، أو المعني في الأدب ، هو مختلف عمن يعيش في الواقع ، على الصعد كافة تقريباً ؟

وكيف يكتب عن الأطفال ، من لم يعش الطفولة (الآمنة) المطمئنة ، والمنفتحة على العالم ، والمسكونة بحب الفضول ؟ إنها طفولة مشوهة كذلك تلك التي يكتب عنها الأديب ، أو ناقصة ، أو مصادرَة عن فعلها الإنساني ، ومن معناها الحقيقي . وهي مغتربة عن ذاتها . ولذلك فإن الكاتب لا يكتب إلاّ عن نفسه . وما أبعده هنا عن نفسه ، مادام لا يعرف نفسه ، لأنه ـ وهو يكتب ما يسميه (أدب الأطفال) ـ لم يبحث عن نفسه ، وعن روحه المشوهة / العاهيَّة[٦] .. وفي وضع كهذا ، يصبح هذا

(٤) حجازي ، د . مصطفى : التخلف الاجتماعي « سيكولوجية الإنسان المقهور » ـ معهد الإنماء العربي ـ بيروت ـ ط٥ ـ ١٩٨٩ ـ ص (٧) .

(٥) المصدر نفسه ـ ص (٨) .

(٦) يستحضرني هنا قول « نيتشه » ذو الدلالة الواضحة : نحن معشر الباحثين عن المعرفة ، لا نعرف أنفسنا ، لأننا نجهل أنفسنا ، وثمة سبب وجيه لذلك ، فنحن لم نبحث عن ذواتنا ، فكيف لنا إذن أن نكتشف أنفسنا بأنفسنا ذات يوم ؟ ـ انظر كتابه (أصل الأخلاق وفصلها) ـ تعريب : حسن قبيسي ـ المؤسسة الجامعية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨١ ـ ص (٩) ـ وكأن قول (سقراط) المدوّي : « اعرف نفسك » لا يزال حاضراً فينا ، ويحثنا على معرفة أنفسنا .. فهل هناك من حاول ذلك .

المسمى بـ (الأدب) إشكالياً إلى أبعد الحدود ، والهدف المرسوم في أثره بدوره إشكالياً ! ومسعانا أولاً التأكيد على حضور ما نسميه بـ (الوهم الكبير) الذي يعيشه الأديب ، أو الكاتب في مجتمعنا ؛ ذلك الذي يدعي أنه يكتب أدباً للأطفال ، وحتى الذي يكتب عن الطفل في مجتمعنا ، من خلال مقدمات ، نعتمدها بعد إثارتها ، وثانياً ، التطرُّق إلى عالم الطفل الذي يتطلب معرفة شمولية به ، ليكون هنا أدب أطفال بالفعل .

أ ـ البحث عن الطفل الغائب :

ثمة مصادر عديدة ، بل كثيرة عربية صرفة ، ومترجمة تخص الطفل ثقافةً وأدباً ، لا إشكال فيها . ولكن تبرز إشكالات عندما ندرس ، أو نتأمل ونتفحص أرضية هذه المصادر ، ودعائمها الثقافية .. فهي في الوقت الذي تلح فيه على ضرورة توفر مناخ اجتماعي وثقافي ونفسي .. إلخ كامل للطفل حتى يصبح ذواقة للأدب ، ويصبح الأدب فاعلاً فيه وذا دور تربوي تنوي في بناء شخصيته ، تتجاهل ما تؤكد عليه ، وتنتقل إلى ما يسمى بـ (الوصائية) على الطفل ، حيث يصبح هذا (متلقياً) بدلاً من أن يكون طرفاً رئيساً في عملية تكوين أدبه ..

في كتاب حديث نسبياً للدكتور (محمد عماد الدين إسماعيل) بعنوان (الأطفال مرآة المجتمع : النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنواته التكوينية) ، يبدأ المؤلف مع كتابه بهذه الكلمات (الأطفال هم بالفعل مرآة المجتمع . ففيهم يستطيع المجتمع ، أي مجتمع ، أن يرى كيف يمكن أن تكون عليه صورته مستقبلاً . فالطفل وإن كان هو ابن الرجل بيولوجياً ، إلا أنه يعتبر أبا الرجل من الناحية السيكولوجية ... إلخ)(٧) .

ما نعتقده هنا ، هو ألاّ وجود لخلافٍ حول قول كهذا . ولكن الإشكال يبرز بصدد هذا القول عندما نتساءل : هل كل مجتمع يتمرأى في أطفاله ؟ وهل هناك من يمتلك الاستعداد في أن يتمرأى في طفله ، ليحدد صورة مستقبله ؟

(٧) إسماعيل ، د . محمد عماد الدين : الأطفال مرآة المجتمع « النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنواته التكوينية » ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ ١٩٨٦ ـ ص (٥) .

إننا غالباً ما نلجأ إلى استخدام تعابير وصفية وقيمية ، متجاهلين البنية المجتمعية التي تضمنا داخلها .

وما يلفت النظر في الكتاب المذكور ، هو تعرضه لشخصية الطفل ، وكيف تنمو ، بالاعتماد على مصادر أجنبية ، ونقّاب وباحثين أجانب ، ينطلقون من رؤى مختلفة ، ومعايير مختلفة ، لاختلاف مجتمعاتهم على الصعد كافة[٨] ..

ولعل اعتماداً كهذا من شأنه توليف نظرة الكاتب نفسها ، وتجيير واقع الطفل في مجتمعنا ، بل الطفل نفسه في ضوء قراءة تلك المصادر . ولكن الكاتب يستدرك لاحقاً ، ليقول ما يجب التركيز عليه منذ البداية ، بخصوص موقع الطفل الاجتماعي : (الواقع أن الملاحِظَ المتأمّلَ في الثقافة العربية يجد أن بُعداً أساسياً من أبعاد التنشئة الاجتماعية للطفل هو تطبيعه على الانصياع لتوقعات الكبار ، سواء أكان ذلك عن طريق التسلط أم عن طريق الرعاية الزائدة)[٩] .

ـ وفي كتاب أكثر حداثة تاريخياً من الأول ، للدكتور (هادي نعمان الهيتي) بعنوان (ثقافة الأطفال) ، وهو يهمنا أكثر في موضوعنا هذا ، فهو غني بالفعل بالمعلومات التي تخص ثقافة الأطفال ، ولكنه لا يخلو من إشكال بدوره . فهو عندما يقول (وتعتبر دراسة الأطفال واحدة من المعالم التي يستدل بها على تبلور الوعي العلمي في المجتمع ، لأن الوعي العلمي الذي يشكل نتيجة لشيوع عمليات التفكير والبحث العلمي يقود إلى تكوين أفكار مرنة وموضوعية ومتكاملة وشاملة عن الإنسان وواقعه ومستقبله)[١٠] .

---

(٨) انظر المصدر نفسه ـ الباب الثاني ـ ص (٢٠١ حتى ٣٠٢) .

(٩) المصدر نفسه ـ ص (٣٣١) .

(١٠) الهيتي ، د . هادي نعمان : ثقافة الأطفال ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ ١٩٨٨ ـ ص (١٥) .

وكسابقه يستعرض مفهوم الثقافة وثقافة الأطفال ، بالاعتماد الأكبر على مصادر أجنبية ، ثم يتعرض لمفهوم أدب الأطفال ، فيراه (مجموعة الإنتاجات الأدبية المقدمة للأطفال ، التي تراعي خصائصهم وحاجاتهم ومستويات نموهم ، أي إنه في معناه العام يشمل كل ما يقدم للأطفال في طفولتهم من مواد تجسد المعاني والأفكار والمشاعر ..)[١١] .

ولعله في قوله الأخير هذا ، يشير إلى المأزق الأدبي الذي يقع فيه الكاتب ، ذاك الذي يكتب ما يعتبره أدب أطفال ، وكونه ما يفترضه يجسد كل ما يمس ويخص الأطفال ، وهو في الحقيقة ليس كذلك . إذ كيف يكتب أحدنا أدباً يسميه أدب أطفال ، وهو لا يعيشه ، أو لم يعشه واقعياً ، قبل أن يصبح لغة مصوَّرةً ، متكيفة مع الواقع المعني ؟

فالكاتب لا يتقمص إلا طفلاً مثالياً ، الطفل الذي يراه على طريقته ، ويتصوره على طريقته ، ويريد بناءه كما يريد ، وهنا يتحول الطفل إلى نسخة مهيكلة ، أو إطار ، هو الذي يعطيه معنى ، بوضع صورة ، من بنات أفكاره وخيالاته داخله ...

ـ ولا يمكن هنا تجاهل كتاب ضخم وغني بمعلوماته هو كتاب الدكتور (عبد الرزاق جعفر) بعنوان (أدب الأطفال) ، يتعرض لمفهوم أدب الأطفال من نواحي مختلفة ، ويثير حقائق تتعلق بكيفية فهم الطفل ، وبنائه أدبياً وقيمياً من خلال الأدب ، فهو يقول (ولكي نعد الطفل للدخول في العالم لا بد من أن نفهم طبيعته ونموه)[١٢] .

ورغم أهمية المعلومات الكبرى التي يوردها ويثيرها في كتابه القيّم علمياً وتاريخياً وتربوياً ، يظل اعتماده على المصادر الأجنبية هو الأساس ، وليس اعتراضنا هنا على

(١١) المصدر نفسه ـ ص (١٥٥) .

(١٢) جعفر ، د . عبد الرزاق : في مصدره المذكور ـ ص (٢٨) .

هذا الإجراء ، إنما على أن الكاتب يثير تساؤلات ، ويطرح أفكاراً ، تظل في حدودها العامة غير بيئية (أي غير متكيفة مع البيئة) ، بل يحاول إقناعنا أن هناك نوعاً من الإلمام والاهتمام تاريخياً بأطفالنا ، دون الأخذ بعين الاعتبار ، أن مفهوم الطفل لم يكن كياناً قائماً بذاته ، حيث كان يُعدُّ عاجزاً ، أو ضعيفاً ، فيجري تدريبه وتقويته بلغة (كبارنا) ، وهذه النظرة موجودة حتى الآن في الواقع العملي ، على أكثر من صعيد ـ كما سنرى ـ فاللغة الوصائية ، حتى في صيغتها الأدبية بأنواعها المختلفة ، هي المعتَمدة هنا ..

ولعل ماذكره الكاتب بقوله أنه (لكي يكون هناك أدب للأطفال لا بد من وجود الطفولة نفسها . وقد كان في أوروبا ، في القرون الوسطى ، كما في العالم القديم ، أطفال)[١٣] .. ولكن بدون طفولة .. وذكره لقول (روسو) المعروف (يبحث أعقل الناس دائماً عن الرجل في الطفولة ، من دون أن يفكر مطلقاً بما كان عليه هذا الرجل قبل أن يصبح رجلاً)[١٤] ، وكذلك (دعوا الطفولة تنضج في الأطفال)[١٥] .. مفيد لنا ، إلا أن التساؤل المشروع بصدد ماتقدم هو : هل ثمةَ طفولة في مجتمعنا ، بكل أبعادها وخصوصياتها ومستوياتها النفسية والعقلية والجسمية والجمالية ، وضمن حدود محروسة أو معلومة ؟

إن ما يُذكر هنا أيضاً ، هو أن الطفل في مجتمعنا ، ليس سوى الموضوع الذي يتحدد بصفة معينة ، أو طابع معين ، من خلال المحمول الذي يكونه الكبار .. فالطفل رغم كل ما كُتِبَ ويُكتَبُ فيه وعنه انطلاقاً من تنوع أشكال التخلف ، المتداولة والمتوارثة هنا وهناك في بلادنا ، بقصد تنميته نحو الأفضل ، هو موضوع الرجل . أو موضوع

(١٣) المصدر نفسه ، ص (٩٤) .

(١٤) المصدر نفسه ـ ص (٩٥) .

(١٥) المصدر نفسه ـ ص (٩٧) .

يحدده الكبار ، على أساس هذا التخلف الذي يتجذر في داخل نفس كل منا ، وعلى أكثر من صعيد ، وبدرجات متفاوتة ..

وعلى الرغم من وجود وتداول واعتماد عشرات النظريات التربوية والأدبية والجمالية المتعلقة بالطفل والطفولة ، فإن الطفل يبقى مغترباً عن طفولته (عندنا) في الواقع ، فالذي يربيه ويوجهه ويؤدبه يفتقر إلى هذه الصفات واقعياً !

- وأخيراً وليس آخراً ، نلفت النظر إلى كتاب (أحمد نجيب) بعنوان (فن الكتابة للأطفال) ، من حيث الأهمية والقيمة ، رغم قدمه تاريخياً (مطبوع عام ١٩٦٩) ، إلا أنه بمعلوماته المكثفة والمعبرة عن مفهوم فن الكتابة للأطفال ، ومتطلباته المختلفة ، وعلاقة الكتابة بالمراحل العمرية للطفل ، واعتماده ، كمدخل للكتاب - على ثلاثة أسئلة أساسية ؛ معرفية وقيمية هي : لمن نكتب ، وماذا نكتب ، وكيف نكتب ، والتطرق إلى بعض الاعتبارات الفنية العامة في القصة والدراما والشعر ... إلخ يشكل مرجعاً لا غنى عنه ، عند الحديث عن أدب الأطفال ، وفن الكتابة للأطفال ، وثقافة الأطفال ..

ولكن ما يثير في الكتاب - وهنا يلتقي بالكتب الأخرى التي ذكرناها كأمثلة - هو اعتماد تصور مسبق ، والاتكاء على مرجعيات ثقافية - غالباً أجنبية - لفهم أو استيعاب طفولة الإنسان العربي ، أو فهم الطفل في مجتمعنا ، يظل الواقع ، رغم إشارته إليه هنا وهناك بعيداً عن مضمون ما يثار ، انطلاقاً من الفضاء المجتمعي والثقافي والنفسي المختلف له ..

ويغلب البعد الإرادي وحتى الوصائي على أسلوب الكتاب ، في تناوله لشخصية الطفل ، وكيف يجب أن تكون هذه الشخصية ، وبنظرة افتخارية . ولعل ما ذكره (مرسي سعد الدين) وهو الذي كان (مدير المكتب الاستشاري لثقافة الأطفال) وقتذاك ، في تقديمه للكتاب ، ما يشير إلى هذا الجانب ويؤكده : (ونحن كأمة ناهضة

نامية عقدت العزم على أن تطوي الزمن لتلحق بركب الحضارة نعرف للطفولة حقها ، وقد آن لنا أن نؤدي هذا الحق في كل مجال من مجالاته بالصورة التي تتيح لأبنائنا قضاء طفولة سعيدة ، بأسلوب صحي سليم يمكّنهم من حمل أعباء المستقبل بقوة وعزيمة وكفاية وإيمان)[١٦] .

فهذا القول افتخاري في الصميم ، بمعنى أنه يخالف الواقع العربي المعاش في عمومه ، وفي مصر بشكل خاص ، كيف لا ، وهو قول يؤرخ كتابياً بعام ١٩٦٩ . أي بعد عامين أو أقل من هزيمة حزيران (١٩٦٧) وهي هزيمة لا يمكن تجاهلها في تأثيراتها ومنغصاتها وعواملها النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية المختلفة ، عند الحديث عن الأطفال أدبياً وثقافياً .. فاللغة المعيارية « ما يجب أن يكون » هي التي تسم معظم ما يُكتب أدباً وثقافة « طفوليين » . ولكن ما يجب أن يكون يشكل تعتيماً على الواقع ، وتشويهاً لحقيقته ، ويجعل الأدب هنا إشكالياً ، بل ومصطنعاً حيث يُتجاهل الواقع المعاش هذا من قبل الطفل ، والهدف المرسوم تربوياً هو نفسه لا يكون صحياً . إن ما يجب أن يكون في إطاره الافتخاري والشعاراتي أو المتصوَّر ذهنياً ، يصبح خطراً على (ما يجب أن يكون) فعلياً ، باعتباره لا ينطلق مما هو كائن أو واقع ، وكيف يستوعب ، ليكون هناك تلاؤم بينهما ..

ومؤلف الكتاب نفسه يشير إلى هذا الجانب ، دون أن يسميه ، ولكن يبقي على التركيز على ما هو معياري ، ونشدان المستقبل بصيغة شعاراتية ، تعكس الوهم الكبير الذي يعيشه (كبارنا) ، وكتّابنا منهم ، بل ربما كانوا في المقدمة ، لأنهم يتجاهلون مثل هذا الواقع ، ومتطلباته السيكولوجية والاجتماعية والاقتصادية ، ليكون قابلاً للتغيير نحو ما هو مرغوب فيه قيمياً بالفعل :

(١٦) نجيب ، أحمد : فن الكتابة للأطفال ـ دار الكاتب ـ مصر ـ ١٩٦٩ ـ تقديم : مرسي سعد الدين ـ ص (٩) .

(والخدمات التي تقدم للطفولة في بلادنا عديدة منوعة ، ولكن لا يربط بينهما تنسيق متكامل ولا تخطيط .. (فأين هي الطفولة السعيدة يا ترى ؟ التعليق من إ. محمود) بيد أن الاتجاهات الحديثة المحمودة التي تولي قطاع الطفولة مزيداً من الاهتمام الواعي والجهد المنظم المدروس ، تبشر بالأمل في بزوغ فجر التخطيط الشامل في هذا القطاع الحيوي الضخم من أمتنا الناهضة .. ذلك التخطيط الشامل الذي يمثل نقطة البداية السليمة والجوهرية للانطلاق نحو الوفاء بالتزاماته التاريخية تجاه الأجيال الصاعدة ...)(١٧) .

ما نعتقده هنا ، وبصدد قول كهذا ، هو أنه قول وصفي ، وإرادوي في الصميم أولاً . ولو أن أيّاً منا حاول التدقيق أو التمعن في صياغته ، وقارنه بالخطاب الإعلامي وغير الإعلامي في المجتمع العربي هنا وهناك ، لما وجدنا فرقاً بذكر ، إلا بالدرجة ، ربما حيث الشعاراتية التي تجسد وضعية البؤس والضعف والقهر الداخلي ، وتعتّم عليه ، لأن إرادة الاعتراف بالنقص غير موجودة ، وهي تفصح عن حقيقة كل من يعيش الخوف ولا يستطيع تخلصاً منه ، لأنه لا يعترف به ، وهو مسكون به ، ومن يعيش العجز المعنوي ، ولا يعلم عنه ، وهو معرَّف به ، ومن يعيش الفقر العلمي والواقعي ، ولا يشير إليه ، وهو نفسه حقيقة مجسَّدة له .. ولعل قولاً كهذا ، يذكرنا بالداعية الاقتصادي الذي يشير إلى التخلف الاقتصادي في بلاده ، ولكنه يستدرك قائلاً : إنه أزمة عابرة ! وهي أزمة بنيوية في الصميم . وبالسياسي الذي يؤكد على أن السياسة لعبة صعبة ، وأنها لم تتقن بعدُ في بلادنا بشكل فعلي . ثم يستدرك قائلاً : ولكن المستقبل يبشر بخير ـ أو مثل من يقول : إننا مهزومون هنا وهناك . ولكننا سننتصر .. هكذا يكون عدم الاعتراف بالعجز والقهر وضعف الإمكانات دليلاً على وجوده ، بل على تأصيله فيمن يثير مثل هذه المواضيع ..

(١٧) المصدر نفسه ـ ص (١٥) .

إن قراءة أوليـة لكتـاب : (لوتُصغون لأطفـالكم) المترجم عن الفرنسيـة ، والمؤلف جماعي ، تكشف عن الإردة الحقيقية ، إرادة البحث عن الخطأ والاعتراف بالخطأ ، حتى يتم استيعابه وتجاوزه . وفي مجتمع متقدم ، على مختلف الصعد ، كالمجتمع الفرنسي ، وكأن لغة الكتاب تقول : هناك خطأ ما ، وربما لم يرتكب بعد ، وقبل أن يُرتكب ، يجد الاستعداد له . أما في مجتمعنا ، فنجد أخطاء تُرتكب ، ومشكلات تربوية وغيرها تتراكم هنا وهناك ، ويجري تصغيرها ، أو حجبها ، وكأنها غير موجودة ..

لاحظوا ماهو مكتوب في مقدمة مدخل الكتاب : (إن مجتمعنا ضلَّ طريقه . إن العالم الثالث يبدو وكأنه فريسة لتوترات متواصلة)[١٨] . وهـذا القول الآخر المعبر عن إرادة الباحث الفعلية عن الحقيقة (إننا السلاح والهدف ـ فهل نحن نزرع لذة الانحطاط أم نشهد انحطاط الثقافة ؟)[١٩] .

إن كتاباً كهذا يخاطبنا نحن ، إذا كان لدينا استعداد لسماع صوت كتاب كهذا ، لنسمع صوت ضمائرنا (إذا كان هناك استعداد داخلي لدينا لسماع صوت ضمائرنا ، وما إذا كانت ضمائرنا نفسها مستعدة لذلك !) ، وبالتالي لنصغي لأطفالنا ، إذا كان لدينا استعداد لذلك . فقبل أن نكتب أدباً للأطفال ، يجب أن نعيشه كحقيقة مجتمعية ، والواقع هو الذي يعلمنا بذلك إذا احتكمنا إليه !

بَ ـ الحلقة المفقودة في أدب الأطفال :

لا يمكن الاتصال بالواقع والتواصل معه ، بسهولة وبشكل مباشر ، على الرغم من أننا نعيشه ويسكننا . مفهوم التواصل هنا نفسي وعقلي .. ولكي يتم التواصل والاتصال لابد من توفر الأرضية الصلبة ، أو الطريق السالكة المؤدية إليه .

(١٨) لو تصغون لأطفالكم ـ تأليف جماعي ـ ترجمة : هيفاء طعمة ـ منشورات وزارة الثقافة السورية ـ ١٩٨١ ـ ص (١١) .

(١٩) المصدر نفسه ـ ص (١٤) .

ما يمكن التحدث عنه والإشارة إليه هنا ، هو أن هناك انقطاعاً بين الواقع (واقعنا) ، وبين ما يكتب عنه أدبياً للأطفال .. الواقع المتمثل في ذهن الكاتب هنا ، والتخيُّلي المختزل ، أو المرسوم والمحدد ، بلا منغصات ، يلائم العقل المريح ، بينما هو في حقيقته إشكالي في الصميم . والكاتب قبل غيره يزيد في إشكاليته ؛ لأنه يقفز عليه ، ويربط المقدمات بالنتائج مباشرة ، دون الاعتماد على ما يُسمى بـ (الحلقة المفقودة : حلقة الوصل) التي تربط الكاتب فعلياً بواقعه .

إن كل الترجمات الأجنبية : (النقدية والفكرية والثقافية والأدبية المختلفة) إلى العربية ، من (جان جاك روسو وسبِنْسر) ، مروراً بـ (غالبرين وجان بياجيه وتشومُسكي) وانتهاءً بـ (جون ديوي وواطسن وتوهلر وفرويد ... إلخ) ، ومن (اندرسون وجريم وتولستوي) إلى (موريس كاريم وآلان جري وجوجينبول ... إلخ) لا تجدي نفعاً ، ما دام المناخ المهيأ لولادة « طفولة » واعية وصحيحة ، لم يتوفر بعدُ في مجتمعنا . وما يزيد الطين بلَّةً ، هو أن ليس هناك من يتحدث عن واقعنا ، إلا ويشير إلى بؤسه ، وإلى تناقضاته ، وازدواجيات السلوك اليومية ، ورغم ذلك تتم المناداة إلى الكتابة للأطفال ، وضرورة الكتابة لهم ، وهذه العملية ـ بهذا المعنى ـ لا تعود تخدم الأطفال على الصعيد التربوي ، بقدر ما تلحقهم بالواقع المخلخل ، وتؤطرهم به .. الكبير منا بعيد عن نفسه ، مغترب عنها برغبته أو دون رغبته . غير متواصل معها . هناك جيل من المعتقدات والتصورات الجماعية السلوكية والعقلية ، متراكم في نفسه يتم توارثها ، يُحكم بها ، ويساعد هو نفسه ، على توريثها .. وبذلك يكون الطفل (طفلنا) الذي يترعرع تحت أنظارنا ، وفي المدرسة ، وفي الشارع ، وغير ذلك من الأمكنة الأخرى : مادة استهلاكية تماماً ، أو (سوقاً) نحشر فيها / فيه « بضاعتنا » التي نريد لها رواجاً ومنفعة لنا ، ووفق مقاييس تناسب أذواقنا .. فالطفل قبل أن يتعلم اللغة ، ويقرأ ما يُفترض أنه يمثله ، يجب أن يتعلم الحركة والمناخ الصحي السليم ، أن يتغذى بها عضوياً ، أن يتحسس بيئة

تهيئته لعملية التربية الصحيحة ، أن يعيش الأمان والشبع النفسي ، قبل أن يتغذى باللغة ، والكبير منا الذي يدّعي الثقافة وموسوعية الرؤية الأدبية أو الكتابية أو التربوية ، عليه أن يتعرف على الطفل القابع / الكامن في أعماقه ، ويحدد نوعه ، ومدى سلامته ، ومن ثَمَّ يحدد علاقة مع الطفل الآخر ، وهو ممتد فيه ومتداخل معه .. ثمة حالة عدم استقرار ، ثمة حالة تقلب ، حالة انغلاق ، نعيشها ، حتى ونحن في أقصى درجات العافية ـ لأن المجتمع الذي يضمنا داخله ، يفاجئنا بتحولاته المفاجئة ، بمخاضاته التي لا تدعنا نمارس تفكيراً أو تصوراً سليماً ..

ونظرتنا إلى الطفل لا تخرج عن هذا الإطار ، وهذا يعني أن عبارة (لوتُصْغون لأطفالكم) لا تجد صدى فعلياً لها في مجتمعنا ، لأن حلقة الوصل غير موجودة ، وإن وجدت فهي ضعيفة . ففي عالم مضطرب ، ومعاش داخلياً ، يصعب وجود إصغاء كهذا ..

وإذا كنا نعلم أنه (من خلال الإصغاء يحتاج الولد أن يشعر باعتباره ، وأن (الإصغاء يعني قبول عالمه وبالتالي قبول الطفل)[٢٠] ، وإن الإنسان ـ الواعي قبل العادي الذي لم يتثقف ثقافة تعرّفه على وضعه ـ في مجتمعنا يشعر باستمرار بحاله لا اعتبارٍ ، (المتنفذ باسم هذه الحالة يمارس المزيد من الضغط والتسلط على الآخرين ، والمقهور « على أكثر من صعيد » باسم هذه الحالة يسعى إلى ممارسة وجوده بأكثر من طريقة ملتوية ، والذي يعيش في ضوء (ضميره) هو في حالة استنفار ؛ لئلا تُهدر إنسانيته ، فهو حذر في حياته) ، فكيف يصغي الكبير إلى الصغير ، وهو من يستحق الإصغاء إليه ؟ وكيف يتواصل الكبير مع عالم الصغير ، وهو نفسه يعيش عالماً مشوهاً ؟

(٢٠) المصدر نفسه ـ ص (٣٨) .

إن الحديث عن الطفولة الضحلة ، أو المشوهة تلك التي عاشها ويعيشها الكبار ، لا بد أن يرتبط بالطفولة الملاحظة التي يُسعى إلى تهذيبها وتنميتها مجتمعياً . فالمربي الذي يريد أن يربي هو نفسه بحاجة إلى تربية ..

إن (مجتمعنا مجتمع الريف ، والزراعة ، والصحراء ، معاً ، وسائل إنتاجه بدوية ، وإنتاجه كيفي ، ودخله قليل أو اكتفائي : يستهلك ويأكل ما لا ينتج أو كل ما ينتج ، قريب من الفقر أو ذو مستويات معيشية (صحية ، تعليمية ، ثقافية ، ترفيهية ، زراعية ، تكنولوجية ، سكنية) تقف عند الحدود اللامعقولة ..)[٢١] .

وهذا يعني أن الحلقة المفقودة ، حلقة الوصل بين الإنسان وواقعه ، بين الكاتب وموضوعه تكون ـ أو غالباً ما تكون ـ لا عقلانية . حيث التعسف يحل محل التروي ، والاستبداد في الرأي محل ﴿ وأمرُهم شورى بينَهُم ﴾ ، وديمقراطية الزعامة محل ديمقراطية الحوار ، والانغلاق على الذات محل الانفتاح على الآخرين ، وأوّلهم الأطفال منهم .. وتتعمَّم مقولة الزعامة في بعدها السياسي التسلّطي ، لتطال الجماعات ، حيث تدار هذه هرمياً (سيِّد أعلى يطاع أمره) . والأفراد هنا وهناك : في البيت والحي والشارع والوظيفة ، ويكون الطفل منهم كبش الفداء . حيث نشهد ـ وبوضوح لا لبس فيه ـ ما سماه أحدهم بـ (فيض السلطة ونقص التطور)[٢٢] .

بل إن ما يخيف أكثر ، ونحن بصدد أدب الأطفال ، وما يتطلبه من شروط رئيسة ، ليكون أدباً بالفعل ، وتكون حلقة الوصل الفعلية موجودة بين الكاتب ، أو الإنسان الذي هو معلم ، ومرشد ، وأب ، ومخطط ... إلخ ، والطفل الذي لا يكون متلقياً ، بل متفاعلاً وفاعلاً في عملية التربية ، وبناء أدب أطفال حقيقي ، ما يخيف هو

---

(٢١) زيعور ، د . علي : في مصدره المذكور ـ ص (٢٠٦) .

(٢٢) التعبير لـ (جان لاكوتير) ـ نقلاً عن (جورج طرابيشي) : الدولة القطرية والنظرية القومية ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٢ ـ ص (٨٦) .

ذلــك التحــول في المعنى ، دون تغيّر المضــون ، وعلى أكثر من صعيــد ، وبشكل أكثر خطورة ، حيث أصبحت البداوة الثقافية ، أو الثقـافـة المشيخيـة ، والأدب المشيخي ، حيث لا إرادة لـدى الطفـل سـوى إرادة الامتثـال لـلأكبر منـه ، وفي كل مـا يقـال لــه ويُطلب منه تنفيذه ، أصبحت هذه للبداوة بداوة (مُمَدْينة) : بـداوة مؤسسـاتيـة ، أو ممأسسة ؛ بداوة أسرية ومدرسية ، وتخطيطيـة ... إلخ ، حيث لا إرادة لـدى الطفل هنا كذلك ، سوى إرادة التماهي مع النموذج المرسوم له . وهكذا تُصبح كل المخططـات ، والخطـوات التي تُرسم للطفـل ، ومـا يقـابلهـا من نمـو جسمي وعقلي ونفسي واجتماعي ، مجرد شعارات مضلّلة !

والبداوة التربوية ، وبشكل أصح (البداوة الْمُتَرْبئة ـ إن جاز التعبير) ، تستحوذ على كامل كيـان الطفل ، وهو في سنواتـه الأولى ، نتيجـة وجوده في مجتـمع استهـلاكي ، وهذا الاستحواذ يبلغ مداه في المـدرسـة . فـالمـدرسـة ليست مجـالاً لتنميـة الإبـداعـات ، ولا لإعداد الطفل لكي يبدع ، وإنّما لـ (تشذيبـه) من كل مـا يخـالف مـاهو سـائـد ، ولتشكيله بصورة معينة ، وهكذا يتم (نقل الأمية إلى داخل المدرسة نفسها ..)[٢٣] .

٣ ـ معايشة أدب الأطفال من الداخل :

قبـل التطرق إلى أدب الأطفـال في بـلادنـا ، والإشكالات التي يعيشهـا مفهـومـاً وهدفاً ، ومن خلال أمثلة ميدانية ، لا بـد من التوقف قليلاً عنـد مـادتين من المواد التي تدرس في معاهد المعلمين ، والتي تمس مباشرة الطفل ، وهما :

أولاً : علم النفس التربوي (سنة أولى ، وسنـة ثـانيـة) ، فهـذه المـادة تلعب دوراً كبيراً ، لفهم وكيفية تعليم الطفل ، وتنمية الذوق الأدبي والجمالي عنـده ، بل التواصل مع عالمه الداخلي ، ككيان قائم بذاته :

(٢٣) للمزيد من المعلومات حول دور المدرسة السلبي في خلق تلاميذ مشوهين في شخصيـاتهم ـ انظر (برهـان غليون) : مجتمع النخبة ـ معهد الإنماء العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ ـ ص (٢٣٨ ـ ٢٥٦) .

فالملفت للنظر في الكتابين ، هو استعراض ما يتعلق بـالجوانب النفسيـة والمعرفيـة المختلفة عند الإنسان ، وخاصة الطفل .. ولكن يبدو كأن ليس هناك علاقة وتـآزر بين ما هو مُستَعرض في الكتابين هذين (علم النفس سنة أولى وسنة ثانية) ، وبين مـا ينص عليه الكتاب الآخر الذي يمس موضوعنا مباشرة (أي كتاب : أدب الأطفال) .

ففي الكتاب الأول (علم النفس : سنـة أولى) هنـاك أكثر من إشـارة واضحـة إلى هامشية علم النفس ، وتخلُّف الدراسـات النفسيـة في الوطن العربي . واستعراض الملامح النفسيـة لإنسـان العـالم الثـالث) من : قهر سيـاسي واجتماعي وطبيعي ، واضطراب منهجيـة التفكير ، وعدم القـدرة على التركيب التحليـل ، وتقييمـات ذاتيـة ، وتراكم المكبوتات ، وأساليب دفاعية سلبية : كالتمسك بالتقاليد والاتكالية[٢٤] .. إلخ .

إضافة إلى ما يذكره مؤلفو الكتاب من صفات مختلفـة تسم جوانب مختلفـة للمجتمع العربي ، وخاصة الطبقة البرجوازية في البلاد العربية ، بـالاستنـاد إلى مراجع عربيـة ، أو بـاحثين عرب ، مثـل (السمات الشخصية لأبنـاء الطبقـة البرجـوازيـة في البـلاد العربية) ، ومنها : الشعور بالنقص إزاء الغريب ، الانتهازية والوصوليـة ـ القسوة مع الفئات الأضعف ـ الخداع والنفاق للأقوى ، عدم الاهتمام بالعلم والثقافة ، الميل للمقامرة والمغامرة[٢٥] ... إلخ .

وفي الكتـاب الثـاني ، يتم التعرض لحيـاة الطفل من الجـوانب كافـةً ، منـذ لحظـة التشكل ، حتى نهـايـة فترة المراهقـة ، وبـالاعتماد على مراجع أجنبيـة . والاعتراض هنـا لا ينصب على هذه المراجع ، إنما على عـدم مراعـاة مـا جـاء فيهـا من معلومـات ، تخص الطفل ، وكيفية تحقيق متضمناتها ، ليكون هناك طفل بكل معنى الكلمة .

---

(٢٤) علم النفس التربوي ـ سنة أولى ـ ص (٢١ ـ ٢٤) .

(٢٥) المصدر نفسه ـ ص (٨٨ ـ ٨٩) .

فعلى سبيل المثال ، يقدم لنا (جان بياجيه) صاحب النظرية البنائية في المعرفة والتعلم فائدة كبيرة لفهم نفسية الطفل ، واحتياجاته المختلفة ، من خلال استعراض مراحل التطور المعرفي عنده ، وهي : المرحلة الحسية الحركية (وتمتد لفترة الثمانية عشر شهراً من حياة الطفل) ، والمرحلة ماقبل الإجرائية (وتمتد من سن ١٨ شهراً إلى سن سبع سنوات) ، ومرحلة العمليات المحسوسة (وتمتد من السابعة إلى الحادية عشرة) ، ومرحلة العمليات المنطقية (وتمتد بين الحادية عشرية والخامسة عشرة تقريباً ...)[٢٦] .

فمثل هذه الآراء والنظريات تعرض لنا هنا وهناك ، دون مراعاة أبعادها التجريبية ، وكيف أن الطفل لا يمكنه أن يعيش هذه المراحل ، إلا إذا عاش في بيئة تهيئه لذلك . أي تتوفر فيها المتطلبات اللازمة ، ليكون في مستوى ما يكتب عنه علمياً .

وبصورة أكثر توضيحاً فإن المراحل النموية التي يمر فيها الطفل ، وهي :

أ ـ مرحلة الواقعية والخيال المحدود بالبيئة (من سن ٣ ـ ٥ سنوات تقريباً) .

ب ـ ومرحلة الخيال الحر (من سن ٥ ـ ٨ سنوات تقريباً) .

جـ ـ ومرحلة المغامرة والبطولة (من سن ٨ ـ ١٢ سنة تقريباً ، وما بعد ذلك) .

د ـ ومرحلة اليقظة الجنسية (من سن ١٢ ـ ١٨ سنة تقريباً ، وما بعد ذلك) .

هـ ـ ومرحلة المثل العليا (من سن ١٨ سنة تقريباً ، وتمتد فيما بعد)[٢٧] .

يجب أن تتم تبيئتها ، حيث إن الطفل لا يسعه ، ولا يمكنه أن يحمل مثل هذه المواصفات ، إذا لم تُوفَّر له الأرضية اللازمة والمناسبة للحركة ، والفضاء الكافي للتفكير والتفتح النفسي ...

---

(٢٦) علم النفس التربوي ـ سنة ثانية ـ ص (١٤٠ ـ ١٤١) .

(٢٧) نجيب ، أحمد : فن الكتابة للأطفال ـ ص (٣٠ ـ ٣٦) .

ثانياً : ـ ولعل نظرة أولية نلقيها على كتاب (أدب الأطفال) المقرر مادةً أساسية ، لطلاب دور المعلمين « نظام السنتين بعد الثانوية » ، وخاصة البداية منه ، تكشف عن هذا التفارق بين ما هو يومي ، ويمكن التعرف عليه علمياً ، وما جاء في هذا الكتاب ، والمكتوب بلغة هي أقرب ما تكون إلى النظر للطفل ، كما يراه الكبير ، ومن وجهة نظره هو حصراً غالباً ، وليس باعتباره طفلاً له عالمه الخاص به ! فما يُكتب أو يشار إليه من معلومات ، تتعلق بخصائص الطفولة ، من الناحية الأدبية ـ يبدو من وجهة نظرنا ـ لا يخص الطفل ، بقدر ما يعني المشرف أو الوصي على الطفل ، والذي يعتقد أنه هكذا ، وفي ضوء ذلك ، ينبغي التعامل معه ، حيث تقرأ :

١ ـ حبه الشديد للتقليد والتمثيل . ٢ ـ حبه للمثالية ، كالبطولة والذكاء الخارق ونجدة الآخرين ، ومن هنا نراه يحب « الخيالي » من الأفعال والأشياء . ٣ ـ سرده لحكايات مختلفة تكشف عن نزعاته واستعداداته . ٤ ـ ولعه بالقصة والتمثيل والغناء[٢٨] ..

وبعيداً عن الإطالة في هذا المجال ـ ومع الكتاب خاصة ـ فإن مثل هذا التصور الذي يتقدم الكتاب ، يكشف عن فكرة مسبقة ، جاهزة في ذهن المرشد للطفل ، أو الذي يشرف على تربيته ، أو يكتب ما يعتبره أدباً يمثله ويعنيه تماماً ..

فتصور (حبه الشديد للتقليد والتمثيل) ، أوضعه في دائرة وصاية الأكبر منه ، فيدفعه هذا ، إلى تقليد ما يرغب فيه هو نفسه لا الطفل . فالطفل في حقيقته لا يقلد ولا يمثل ، إنما يتعلم ، عندما يقوم بحركة ما تبدو لنا تقليداً أو تمثيلاً . إنه يحاول استيعاب الآخرين ، أو البيئة من خلال فعل التقليد والتمثيل ، لا لأنه يتطابق معهم ، ولا لأنه ينفعل في هذه البيئة ، وإنما لأنه يريد الآخرين على صورته ، وكما يعرف هو

(٢٨) أدب الأطفال ـ تأليف جماعي ـ لطلاب دور المعلمين ـ في سورية ـ ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ ـ ص (٦ ـ ٧) .

نفسه ، بحواسه وقواه النفسية التي (تتكلم العالم ـ إن جاز التعبير) بالشكل الذي يعرف هو . ولعل تصور مفهوم التقليد والتمثيل بالصورة التي يتعامل الآخرون (الكبار) بها معه ، يجعل منه تابعاً سلبياً لهم ، حيث يفرضون عليه أشكالاً وحركات ، يطلب منه الظهور بها ، وأداءها .

وكذلك ، فإن ما يقال بخصوص (حبه للمثالية) والأمثلة المتعلقة بها ، ليس دقيقاً ، إن ما يُعتبر مثالياً هنا ، يعبر عن الجانب الاندفاعي فيه ، المجسد لحالة فضولٍ طبيعية فيه ، تترجم رغبته المحمومة في أن يتعرف على كل ما يحيط به ، وينفتح عليه ..

ولعل مثل هذا التصور هو الذي دفع الكبار إلى وضع الطفل ضمن دائرة فعلية ، مسكونة بنشاطات مخطَّط لها ، على الطفل القيام بها ، لتحقيق هذه المثالية المسقطة عليه . إن الطفل هنا هو نفسه موضوع مثالي للكبير ، مشروع منفعل به ، وهكذا هو الوضع بالنسبة للقصة والحكاية والغناء ، فهذه كلها في جوهرها تعبير عن حاجات طبيعية ونفسية ، تترجم الوضع العام للطفل إذ يعيش مثل هذه الحالة . فهو في تذوقه لحكاية معينة ، إنما يعبر عن رغبة في أن يتعرف على محيطه أكثر .. وهنا بوسعنا ذكر ما ركّز عليه الدكتور عبد الرزاق جعفر بخصوص أهمية الحكاية في تعليم الطفل وتربيته ، مفتتحاً مقدمته للكتاب بالكلمات التالية (كان .. يا مكان .. في قديم الزمان .. وسالف العصر والأوان !..)[٢٩] . حيث اعتبرها مدخلاً رئيساً لفهم العالم النفسي للطفل ، وهو في حقيقته ـ كما يبدو ـ يعبر عن نفسه ، لا عن الطفل ، كما في قوله (لعل بدايتي متواضعة اعتورتها فترات من التردد والتلكؤ والتوقف . لكنني أشعر ببعض السعادة لأنني بدأت أستكشف العالم السحري الرائع ، عالم الحكاية ، في نظرات

---

(٢٩) جعفر ، عبد الرزاق : الحكاية الساحرة « دراسة في أدب الأطفال » ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ١٩٨٥ ـ ص (٧) .

أولئك الصغار وهم يتوسلون إلي أو إلى غيري ، طالبين حكاية أو قصة ، لكنني الآن أصبحت أسيراً في هذه المملكة العجيبة)[٣٠] .

فهو هنا لا يترجم العالم النفسي الشعوري والمعرفي للطفل ، بقدر ما يقدم نفسه ، ليستطيع بعد ذلك تأكيد ما يكتبه عن الحكاية الساحرة ، وعبارة (الحكاية الساحرة) نفسها تحمل من المعاني الجانبية والإسقاطات ، ما يجعلها وظيفية ومبرّرة (لتشكيل) طفل على صورته ! إن وجه الخطورة في كلمات مثل : (كان يا ما كان .. في قديم الزمان .. وسالف العصر والأوان) كبير جداً ، لو دقق في بنيته :

١ ـ لعل أهم ما يجب ذكره هنا ، هو أن إجراءً من هذا النوع ، من شأنه خلق ذهنية حكائية ، يكون الماضي مموّلها النفسي والعقلي أو المعرفي ـ فهذه الكلمات لا تشد انتباه الطفل ، بقدر ما تشكل فيه وعياً حكائياً ، يربطه بالماضي سلبياً .٠

٢ ـ وما يجب ذكره هنا أيضاً ، هو أن بناء الوعي بهذا الشكل ، من شأنه جعل مستقبله ماضياً . فالمثل الأعلى هو في الماضي ، حيث يتم التأكيد عليه ، من خلال العبرة التي تتضمنها الحكاية . إنه الماضي الذي يؤطر ذهنه ليس إلا ...

٣ ـ ووجه الخطورة في صياغات من هذا النوع ، هو أن الطفل الذي يعيش طفولة مشوهة ، أو ناقصة ، أو (مرقعة ـ إن جاز التعبير) ، يتم انشداده ، أو شده إلى عالم الحكاية ، وكأنه يعوض عن هذا العالم المشوّه الذي يعيش فيه . فالحكاية لا تثيره جمالياً ، ولا تشحنه بالمتعة النفسية ، بقدر ما تثبت فيه وهماً ، وهم التواصل مع الواقع في سلبيته ، وكأنه ليس كذلك .

٤ ـ ومفهوم الحكاية في طابعه الإلقائي ، يعبر عن طابع مكتبي وصائي . والطفل يقوم بدور المتلقي . وراوي الحكاية هو الموجّه للطفل ، والناقل والفاعل ، أما هو (الطفل) فمنفعل في سماعه للحكاية !

(٣٠) المصدر نفسه ـ ص (١١) .

ولعل استعراضنا لأمثلة ميدانية ، تخص ما يسمى بـ (أدب الأطفال) ، ومناقشتها ، يوضحان لنا ، إلى أي مدى يكون هذا (الأدب) إشكالياً ، وكذلك الهدف ، وإن هذين المفهومين ، يعقّدان الطفل بدلاً من بنائه من الداخل فعلياً . فقبل أن نتحدث عن حقيقة هذا الأدب ، ينبغي أن نعرف في أي بيئة يعيش الطفل الذي يمثله هذا الأدب ؟ والمسألة هنا لا تحتاج إلى ذكر أمثلة ، تؤكد لنا أن حياة الطفل منذ لحظة التلقيح بين الحييوين المنوي الذكري ، والبيضة الأنثوية ، تكون بيئة الجنين غير مستقرة ، انطلاقاً من الوضع غير المستقر للمرأة / الأم نفسها ، فالأم في مجتمعنا كائن مقهور على أكثر من صعيد ، وخاصةً على صعيد إنسانيتها ، وكيفية النظر إليها . وهذا يؤثر سلبياً في نظرتها إلى ذاتها وإلى الآخرين ، وإلى أولادها ، ومعنى وجودها . وعندما يكبر هذا الجنين ، حيث لا يكون نموه طبيعياً ، انطلاقاً من الوضع النفسي والاجتماعي والاقتصادي لأمه ، وعندما يأتي وليداً ، يواجه منذ البداية بمشاكل ضاغطة عليه ، لا يجد مخرجاً منها ، سوى الامتثال لها ، في امتدادها وفضائها الاجتماعي والثقافي والتربوي ... وبقدر ما يكبر ، ينكشف أمامه المزيد مما هو مخفي في المجتمع ، من سلبيات ، تقيد نشاطه ، وتسخره لخدمة أهداف محددة . وبمعنى أدق : تقولب شخصيته . إذ ليس هو الذي يقول : أريد كذا وكيت ، بل من يعتبر نفسه وصياً عليه ، وتحت أسماء ومسميات مختلفة : الأب ، الأم ، المشرف التربوي ، المعلم ، رجل الشارع ... إلخ .

فالطفل الذي لا تُشبع حاجاته ، أو لا تُلَبَّى ، لا يمكنه أن يتوازن داخلياً . إن نقص كل حاجة عضوية أو نفسية يعني مباشرة : تشويه ، أو تقزيم ، أو إعدام ، أو إلغاء بؤرةٍ نشاطيةٍ عضويةٍ ونفسيةٍ فيه ، وتعريضه لضغوطات كثيرة شتى ..

إنّ الجسم الذي يمارس حقه في الوجود من حيث الحركة : رياضة ومشياً ونوماً سليماً وجلوساً وراحة ، والتغذية الجمالية : (إن جاز التعبير) ، من خلال تدريبات

رياضية ، وبتأثير من الموسيقا ، لا يجوز كتابة ما يسمى بـ (الأدب) والذي يعنيه هذا الأدب مباشرة ، في وضعية القهر الجسمي والنفسي .

والعين التي لا تشبع برؤية مناظر مختلفة ، والأذن التي لا تتدرب على سماع موسيقى منذ صغرها ، وبأسلوب تربوي ، متناسب مع حاجاته الجسمية والنفسية ، والأذن التي لا تسمع أصواتاً متنوعة ، يثري (عالمها) السمعي ، واللسان الذي لا يتذوق أطعمة مختلفة ، والجسم الذي لا يتلمس العالم ، في خشونته ومرونته وسخونته ، وبرودته وصلابته وهشاشته ، بشكل تربوي منظم ، والأنف الذي لا يشم روائح مختلفة ... إلخ ، كل ذلك إذا لم يتم ، لا يمكننا أن نتحدث عن الطفل ، بوصفه الكائن المنتظر للمستقبل ، الكائن المعافى . فالعين فيه تألف ما هو مصدِم له ، ومقفر ومحدود جداً ، والأذن فيه تألف ما هو منفّر له ومثير لمشاعره ومؤلم ، واللسان فيه يألف ما هو محدود الطعم ومتكرر ، والأنف فيه يألف ما هو عديم الرائحة أو فقيرها والمثير فيها سلباً ، والجسم فيه يألف ما يضغط عليه ، ويحوله هو نفسه إلى مجالٍ لتنويع الضرب ، أو جعله مستودع رغبات الأهل والمجتمع ، وذاكرة للآخرين ... إلخ . فالطفل هنا مخلوق لغيره : لأهله ، لكي يكون سنداً لهم ، أو للمجتمع ، حيث يكون (قناة) غالباً ، لتصريف حاجاته ، دون أن يكون له اعتبار ..

ولعل ما تورده الكتب المدرسية (كتب القراءة) ، في المرحلة الابتدائية ، من نصوص أدبية : قصص ، وقصائد وغيرها ، يشكل علامة واضحة على هذا الاغتراب اليومي الذي يعيشه الطفل ، وبعده عما تؤكد عليه تلك النصوص من قيم مثلى ، ينبغي بثها وتجسيدها فيه ، حيث يصبح مجالاً لخزنها واستهلاكها لصالح من لا يجسدونها ، كون الواقع الذي يعيشون فيه ، لا يتضمن مثل تلك القيم !

ودون أن نذكر أمثلة من هذه الكتب ، في مختلف الصفوف الابتدائية ، لتوضيح ما ذهبنا إليه ، وأكدنا عليه ، يمكن القول ، إن هذه النصوص الأدبية المتضمّنة في هاتيك

الكتب ، تتناول مواضيع ومشاهد تاريخية وطبيعية واجتماعية متنوعة .. وهي تدعو الطفل إلى ضرورة الاعتناء بنظافة جسمه ، وحب الآخرين ، وحب الوطن ، والدفاع عنه ، وضرورة قول الصدق ومساعدة الآخرين ، وطاعة الوالدين ، واحترام الكبار ، والتعرف على كل ما يحويه وطنه من مواقع أثرية وأماكن جميلة ... إلخ .

ولعل توجهات من هذا النوع تبقى مفيدة ، بل هي أساسية ، لخلق طفل مرتبط بمجتمعه ، يشعر بالغيرة نحوه وعليه .. ولكن وجه الاعتراض ، هو في تجاهل واقع الطفل نفسه ، فهناك نظرة مثالية لا واقعية يوضع فيها ، يصعب إيجاده فيها .

إن الطفل (ابن الريف) قبل غيره ، موجود في بيئات مختلفة ، لكنه مغترب عنها ، لأن ما يمتد أمامه مكانياً ، لا يشده إليه ، انطلاقاً من وضعه الاجتماعي والاقتصادي المتدني . ولأن ما هو مترام أمام عينيه مملوكاً من قبله ، وهو يفتقد إحساس التواصل الوجداني معه لأسباب عائلية خاصة ، واجتماعيةً لذلك حقاً .

والطفل (ابن المدينة) قبل أن يكون ابن مدينة ، هو ابن بيئة ضاغطة عليه ، والمدينة قبل أن تحقق ، أو تلبي بعضاً من حاجاته ، تطالبه بما ليس في استطاعته القيام به : إنها تستهلكه على أكثر من صعيد ، وهي « في صورتها التخطيطية البائسة) ، مجال لظهور ميول عنف وشذوذ سلوكية ، أكثر من كونها فضاءً لخلق الإبداع ، فهي نفسها تعبير عن بؤس الواقع ، وتفكك المجتمع ..

فالأهداف التربوية لا تتمثل في سلوك الطفل ، ما دام واقعه « البؤسي » ، يضاد ما هو مبثوث قيمياً في النصوص التي يقرأها . ومن المؤكد أن الغالبية الساحقة من تلاميذ مدارسنا لم يروو الصحراء ، أو أهم الآثار الموجودة في بلادنا ، أو المدن أو الأنهار ، أو حتى ما هو موجود في بيئتهم من مواقع أو أمكنة لها قيمة تاريخية واقتصادية ، وإن كانوا رأوها ، فهم لا يتواصلون معها ، انطلاقاً من الواقع الذي يعيشون فيه . وإذا أضفنا أن مدارسنا لا تتوفر فيها الإمكانات والوسائل التعليمية

الأساسية اللازمة ، تلك التي تشد التلاميذ إليها : (أجهزة فيديو وتلفاز وغيرها) ، فإن مساحة الاغتراب تكبر .. ولعل وجه المفارقة كامن في متضمنات النصوص الأدبية تلك . فالطفل الذي يوجد فيها : في النص القصص أو الشعري ، طفل لا تنقصه حاجة معينة ، كل ما هو موجود ، وغلا ثمنه ، هو في متناول يديه . ومثل هذا التصور بدلاً من أن يخلق تواصلاً بينه وبين الطفل القارئ ، يخلق تنافراً ، لاختلاف الحالة أو الوضع !

وقبل هذا وذلك ، وخاصة في الواقع الراهن ، نجد الأطفال (أطفالنا) ، وقبل أن يتعرفوا على ألفباء لغتهم ، ينتقلون إلى عالم آخر ، ويعيشون فيه ، هذا العالم الذي يشكل من ناحية ملاذاً (سحرياً) لهم ، وخنقاً لهم من ناحية ثانية ، وهو عالم التلفاز .. فهو بما يتميز به من تقنيات صوتية ولونية ، أقدر مِن كل مَن يتصور أنه بوسعه منافسته ، والتأثير في الطفل ...

وبوسعنا هنا أن نتحدث عن (أدب التلفاز الموجَّه للطفل) ، وما أدراك ما أدب التلفاز ؟!

إنه الأدب الذي يزيد في أوهام الطفل ما يشاء ، ويضعه في عالم جميل خلاَّب ، يحقق فيه كل ما يشتهيه (ولكن وهمياً كما قلنا) ، إن مشاهد العنف والحيل والفردية والمغامرة والفهلوة والصراعات العنيفة ... إلخ ، هي التي تشحن الطفل ، بكل ما من شأنه انتزاعه من عالمه الصغير المقفر الضاغط عليه . ولغة التلفاز بكل ما تحويه من مفردات عنف وخوف وفردية أنانية في الغالب الأعم ، هي التي تستحوذ على لبِّه ، قبل لغة المدرسة (هذا إذا كانت لغة المدرسة نفسها ، لغة يمكن اعتبارها مراعية للنمو النفسي والعقلي والجسمي والاجتماعي للطفل !) ، وتنافس لغة المدرسة ثمئذٍ ، وتبزُّها لاحقاً !

إن القدوة تكمن في (رامبو) و (غراندايزر) و (فارس الفضاء) ... إلخ ومشاهد العنف المتبادلة بين (توم وجيري) بدايةً ! والواقع الضاغط على الطفل نفسه ، وما يسببه له من قهر متتابع ، يضعه في عالم التلفاز هذا ، ويجعله مسكوناً

بمفرداته العنيفة ! وهكذا يصبح الطفل هذا ، متشيعاً للتلفاز ، أكثر من تشيعه لأهله ، ويبحث عن نموذجه فيه ، بدلاً من إيجاده في الواقع .. ففي الحد الأدنى يجد في التلفاز متنفساً ، ولو وهمياً ، حيث يسافر في أصقاعه ، وأمصاره ، ومع أبطاله ، ويتواصل نفسياً معهم . خلاف ما يجري في الواقع ، فهو فيه الكائن بغيره تماماً لا بذاته . وإذا كان يُركَّز على ضرورة طاعته لأبويه ، فإن هذه الطاعة تفرض عليه ، قبل أن تكون علاقة يؤمن بها بنفسه . وإذا كان يطلب منه أن يكون محباً للآخرين ، محترماً للكبار منهم ، فإن حب الآخرين ، واحترام الكبار فيهم ، يكونان قسراً وفرضاً ، قبل أن ينبعا من أعماقه ، وإذا كان حب النظام يُدعى إلى ممارسته من قبله ، فإن ذلك يطلب منه بصيغة أمر . وهو في الواقع بلا اعتبار ..

وهذا يعني أن ما يسمى أدباً ، هو (أدب الأطفال) ليس سوى تأديب للأطفال . ودون اللجوء إلى أمثلة شعرية وقصصية وحكائية ومسرحية ، تُدعى أنها مكتوبة للطفل ، نؤكد على أن واقعاً يعيش تناقضات جمة ، ومن جهات شتى ، والإنسان الذي هو قيمة القيم ، هو في الواقع دون اعتبار يذكر ، لا يمكن أن (ينتج) أدب أطفال حقيقياً .

إن مجتمعاً سلبياً ـ بكل معنى الكلمة ـ يكون الإنسان فيه الأول والأخير من حيث القيمة ، هو الذي من شأنه إيجاد طفولة صحيحة ، وبالتالي أطفال أصحاء ، وفي النهاية كبار قادرين على الإبداع ، وكتابة أدب ، يسمى بالفعل (أدب الأطفال) ؛ لأنهم يكونون قد عاشوا ويعيشون الطفولة الفعلية . وهذا يسمح لنا بالقول في النهاية ، وهو قول حاسم (كما نعتقد) :

أعطني أطفالاً حقيقيين ، أهبْك أدب أطفال حقيقياً !

الفصل السابع

تنشئة الأطفال
ووسائل الاتصال الجماهيري

د. أمل دكاك

مقدمة

أضحى الطفل في عصرنا الحالي يحتل مكاناً كبيراً بين جميع اهتمامات وبرامج مجتمعات العالم المتطور ، وتنشئة الطفل تعتبر أحد العناصر الأساسية للتنمية الشاملة ، لذلك تقاس حضارة أي مجتمع بمدى اهتمام هذا المجتمع بأطفاله ، أي بمستقبله .

ويتميز الهرم العمري لسكان الوطن العربي بارتفاع نسبة الأطفال عمن هم في مراحل عمرية أخرى ، حيث تشكل هذه النسبة (٤٥٪) من تعداد السكان في الوطن العربي .

« ويمثل الأطفال دون الخامسة عشرة ما يقارب (٤٥٪) من إجمالي عدد السكان مع الملاحظة أن معظم التقديرات تتوقع استمرار هذه النسبة في الزيادة خلال العشرية الحالية »[(١)] .

وما يزيد من أهمية قضية تنشئة الطفل العربي أن عدد الأطفال يناهز اليوم أكثر من تسعين مليون نسمة سيحملون على عاتقهم مستقبل الأمة ، لذلك فإن إعداد الطفولة وتنميتها ورعايتها يعتبر العامل الأساسي في التنمية الشاملة ، ولأن الرعاية السليمة للطفولة تمثل المستقبل لأية أمة ، فلا بد من الاستجابة لاحتياجات الطفل الأساسية والتخطيط العلمي وتوفير الموارد البشرية والمادية اللازمة لتنشئة الطفل ، التنشئة الصحية والعلمية والثقافية والاجتماعية .

إن التنمية بمظاهرها المتعددة الجوانب (الاقتصادية ـ الثقافية ـ الاجتماعية ـ الإنسانية) لابد أن ترتكز على إعلام واعٍ من أجل تحقيق أهدافها « ولكي تكون هناك

(١) المجلس العربي للطفولة والتنمية ـ واقع الطفل في الوطن العربي ، ص ١٤٣ ـ ١٩٩٠ م .

تنمية حقيقية يجب أن يسبقها إعلام يحدد أسسها ويشرح مسيرتها ويوضح انعكاساتها وإلا فستظل تنمية ناقصة لا تستطيع أن تستقطب العوامل المحركة لها »[٢] .

١ ـ مفهوم الطفولة :

الطفولة هي « المرحلة التي يمر بها الكائن البشري من الميلاد إلى سن الثانية عشرة تقريباً ، تتميز مرحلة الطفولة بأنا تتسم بالمرونة والقابلية ، وهي مرحلة للتربية والتعليم ، وفيها يكتسب الطفل العادات والمهارات والاتجاهات العقلية والاجتماعية والحسّيّة »[٣] .

وهي مرحلة من مراحل حياة الإنسان ، تتميز بالاعتماد على الآخرين في تأمين الحياة « كما تتسم بالقابلية للنمو والارتقاء ، فالطفل يولد وهو مزود باستعدادات وإمكانات هائلة عليه أن يتكيف مع هذا المحيط الخارجي بواسطة الآخرين »[٤] .

فالطفولة إذن هي مرحلة من مراحل تطور حياة الإنسان ، يتحول خلالها الفرد من كائن عضوي إلى كائن اجتماعي ، ليستطيع التكيُّف مع الحياة الاجتماعية ، يحدث ذلك نتيجة سلسلة متكاملة من التغيرات التطورية تحدث في نظام معين ، وفي تتابع زمني خاص .

ولا بد من الإشارة إلى أن حياة الإنسان عبارة عن حلقات متصلة متداخلة ، وأن النمو عملية مستمرة ، ولا تقسم الحياة إلى مراحل إلا لتبسيط الدراسة ، لهذا يصعب تمييز نهاية كل مرحلة عن بداية المرحلة التي تليها « كما أن لكل مرحلة سماتها الخاصة بها ، وتتأثر بما سبقها من مراحل ، كما تؤثر فيما بعدها من مراحل أخرى »[٥] .

(٢) ندوة الإعلام من أجل التنمية في الوطن العربي ، الرياض ، ١٩٨٤ م .

(٣) أسس الصحة النفسية ، عبد العزيز القوصي ، ص ١٠٣ ، النهضة العربية ، القاهرة .

(٤) علم النفس التربوي ، أحمد زكي صالح ، ص ١٠٩ ، النهضة المصرية ، ط ٩ ، القاهرة .

(٥) م س أحمد زكي صالح ، ص ٧٩ .

« تحدد كل مرحلة بمظاهر خاصة في النمو ، يتناول أطراً متعددة : جسمية ـ فيزيولوجية ـ عقلية ـ انفعالية ـ اجتماعية ، تتميز بنوع من الاستقلال الذاتي ، رغم أن كلاًّ منها يعتبر أحد مكونات الكل العام الذي يُسمَّى بالشخصية »(٦) .

نستنتج من هذا أن سلوك الراشد هو حصيلة نمو كلي خضع له منذ لحظة تكوينه « كما أن معرفة تكوين الطفل ووظائف هذا التكوين تعتبر نقطة الانطلاق والدعامة الأولى التي تؤثر في سلوك الراشد وبالتالي في توجيه الحياة الإنسانية »(٧) .

لهذا فإن مرحلة الطفولة تمثل الأساس الذي يعتمد عليه كل ما يتلوها من مراحل النمو في المستقبل ، « ففيها يتم إرساء الأساس الذي يقوم عليه بنيان شخصية الطفل وما يتضمنه هذا البنيان من قيم واتجاهات تحدد نوعية وطريقة سلوكه في مستقبل حياته ، وبالتالي مدى صلاحيته بصفته مواطن في مجتمع معين . إذ لا يكتفي بالشعور بالاعتزاز بالانتماء لوطنه وإنما يتميز بالفهم الواعي لما يجري في عصره من أحداث وما يسوده من اتجاهات ، يمكنه من الإسهام الفعَّال في بحث ومعالجة ما يعوق تقدم مجتمعه من مشكلات »(٨) .

لقد اعتمد علماء النفس على أسس متنوعة مختلفة لتقسيم الطفولة إلى مراحل ، ذلك لعدم وجود مقياس خارجي موضوعي يتفقون عليه ، وقد انطلق كل منهم من مجموعة من الاقتراحات والمُسَلَّمات التي تدعمها بعض المعطيات السيكولوجية ، أو بعض الاعتبارات العلمية ، فمنهم من اعتمد الأساس الغدي العضوي :

« يقسم المهتمون بهذه المظاهر العضوية حياة الفرد إلى طفولة ومراهقة ورشد

(٦) سين وجيم عن علم النفس التطوري ، طلعت همام ، ص ١٧ ، مؤسسة الرسالة ، دار عمار .
(٧) م‌س أحمد زكي صالح ، ص ٨٢ .
(٨) تثقيف الطفل ، فلسفته ، أهدافه ، مصادره ، فاروق عبد الحميد اللقاني ، ص ٢٦ ، منشأة الإسكندرية .

وشيخوخة ، كما يقسمون الطفولة مرحلتين أساسيتين : مرحلة ماقبل الميلاد ، ومرحلة مابعد الميلاد ، وتتعاقب أطوار الحياة في عدة مراحل .

واعتمد آخرون على الأساس التربوي « حث يقسم المهتمون بالتربية دورة النمو إلى مراحل تعليمية تساير النظم المدرسية القائمة »[٩] .

أما الذين اعتمدوا الأساس الاجتماعي لمراحل النمو فيقسمون الطفولة على أساس تطور علاقات الطفل ببيئته المحيطة التي تتناسب إلى حد كبير وعمر الطفل ، كما أنهم يرون أن هذه الدائرة الاجتماعية تبدو في لعب الأطفال ، لذلك يقسمون الطفولة إلى مراحل تخضع في جوهرها لتطور اللعب النفسي والاجتماعي .

أما مدرسة التحليل النفسي فتعتمد في تقسيمها على النمو الداخلي للشخصية ، وتميز هذه المدرسة بين ثلاث مراحل مختلفة من حياة الطفل .

إن اختلاف الأسس التي تبنى عليها مراحل النمو تختلف باختلاف الباحث وميدانه ، إلا أن التقسيم الذي يبدو قريباً من الواقع هو التقسيم الذي اعتمده بعض العلماء في مصر ومنهم الدكتور المرحوم أحمد زكي صالح في كتابه (علم النفس التربوي) .

يحدد هذا التقسيم مرحلة الطفولة بالفقرة المحصورة بين الميلاد وسن الثانية عشرة ، وتقسم إلى ثلاث مراحل تتميز كل منها بسمات وخصائص معينة هي التالية :

« ١ ـ مرحلة المهد : تقع من الميلاد وحتى نهاية السنة الثانية من العمر .

٢ ـ مرحلة الطفولة المبكرة : تشمل الفترة الواقعة من سن الثالثة حتى نهاية السن الخامسة (وهي الفترة التي تشارك فيها دور الحضانة في رعاية الطفل) .

---

(٩) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة ، فؤاد البهي السيد ، ص ٧٩ ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

٣ ـ مرحلة الطفولة المتأخرة : وتضم الفترة الواقعة من السادسة حتى سن الثانية عشرة ، وهي الفترة التي تتميز بدخول الطفل أول مراحل السلم التعليمي (المرحلة الابتدائية) »[١٠] .

٢ ـ مفهوم عملية التنشئة :

إن أية بداية لبناء المجتمع تبدأ من الطفولة وتتطور مع تطورها وتنمو وتتقدم بتقدمها ، والطفولة تستند من البداية إلى عملية التنشئة الاجتماعية التي تعتبر أبرز عامل في البناء وفي تحقيق التقدم ، ولن تتحقق أغراضها إلا بإعداد الإنسان إعداداً كافياً ليكون مبدعاً ومفكراً وقادراً على مواجهة تحديات العصر ، لذلك لا بد من توظيف طاقات المجتمع في عملية تنشئة الأطفال وإعدادهم وهذه مهمة كبيرة تواجه المجتمع العربي .

والتنشئة موجودة مع وجود المجتمع البشري ولا تنفصل عنه ، وهي لا تتم إلا في وسط اجتماعي وبالتالي فهي نتاج تفاعل الطفل والمجتمع ضمن الشروط الموضوعية ، لذلك فهي ترتبط بنظام المجتمع وتاريخه وثقافته ومدى تقدمه العلمي وتركيب العائلة وتوزيع السلطة في المجتمع ودرجة الوعي العام ، وكل تغيير في تلك الأطر يؤدي إلى تغيير في أسلوب التنشئة .

تبدأ عملية التنشئة منذ ولادة الطفل ، وتستمر خلال جميع مراحل حياته إلا أنها تتم بشكل مكثف في سنوات العمر الأولى يستند هذا على أساس أن الطفل يولد خصب الاستعداد للتفاعل مع كل خبرة يتعرض لها .

تقوم عملية التنشئة على أساس التفاعل ، وأول تفاعل يعيشه الطفل مع والديه ثم ينتقل إلى التفاعل مع المجتمع الأوسع من خلال مؤسساته ، المدرسة ـ الأصدقاء ـ وسائل الاتصال ـ النوادي ، وغيرها ، ويكتسب خلال المراحل المبكرة من حياته أساليب

---

(١٠) أ ز صالح ، م س ، ص ١٤٠ .

السلوك التي تتصل بوظائفه الجسدية وحاجاته العضوية ، ويتوصل عن طريق تجربته الحسية الحركية مع العالم المحيط إلى تنمية أساليب السلوك التي بواسطتها يستطيع التكيف مع البيئة المحيطة ويستمر في اكتسابه السلوك حتى تتكون معاييره وميوله واتجاهاته وعاداته وأدواره الاجتماعية .

والتنشئة في المحصلة هي مجموع العمليات التي تنمو خلالها شخصية الطفل ويكتسب في النهاية الصفة الاجتماعية والإنسانية ويصبح بموجبها راشداً يسهم في نشاط المجتمع الذي ينتمي إليه ويتمثل مطالبه ويعمل بالتالي على تطويره .

إن ما ينتقل إلى الطفل خلال عملية التنشئة يرتبط بأساليب نقله ، وهي التي تعكس أساليب السلطة في المجتمع وفي مؤسساته ، فتنقل أساليب التنشئة القائمة مضامين فكرية وتربوية مختلفة .

ويعكس هذا التباين في أساليب التنشئة تفاوت مكانة الطفل من مجتمع إلى آخر ، والتي تنعكس بدورها قوى داخلية شخصية يكتسبها الطفل أثناء نموه وتشكل نمطاً معيناً من الشخصية يختلف عن نمط شخصية أخرى في ثقافة مجتمع آخر .

وتشكل الأسرة والمدرسة والمعلم والأنشطة المدرسية والأصدقاء ومنظمات الطفولة ووسائل الاتصال الجماهيري الأُطر التي من خلالها تتم تنشئة الطفل .

وتشكل وسائل الاتصال الجماهيري بحكم طبيعتها وبحكم تفاعل الإنسان معها أداة من أدوات التنشئة ؛ نظراً لانتشارها الواسع وتأثيرها على سلوك الأطفال .

ففي المجال الاجتماعي تلعب وسائل الاتصال دوراً كبيراً في تربية الطفل ، وتعمل على تعميق القيم الصالحة ، وتكريس التراث ، وحل المشاكل الاجتماعية ، إلى جانب هدم الأنماط والنماذج والعادات الاجتماعية غير المقبولة .

وفي المجال العلمي يستطيع الطفل من خلال وسائل الاتصال الجماهيري أن يتعرف على منجزات التقدم وعلى الكون المحيط به ، وأن يستفيد من أحدث المعلومات العلمية ، وكذلك تساعده على غرس التفكير العلمي .

وفي المجال الإنساني يتعرف على العالم ويتفاعل مع الأحداث التي تجري في مناطق لا يعرفها إلا من خلال وسائل الاتصال ، وفي المجال القومي يتعرف على الوطن العربي ، فينمو الوعي القومي من خلال تعرفه على وطنه الكبير وعلى تاريخ أمته .

٣ ـ وسائل الاتصال الجماهيري :

« هي الأدوات التي تنقل بواسطتها الرسالة إلى أعداد كبيرة من الأفراد المنتشرين في أماكن متفرقة قد تكون الوسيلة إما سمعية أو بصرية أو سمعية بصرية معاً وتختلف كل وسيلة عن الأخرى في نوع الجمهور الذي تنقل به وفي نوع الرسالة التي تحملها وفي نوع التأثيرات التي تتركها »[١١] .

وتلعب هذه الوسائل دوراً لا يقل أهمية عن دور الأسرة أو المدرسة في عملية التنشئة الاجتماعية السياسية ، العقلية ، الثقافية ، فالصحف والمذياع والسينما والمسرح والتلفاز وغيرها من وسائل الاتصال تدعم الاتجاهات والقيم وفي الوقت ذاته تنقل المعلومات الثقافية وتشرح التقدم العلمي الحاصل في العالم .

٤ ـ وسائل الاتصال الجماهيري والطفولة :

الطفل ذلك الإنسان الذي يحتاج إلى بناء فكره ، ومن ضمن حاجاته وحقه : الحق في التثقيف والتربية وهذا ما نصت عليه حقوق الإنسان . وتنص المادة /٣٨/ من ميثاق حقوق الطفل العربي على دعوة وسائل الاتصال المختلفة لتخصيص جانب كبير من جهدها لخدمة قضايا الطفولة من خلال برامجها المختصة .

---

(١١) دور التلفزيون في تنشئة الأطفال ، أمل دكاك ، ص ٢٤ ، ١٩٩١ ، دمشق .

وجاء في المادة /١٧/ من اتفاقية حقوق الطفل ما يلي :

« تعترف الدول الأطراف بالوظيفة الهامة التي تؤديها وسائط الإعلام وتضمن إمكانية حصول الطفل على المعلومات والمواد من شتى المصادر الوطنية والدولية ، وبخاصة تلك التي تستهدف تعزيز رفاهيته الاجتماعية والروحية والمعنوية وصحته الجسدية والعقلية ، وتحقيقاً لهذه الغاية تقوم الدول الأطراف بما يلي :

١ ـ تشجيع وسائط الإعلام على نشر المعلومات والمواد ذات المنفعة الاجتماعية والثقافية للطفل وفقاً لروح المادة (٢٩) :

ب / تشجيع التعاون الدولي في إنتاج وتبادل ونشر هذه المعلومات والمواد من شتى المصادر الثقافية والوطنية والدولية .

ج ـ تشجيع إنتاج كتب الأطفال ونشرها .

د : تشجيع وسائط الإعلام على إيلاء عناية خاصة للاحتياجات اللغوية للطفل الذي ينتمي إلى مجموعة من مجموعات الأقليات أو إلى السكان الأصليين .

هـ : تشجيع وضع مبادئ توجيهية ملائمة لوقاية الطفل من المعلومات والمواد التي تضر بصالحه مع وضع أحكام المادتين ١٣ و ١٨ في الاعتبار »[(١٢)] .

وجاء في المادة /٢٩/ :

« ١ ـ توافق الدول الأطراف على أن يكون تعليم الطفل موجهاً نحو :

أ : تنمية شخصية الطفل ومواهبه وقدراته العقلية والبدنية إلى أقصى إمكاناتها .

ب : تنمية احترام حقوق الإنسان والحريات والمبادئ المنصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة .

---

(١٢) كتيب الأطفال أولاً : يونيسيف ـ منظمة الأمم المتحدة ، دمشق ، ١٩٩١ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

ج : تنمية احترام ذوي الطفل وهويته الثقافية ولغته وقيمه الخاصة ، والقيم الوطنية للبلد الذي يعيش فيه الطفل والبلد الذي نشأ فيه في الأصل ، والحضارات المختلفة عن حضارته .

د : إعداد الطفل لحياة تستشعر المسؤولية في مجتمع حر ، بروح من التفاهم والسلم والتسامح والمساواة بين الجنسين والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات الاثنية الوطنية والدينية والأشخاص الذين ينتمون إلى السكان الأصليين »[١٣] .

فماذا تقدم وسائل الاتصال الجماهيري في الوطن العربي إلى الأطفال من أجل تنشئتهم تنشئة اجتماعية ، وعلمية ، ثقافية سليمة ، ومساعدتهم على الارتقاء والتقدم ؟

يرى رجال الاتصال أننا نعيش الآن في سنوات الثورة الإعلامية الثالثة ، سنوات السينما والإذاعة والتلفزيون ، حدثت الثورة الأولى بظهور المطبعة والثانية بظهور وكالات الأنباء ، وتتميز الثورة الثالثة بأنها أتاحت للجمهور فرص اختيار هائلة بين الاستماع أو القراءة أو المشاهدة ولم تكن هذه الفرص متوفرة بهذا القدر من قبل ، ومن علامات الثورة الإعلامية الثالثة أن وسائل الاتصال احتلت مكان الوالدين والمدرسين في نقل العلم والمعرفة إلى الأفراد ، فأصبح معظم التعليم يتم خارج الفصل المدرسي ، وأصبحت الكمية الكبيرة من المعلومات التي تنقلها الصحف والمجلات والأفلام والإذاعة والتلفزيون في أيامنا هذه تفوق بكثير كمية المعلومات التي ينقلها مدرس الصّف .

واتضح للعلماء أن هناك جوانب من السلوك الإنساني تؤثر فيها وسائل الاتصال وبظهور تأثير وسائل الاتصال في عصرنا الحديث ساد الاقتناع بين الباحثين والمربين والسياسيين ورجال الإعلام والأعمال بأن وسائل الاتصال تؤثر في كل جانب من جوانب السلوك ؛ كالسلوك السياسي والسلوك الاجتماعي وسلوك المستهلك والصحة

(١٣) الأطفال أولاً : م ص ، ص ١٨٣ .

والتعليم والمعارف المهنية ، وباختصار أصبحت وسائل الاتصال لها الدور حتى في تكوين الصور الذهنية عن الأفراد وعن الدول والمواقف والأحداث ، بل يمكن القول : إنها تؤثر في الطريقة التي يدرك بها الناس الأمور والطريقة التي يفكرون بها وفي سلوكهم نحو عالمهم الذي يعيشون فيه ، إن الحديث يطول حول ماهية وسائل الاتصال وحول تأثيراتها المتعددة ، فهي من الأدوات الفعالة في تأثيرها نظراً للخصائص المتميزة التي تنفرد بها كل وسيلة من الوسائل من صحافة - إذاعة - مسرح - تلفزيون ، وغيرها . وهناك نوعان من التأثيرات تحدثها وسائل الاتصال :

١ - التأثير المتعاصر ويحدث للأفراد وهم في مرحلة البلوغ والنضج أي بعد عبورهم مرحلة الطفولة .

٢ - التأثير النمائي وهو الذي يهتم بدراسة أثر وسائل الإعلام في سلوك الأطفال خلال مراحل نموهم منذ الطفولة وحتى البلوغ[١٤] .

ومن هنا فإن وسائل الاتصال الجماهيري تستطيع من خلال ما تقدمه من مضامين هادفة وبأساليب مناسبة أن تؤثر في وعي الأطفال كما تؤثر المؤسسات الأخرى المعنية بالتنشئة إنْ لم تتفوق عليها وتؤدي بذلك دوراً إيجابياً في تنشئتهم . ومما يزيد من فعالية تلك الوسائل انتشارها الواسع والوقت المتزايد الذي يكرسه الأطفال لها ، فالطفل يبدأ بالتعرض لبعضها مثلاً « التلفزيون » منذ سن مبكرة ، ويستمر في ذلك مدى حياته .

٥ - وظائف الاتصال الجماهيري :

يمكن حصر ما تحققه وسائل الاتصال في مجال تنشئة الأطفال في الوظائف التالية :

---

(١٤) وسائل الإعلام وأثرها في شخصية الفرد ، مصطفى أحمد تركي ، ص ٩٨ ، عالم الفكر ، المجلد الرابع .

أ ـ الوظيفة الإعلامية :

إن المعلومات العلمية التي تنقل للطفل عبر هذه الوسائل تساعده على إدراك العالم واستخدام قوى الطبيعة لصالح المجتمع والاستفادة من الاكتشافات العلمية لتلبية حاجاته ، كما أن المعلومات الثقافية وأخبار الآخرين تزيد من فرص التعارف الاجتماعي ، كما تعتبر هذه الوسائل أدوات مساعدة لتوحيد المفاهيم وذلك من خلال الرصيد المشترك من المعرفة الذي تهيؤه للمجتمع .

ب ـ الوظيفة التثقيفية :

إن المعرفة الإنسانية التي تنقل من خلال وسائل الاتصال تعمل على إغناء بُنى الطفل العقلية وتوسيع آفاقه المعرفية وتربطها بمختلف المنجزات العلمية ، وهذا من شأنه أن ينمي تفكير الطفل العلمي الذي يساعده مستقبلاً على مواجهة الحياة والتغلب على مشاكلها ، ويزوده بالمعلومات والحقائق التي تشبع حاجاته وتنمي ثروته اللغوية وقدرته التعبيرية ، كما أن وسائل الاتصال تعتبر وسيلة هامة لتكوين اتجاهات الطفل وترسيخ قيم وعادات تهيؤه للقيام بدوره والاشتراك في تقدم المجتمع ، وذلك من خلال الرصيد المشترك من المعرفة الاجتماعية الذي تقدمه ويتأثر به كافة أفراد المجتمع وأطفاله ، ويتيح لهم مجال المشاركة الإيجابية في الحياة العامة وشؤونها كما تستطيع من خلال المعلومات والأخبار التي تنقلها عن أطفال العالم أن تقرب المسافات النفسية فترسخ بذلك أسس الاتصال الموضوعي السليم ، يضاف إلى ذلك أنه بإمكان وسائل الاتصال أن تنقل للطفل نظاماً للتعلم الأخلاقي من خلال تصرفات شخصيات مضامينها وتنمي ذوقه الجمالي وعواطفه من خلال ماتعرضه .

ج ـ الوظيفة الترفيهية :

يمكن لوسائل الاتصال من خلال ماتقدمه من مواد ترفيهية هادفة أن تخفف عن الطفل ما يعانيه من توترات واضطرابات نفسية ناجمة عن إحباطات طموحاته الخيالية

وما يفرزه عصرنا من مشكلات ، فيجد الطفل في تلك المضامين ملاذاً رحباً يحقق به أحلامه وما يجول بخاطره .

إن وسائل الاتصال من خلال ما تقدم تلعب دوراً مؤثراً في تشكيل شخصية الطفل واتجاهاته وتحديد مواقفه نتيجة لما تتمتع به من قدرة ، على التفسير والإقناع والإيضاح ونقل المعلومات وشرحها .

ورغم أن وسائل الاتصال تبقى الوسيلة المثلى التي يمكن استعمالها على تلك الأصعدة إلاّ أن ذلك يتطلب معرفة طبيعة السلبيات الخطيرة التي تقع فيها ولا سيا التلفزيون فهي سلاح ذو حدين ، قد تساعد الطفل على تكوين مقومات شخصيته تكويناً متكاملاً اجتماعياً ونفسياً وخلقياً وسياسياً وعلمياً ، إذ ما أحسِن استعمالها ، وقد تكون على عكس ذلك وتترك آثاراً سلبيةً في شخصيته .

يطول الحديث حول ماهية وسائل الاتصال الجماهيري ووظائفها وتأثيراتها وما يهمنا أن هذه الأدوات الفعالة (صحافة ـ إذاعة ـ مسرح ـ تلفزيون ـ سينما ـ وغيرها) ، قد دخلت في صلب عملية التنشئة ، وسيتم الحديث في هذه الدراسة حول التلفزيون بوصفه وسيلةً من وسائل الاتصالْ الجماهيري .

٦ ـ التلفزيون :

يعدُّ التلفزيون أخطر تقنيات العصر الحالي ، « فلم يمض إلا سنوات قليلة حتى أصبح أداة فعالة من أدوات الاتصال ، فعن طريقه يمكن نقل الصوت والصورة والحركة واللون إلى المشاهدين ، فضلاً عن ذلك فهو وسيلة اقتصادية في الاتصال بالجماهير ، ولذلك يستخدم بنجاح في إحداث كثير من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية »[(١٥)] .

(١٥) الآثار النفسية والاجتماعي للتلفزيون العربي ، عبد الرحمن عيسوي ، ص ١٧٠ ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة .

وقد استطاع التلفزيون بما لديه من إمكانيات هائلة السيطرة على تفكير البيئات الاجتماعية ، بصورة عامة على الأوساط الشعبية وعلى النشئ والجيل الجديد ، وقد شملت هذه السيطرة جميع مواطن الاهتمام سواء كانت سياسية أم اجتماعية أم ثقافية أم اقتصادية ، وذلك بما يملكه من خصائص مميزة مثل الجاذبية الفورية ، الواقعية ، الوضوح .

وقد بدأت في الوطن العربي قدرة التلفزيون على استحواذ عقول الأطفال وخيالهم تتعاظم بوتيرة عالية ، فقد بينت نتائج بحث أجرته الجامعة الأميركية في القاهرة :

« أن الطفل يقضي في المتوسط /٣٣/ ساعة أمام التلفزيون أسبوعياً ، وهذا الوقت يزيد عن الوقت الذي يقضيه في اللعب أو المدرسة بل مع والديه أو في مذاكرة دروسه بالمنزل ، كما تبين أن متوسط عدد ساعات مشاهدة الأسرة للتلفزيون يومياً هو ست ساعات ، ومن المتوقع أن تزيد هذه النسبة مع الانتشار السريع لأجهزة الفيديو في المنزل والنوادي والمقاهي الشعبية ، وهذا يعني مزيداً من وقت أفراد الأسرة لحساب التلفزيون وعلى حساب وقت الدراسة والراحة والعمل أو الإنتاج »[(١٦)] .

وأفضل تعليق على الوقت الذي يقضيه الأطفال أمام جهاز التلفزيون ذلك التعليق الذي قاله أحد الباحثين : « عندما يحين وقت دخول الطفل الحضانة يكون قد مضّى فعلاً ساعات كثيرة يتعلم عن العالم أمام جهاز التلفزيون أكثر مما سيقضي في قاعة المحاضرات بالكلية للحصول على الشهادة الجامعية أو درجة الماجستير »[(١٧)] .

إن هذا الانتشار في مدى المشاهدة عند الأطفال وهذه الصلة الوثيقة التي تمتد بين الأطفال والتلفزيون ليسا بالضرورة ناجمين عن مضامين البرامج التي تنقلها الشاشة إلى

---

(١٦) التلفزيون والمهمة الصعبة ، حسن الإبراهيم ، تقرير فصلي للجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية ، ص ٥ ، العدد الرابع ، الكويت .

(١٧) تركي ، م س ، ص ١٠٥ .

الأطفال ، وإن كان لهذه المضامين دورها في عملية استمرار المشاهدة والتحريض عليها تشويقاً وترغيباً ، وتبعاً لتقدم الطفل في مراحل نموه ، بيد أن لمشاهدة التلفزيون من الناحية التلقائية والعفوية أسباباً عديدة لعل من أهمها : وجوده وقربه وكونه في متناول الطفل مما لا يقتضي منه أي جهد يذكر في تشغيله ، ولا ريب في أن سهولة التعرض إلى التلفزيون عامل فعال في إحكام الصلة بينه وبين الطفل ، فضلاً عن المكونات النفسية والفيزيولوجية التي تستجيب لدى الطفل لمنعكسات ورود الحركة واللون والصورة .

إن اهتمام الأطفال بالتلفزيون يجعله من أهم وسائل الاتصال تأثيراً في سلوكهم وتنشئتهم ، وفي هذا المجال يؤكد خبير اليونسيف لبيب عثمان فراج على أن التلفزيون « أصبح المربي الأول للطفل لا البيت ولا المدرسة أصبح لهما السيطرة التقليدية في عملية التنشئة بعد أن حلَّ الضيف الجديد مكانهما »(١٨) .

ومن الثابت علمياً : أن المادة التي تثير اهتمام الطفل ، هي تلك التي تضرب وَتَراً حسّاساً لديه ، أو هي التي تجعله يستجيب لها تلقائياً وينفعل معها عفوياً ، وذلك لأن مثل هذه المادة المثيرة للاهتمام والانتباه ، إما أن تسد حاجة من حاجاته النفسية أو تحمل إليه شيئاً من المعلومات أو تقدم له مخرجاً من التوتر النفسي الذي هو فيه .

لا شك أن المدة الطويلة التي يقضيها الطفل أمام التلفزيون تؤكد على دوره الفعال في حياة الأطفال ، حيث يؤدي إلى جانب الأسرة والمدرسة ويتفاعل معهما دوراً رئيسياً في تنشئتهم ونمو شخصياتهم ، بمختلف جوانبها ومقوماتها من خلال هذا الجهاز .

إن للتلفزيون ميزات خاصة عند الطفل يتفوق بها على وسائل الاتصال الأخرى .

من ميزاته : « أنه يستطيع نقل الخبرة والمعرفة في سن مبكرة وقبل غيره من الوسائل . ويمكن عن طريقه تقديم المعرفة (مثال ما تقدمه البرامج التعليمية) ، كما أن

(١٨) الإبراهيم ، م س ، ص ٥ .

الطفل يرى على شاشة التلفزيون مناظر خارجية أبعد من حدود البيت والبيئة المحيطة »[١٩] .

إن هذه الميزات إضافةً إلى طول الفترة التي يقضيها الطفل في مشاهدة المادة التلفزيونية تؤكد على أهمية ما يقدم من مضامين للأطفال .

« قد يتعلم الأطفال من التلفزيون الآداب الصالحة ، وقد يتعلمون زخرفة حجرة أو كيف يسطون على أحد المنازل ، ما يشاهدونه في التلفزيون ، وما يتعلمونه ، وكيف يفيدون منه يتوقف على الطفل ، كما يتوقف على طبيعة البرنامج ، فالأطفال إذن لا يقبلون على التلفزيون بقصد اكتساب المعرفة وإنما هم يريدونه أساساً لينسوا متاعبهم ويتخلصوا من الملل »[٢٠] .

ولقد استطاع التلفزيون في الوطن العربي أن يهيمن على الكثير من الفعاليات الإيجابية والسلبية التي يمارسها الأطفال ، كما أن معدل ساعات النوم انخفض بشكل واضح ، في حين أن الوقت الذي يقضيه الطفل في إعداد واجباته المدرسية وقيامه بالتنزه واللعب في الهواء قد أصابه هبوط وبالنسبة للأداء المدرسي ، فالدلائل التجريبية قليلة ، والقليل منها يشير إلى أن « التلفزيون يؤدي إلى تحسين الأداء المدرسي والقليل الآخر يشير إلى أن التلفزيون يؤدي إلى شيء من الهبوط في المستوى التعليمي . ومن المعروف أن هناك تناسباً عكسياً بين المشاهدة المكثفة والدرجات المدرسية ، أي أن المتأخرين دراسياً يشاهدون التلفزيون بكثافة عالية ، والسبب في ذلك حسب آراء علماء النفس أن المشاهدة المكثفة دليل مشاكل نفسية وتوترات انفعالية »[٢١] .

---

(١٩) التلفزيون وأثره في حياة أطفالنا ، ويلبر شرام ، ادوين باركر ، جاك ليل ، ترجمة زكريا سيد حسن ، ص ١٠٧ ـ ١٠٩ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة .

(٢٠) شرام ، م س ، ص ١٠٩ .

(٢١) الأطفال والتلفزيون ، نواف عدوان ١٩٧٩ ، مجلة البحوث ، المركز العربي للبحوث ، بغداد .

ونلخص أوجه التأثير التي يمكن أن يتركها التلفزيون بالأوجه التالية :

- يعمل التلفزيون على الإسراع في نمو عقلية الأطفال ؛ لأنه يعرض بصورة مبكرة مجالات جديدة من المعرفة ومشكلات كثيرة عن عالم الكبار ، كما ينشط خيال الأطفال ، ويفتح المجال لإثارة موضوعات حيوية تناقش فيما بعد على مختلف الأصعدة والمجالات .

ويعتبر التلفزيون بديلاً للخبرة الحقيقية ؛ ذلك أن الطفل الذي لا يتيسر له أن يشاهد عالم الغابة أو أعماق البحار ولا يسهل عليه حضور مباراة أو مهرجان يمكنه أن يشاهد ذلك وأكثر منه من خلال الشاشة الصغيرة ، فهو بهذا يقرب إلى الطفل البيئات البعيدة مثل الصحراء ، ويفسر بعض الظواهر الطبيعية النادرة (كالبراكين) في برامج الموسوعة ، وينقل الحضارة والتراث الحضاري والمخترعات والمكتشفات الجديدة إلى الطفل المشاهد .

كما يلبي حب الاستطلاع والمعرفة ، ثم إن المادة التلفزيونية تستجيب لدواعي الواقعية والخيال عند الطفل في وقت واحد معاً ، على اعتبار أن الواقعية تعني ما يدور حول الطفل من أشياء مادية في العالم الخارجي ، يمكنه استشعارها بحواسه الخمس ، بغض النظر عما يضيفه الطفل أو خياله من أشياء أخرى على هذا الواقع ، إذ تظل هذه الأشياء المضافة في إطارها الواقعي ، لأن انصراف الذهن إليها مرتبط بالخطوط العامة للحدث الواقعي اليومي في حين أن الخيال الذي تثيره المادة التلفزيونية عبارة عن تخيل ينجم عادةً من نشاطٍ ذهني فردي ، يرتبط بشكل أو بآخر بالخرافة أو الأسطورة في محاولة من الطفل لإشباع حاجة ما في نفسه ، وذهن الطفل عموماً يحتاج إلى كل ما يساعد على إطلاق خياله .

« ويتعلم الطفل عن طريق التلفزيون المهارات المختلفة مثل القراءة والحساب ومناقشة الآخرين ، وهو يتعرف على القيم والعادات والتقاليد التي يتميز بها مجتمعه إلى

جانب ذلك فهو يكتسب بعض المعرفة عن نظم وتاريخ الحضارة التي يعاصرها وأنماط السلوك التي سيتخذها مثلاً له كما يؤثر التلفزيون في مفهوم الأطفال عن الوظائف والأعمال ويثري معلوماتهم عنها ، ويساهم في تعليم المهارات الجسدية ، كما يعتبر التلفزيون أداةً مثيرة ومشجعة للنمو اللغوي أكثر من المؤثرات البيئية الأخرى ، « ولقد وجد أن التلفزيون يقلل من الفروق في القدرة اللغوية بين الأسر ذات المستويات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة »[٢٢] .

وتعتبر اللغة التي تقدم بها برامج الأطفال وسيلة فعالة للتواصل ، لذلك لا بد من معرفة متى تبدأ مخاطبة الطفل ؟ وما هي مستويات اللغة مقارنة مع عمره وثروته اللفظية ؟

كما يعمل التلفزيون على تنمية الجوانب الخلقية والاجتماعية وروح التعاون والعمل الجماعي عن طريق بعض المواد التلفزيونية الهادفة والمقدمة خصيصاً للأطفال « ويبث الروح الإنسانية من خلال بعض المسلسلات ذات الطابع الإنساني ، ويمنح الثقة للطفل بنفسه وبقدراته وقدرات الجماعة بما يقدمه من قدرة الجماعة في السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لصالحه »[٢٣] .

كذلك يؤكد للأطفال أهمية النجاح في الحياة ، كما يؤكد صفات كالمبادرة وحسن المظهر وأساليب النجاح وهي الأخلاق والعقل والثقة بالنفس .

ويشارك التلفزيون في بلورة وتغيير الاتجاهات والقيم من خلال إشارته لردود أفعال عاطفية ويتيح للأطفال أن يتعرفوا على أشياء كثيرة منذ صغرهم ، وتعريف الطفل بما هو جيد ورديء وما هو صحيح وخاطئ من ألوان السلوك ، ومن ثم يعمل على تنمية اتجاهات اجتماعية مرغوب فيها تتفق والقيم المقبولة في المجتمع الذي نعيش فيه .

(٢٢) عيسوي ، م س ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٢٣) التربية العامة ، كال بلان ، أحمد عرفة ، ص ٢٥٢ ، منشورات وزارة التربية ، دمشق .

إلى جانب آثار التلفزيون الإيجابية هناك آثار سلبية ، فقد وجد ويلبر شرام :

« أن التلفزيون يؤثر في نشاط الطفل في المجالات التالية : يقتطع من وقت اللعب ، ويؤخر النوم ، وينقص الوقت المخصص للواجبات المدرسية »[٢٤] .

وفيما مضى تساءلت ماري لوين هل هذا تلفزيون أم مخدِّرات ؟ وانتهت إلى أنه مخدِّرات تعود الطفل الاسترخاء العقلي ، وتبعده عن التركيز والفهم والخبرة الخيالية .

« كما أن للتلفزيون آثاراً جسدية تؤثر في الصحة الجسمية وآثاراً نفسية تؤثر في الصحة النفسية . ويقول مختصو أمراض العيون : « إن الجلوس على مسافة قريبة جداً من التلفزيون وتركيز البصر على الشاشة أو مشاهدة التلفزيون في حجرة مظلمة ، كل هذا يزيد من حدة الضوء الذي تستقبله العين ، وبذلك يعرضها للإرهاق »[٢٥] .

وقد ذكر مختصون نفسيون أن إدمان الأطفال على الجلوس أمام التلفزيون قد يسبب لهم أمراضاً نفسية وجسمية عديدة حيث تؤثر الذبذبات المرئية في جهاز المخ[٢٦] .

ومن سلبيات التلفزيون أيضاً :

١ - يلهي التلاميذ عن الدراسة ويحول دون مطالعة الكتب الثقافية والعلمية .

٢ - إن استمرار عرض الأعمال الإجرامية قد يوحي للأطفال مع الزمن بتقبل هذه الأعمال .

٣ - يدخل الأطفال إلى عالم الكبار ويتأثر بموضوعات خاصة بالراشدين .

---

(٢٤) شرام ، م س ، ص ١١٠ .

(٢٥) أثر وسائل الإعلام على تربية الأطفال ، د . عبد الغني عرفة ، كراس ٣٦ ، ص ٢٤ ، منشورات طلائع البعث ، دمشق .

(٢٦) المجلة العربية ، العدد ١١٥ ، نيسان ١٩٨٧ ، الرياض ، ص ٤٦ .

٤ ـ يبقى الطفل تحت رحمة ما يعرض من برامج مستوردة ويسلب منه حرية الاختيار .

٥ ـ لا يحقق التلفزيون مزايا التعليم المباشر ومنها :

أ : مراعاة المعلم للفروق .

ب : إتاحة المعلم الفرصة للطالب ليشارك في تقرير الدرس وأن يكون فعّالاً .

جـ : استثمار المعلم لروح المنافسة الفردية بين الطلاب .

وللتلفزيون مساوئ عديدة « إذا أُسيء اختيار البرامج الموجهة للاطفال وخاصة فيما يتعلق بأفلام الأبطال وكثيراً ما تحدق الأخطار بالأطفال ؛ لأنهم لم يعرفوا الحدود الدقيقة بين الخيال والواقع »[(٢٧)] .

ويشير الدكتور إمام إلى التلوث الناجم عن التلفزيون والذي وصل إلى كل أسرة تقريباً (حيث إن أثر التلفزيون على البيئة يكاد يكون من أخطر أنواع التلوث وأشدها إيلاماً وأكثرها تغلغلاً في النفوس وخاصة في نفوس الأطفال والشباب »[(٢٨)] .

إضافة إلى أن ما يعرض فيه من أفلام عنف ومغامرة تخيف الأطفال وتروعهم ويؤكد شرام : أن هناك ثلاثة مواقف كثيراً ما تسبب الفزع للأطفال أثناء مشاهدتهم لبرامج التلفزيون وهي :

١ ـ إذا وجد البطل الذي يستهوي الطفل أو ينال إعجابه في موقف يتهدده بالخطر .

٢ ـ وهناك موقف آخر يفزع الطفل عندما يتذكر أحد المخاوف التي مرت في حياته وخاصةً إذا ارتبط الموقف بالظلام والعزلة .

---

(٢٧) رحلة في عقل الطفل العربي ، ص ١٣٣ ، مجلة الفيصل ، ١٩٨٥ ، الرياض .

(٢٨) الإعلام الإذاعي والتلفزيوني ، إبراهيم إمام ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٩ ، القاهرة .

٣ ـ الموقف الثالث المخيف عندما يكون الطفل صغير السن إلى درجة لا يحتمل معها الموقف الذي يراه »(٢٩) .

إن القلق من تأثير التلفزيون في الأطفال أدى إلى نشوء حركة واسعة في دول العالم لتقويم تأثيره في شخصية الأطفال وفي سلوكهم ، وكان الخوف الرئيسي الذي يراود المسؤولين من أن يصبح الأطفال أكثر سلبيةً أو قلقاً أو خضوعاً أو انحرافاً نتيجة لمشاهدة التلفزيون ، إذا كان الحال كذلك في المجتمعات الغربية ، فكيف يكون الحال في الدول النامية التي تعاني من غزو ثقافي وإعلامي وتبعية إعلامية ، خاصة وأن معظم المواد التلفزيونية المقدمة للأطفال غير منتجة محلياً . « لذلك يجب إدراك خطورة وظيفة التلفزيون كوسيلة إعلامية وضرورة حماية أبنائنا من ألوان الانحراف التي قد تسيء إلى نفسياتهم ، وينبغي أن نوجه ونذكر بالاهتمام بالبرامج التي ترسخ القيم الروحية والجمالية والسلوكية والوطنية إلى جانب الاستزادة بفيض المعارف حول المعالم التاريخية والجغرافية وإضافة الخبرات الجديدة »(٣٠) .

٧ ـ التلفزيون وبرامج الأطفال في الوطن العربي :

« لقد أظهرت وقائع الندوة العربية الأولى حول برامج الأطفال التلفزيونية التي عقدت في بغداد ١٩٧٨ وتركزت على تحليل محتوى برامج الأطفال العربية ، أنه ، كان يوجد في الوطن العربي حتى ذلك الوقت حوالي عشرين محطة تلفزيونية ، وأن كلاً من هذه المحطات تبث للأطفال فترة يومية بحدود نصف ساعة وسطياً ، معنى ذلك عشر ساعات في اليوم مخصصة للأطفال (٣٦٥٠ ساعة سنوياً) ، وكشفت نتائج دراسات الندوة أيضاً ، أنه من أصل ساعات البث للأطفال قد خصص ١٥٠٠ ساعة بث لأفلام كرتونية أجنبية ليس فيها دقيقة باللغة العربية ، وخصص ١٥٠٠ ساعة أخرى من

(٢٩) شرام : م س ، ص ٢٤٦ .

(٣٠) علم الاجتماع الجماهيري وبناء الاتصال ، محمد إسماعيل قباري ، منشأة المعارف ، ١٩٨٤ ، الإسكندرية .

الأفلام السينمائية الناطقة بكل اللغات غير العربية ، بينما أظهرت تلك الندوة أن ساعات البث التي خصصت للإنتاج المحلي كانت بحدوده ١٠٠٠ ساعة »[٣١] .

« لقد قامت تلك الندوة بتحليل عينة عرضية من برامج الأطفال ، وخرجت بتوصيات حول مضمون برامج الأطفال من بينها التوصية الثانية في القسم الرابع من التوصيات والتي تقول : « إنتاج البرامج التلفزيونية بأسلوب هادف وإيجابي يدفع الطفل إلى المشاركة والتفاعل وجدانياً وعقلياً وديناميكياً مع مضمون البرنامج ويتأثر بأهدافه »[٣٢] .

وفي ندوة برامج الأطفال في التلفزيون التي عقدت في تونس خلال الفترة من ١٨ ـ ١٩٨٥/١٢/٢٠ ، حيث درست واقع برامج الأطفال التلفزيونية في الأقطار العربية أظهرت نتائجها :

« أن الأقطار العربية تستورد برامج الأطفال من الولايات المتحدة بنسبة ٣٠,٧٨٪ ـ وبريطانيا ١٥,٣,٩٪ ، ألمانيا الغربية واليابان وفرنسا وباقي الدول الأوربية بنسية ٧,٦٩٪ لكل منهم ، أما الإنتاج المحلي بنسبة ٧,٦٨٪ ، وفي هذه الندوة التي عقدت بعد سبع سنوات من السابقة توصية تقول بتكوين هيئة استشارية للتخطيط لبرامج الأطفال وتقييمها تضم مختصين في التلفزيون والتربية وعلم النفس والاجتماع والأدب والفنون والموسيقى »[٣٣] .

يبدو من خلال التوصيتين أنه خلال فترة السبع سنوات التي فصلت بين الندوتين لم يتم أي تغيير في برامج الأطفال ، وها نحن في عام ١٩٩٥ فهل تحركنا على مستوى الوطن العربي لإنتاج برامج هادفة علمية ـ ثقافية ـ أدبية ـ اجتماعية للأطفال ، وقلصنا

(٣١) برامج الأطفال التلفزيونية ، شريف الراس ، مجلة البحوث ، العدد ٢ ، المركز العربي للبحوث ، بغداد .

(٣٢) البيان الختامي للندوة العربية الأولى حول برامج الأطفال التلفزيونية ، ١٩٧٨ م .

(٣٣) مجلة الإذاعات العربية ، ص ٢٥ ، ١٩٨٦ م .

ولو نسبياً من استيراد بعض الأفلام والبرامج . ربما يكون هناك حركة في هذا المجال ولكنها غير كافية ولم تحقق النتائج المرجوة لتنشئة علمية اجتماعية ثقافية سليمة للطفل العربي .

ومن خلال ملاحظة ما يعرض من برامج وأفلام للأطفال في بعض التلفزيونات العربية ، يمكن القول : إن البرامج المحلية قليلة والأفلام الأجنبية المستوردة هي السائدة ، كما يلاحظ أن التلفزيونات العربية تعرض الأفلام نفسها ، فالدول المنتجة لهذه الأفلام تصدرها إلى كل الوطن العربي ، من هذه الأفلام (ساسوكي ـ غروندايزر ـ بباي ـ ريمي ـ الرجل الحديدي ـ سندباد ـ توم وجيري ـ سنان ـ زينة ونحول ـ هايدي ـ مغامرات عدنان ـ وغيرها) .

أما هل تتناسب مضامين هذه الأفلام وهل تنسجم مع أهداف وقيم المجتمع العربي ؟ لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا من خلال دراسة علمية[٣٤] .

برامج الأطفال في التلفزيون العربي السوري :

بدأ التلفزيون العربي السوري تقديم برامج الأطفال على القناة الأولى مع بداية افتتاحه في ٢٣ تموز ١٩٦٠ ، وكانت المدة اليومية للإرسال العام ثلاث ساعات ونصف ، خصص منها ساعة واحدة (الساعة السادسة من مساء كل يوم للأطفال وحتى السابعة) ، وكانت تعادل نسبة ٢٨,٦٪ من فترة البث الكلية .

ازدادت فترة الإرسال إلى خمس ساعات يومياً ثم ست ساعات ، إلا أن الفترة المخصصة للأطفال بقيت كما هي ، أي إن نسبة ما يقدم أصبحت تشكل (١٦,٧٪) من فترة البث الكلية ، استمرت فترة الإرسال الكلية بالازدياد إلى أن وصلت عشر ساعات ،

(٣٤) لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى كتاب دور التلفزيون في تنشئة الأطفال سياسياً في القطر العربي السوري ١٩٩١ م .

وهذه الفترة هي ذاتها المخصصة للبث التلفزيوني الآن (عدا يومي الجمعة والأحد ، حيث يبدأ الإرسال من الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، تضاف يوم الجمعة فترة إرسال صباحية) ، وتشكل النسبة المئوية لفترة الإرسال المخصصة للأطفال حالياً (١٠,٢٤ ٪) .

وفي اليوم الثاني لافتتاح التلفزيون قدم برنامج نادي الأطفال الذي أصبح برنامجاً أسبوعياً ، وقد تضمن النادي فقرات ثقافية ـ ترفيهية ـ اجتماعية ـ تعليمية ـ تاريخية ـ وجغرافية ـ تعمل على توجيه الطفل نحو المبادئ الأساسية للقيم الأخلاقية والاجتماعية إضافة إلى تقديم فقرات تعليمية (تعليم اللغتين الفرنسية والإنجليزية من قبل أساتذة متخصصين) .

وقدم النادي أيضاً دروساً في وسائل الإيضاح والأشغال اليدوية ، قدم من قبل مذيعة متخصصة ، ثم توالى على النادي مجموعة من المقدمين والمعدين حتى عام ١٩٧٩ م .

كما قدم التلفزيون العربي السوري مجموعة من البرامج منها :

١ ـ المسرح الصغير : وهو برنامج أسبوعي ، وكل حلقة عبارة عن حكاية تضم شخصيات مختلفة يؤكد على قيم تربوية وإنسانية .

٢ ـ الكأس الفضي : برنامج مسابقات (يدور حول المقررات الدراسية إلى جانب معلومات ثقافية عامة ، وكان المتسابقون من تلاميذ المدارس الابتدائية) .

٣ ـ العلماء الصغار : برنامج علمي قدم تجارب علمية للأطفال .

٤ ـ حكاية جدو : حكاية أسبوعية كان يقدمها أحد الفنانين .

إن المواد التي قدمت للأطفال كانت تدور حول واقعهم المعاشي ومن بيئتهم ، مواد حية ومباشرة ، ولغتها تتناسب وأعمارهم .

لقد شارك الأطفال في تقديم هذه البرامج بكل إتقان ، وكانت مضامين تلك البرامج من بيئة الطفل ، لذلك تفاعل معها وكان ينتظرها ، فمن خلالها يتعرف على أصدقاء جدد ويكتسب معلومات جديدة .

يلاحظ من خلال هذه المواد المقدمة للأطفال غزارة المادة المحلية ، أما المواد المستوردة فكانت تعرض بعد مراقبتها ، وبشكل تخدم فيه المواد المحلية ولم تتجاوز مدة تقديمها خمس أو عشر دقائق ، مرة في الأسبوع وضمن برنامج نادي الأطفال الأسبوعي .

وفي التلفزيون العربي السوري حالياً تبث القناة الأولى البرنامج العام فترة للأطفال مدتها ساعة واحدة يومياً باستثناء يومي الجمعة والأحد فتصبح الفترة ٩٠ دقيقة يطلق عليها (برامج الأطفال) ، على الرغم من أن ما يقدم ضمنها لا ينطبق عليها التحديد الدقيق لمفهوم البرنامج ، فهي تتضمن فقرات للتسلية ، فقرات تربوية وتوجيهية وأفلاماً ، تتفاوت في مضامينها التربوية ، إنها تهتم بالأطفال وموجهة إليهم وتدور حول تربيتهم وتنمية مقومات شخصياتهم .

وفي دراسة ميدانية لدراسة المواد التلفزيونية الموجهة للأطفال في التلفزيون العربي السوري خلال الفترة الممتدة ما بين عام ١٩٨٣ وحتى نهاية ١٩٨٧ ، حيث اعتبرت المواد التي عرضت على الشاشة خلال فترة البحث ، هي المجتمع الأصلي للبحث والذي اختيرت منه العينات ، وصنفت حسب تصنيفات علمية إلى مسلسلات ـ مسرحيات ـ أفلام ـ برامج .

وقد تمَّ اختيار عينة الأفلام والمسلسلات بموجب الطريقة العشوائية الطبقية النسبية لأنها تمثل المجتمع الأصلي أفضل تمثيل ، وقد أخذ بعين الاعتبار سنة عرض الفلم وطريقة عرضه .

وقد تبين من خلال النتائج أن مضامين الأفلام والمسلسلات المعروضة تتناسب مع

إيديولوجيا الدول المنتجة ، ومع قيمها واتجاهاتها التي تؤكد على الإنسان الفرد « وتبين أن الهوة كبيرة بين مضامين الأفلام وبين التنشئة التي يحتاجها القطر لأطفاله ، تنشئةً وطنيةً إنسانيةً تستمد أطرها من أهداف المجتمع العربي السوري ومبادئه وقيمه »(٣٥)

كما عملت الدراسة على تحليل مضمون العينة الثانية وهي عينة البرامج ، ومن خلال النتائج تبين أن البرامج المحلية المعروضة ليست بالمستوى المطلوب لما يجب أن يقدم به البرنامج للطفل في القطر العربي السوري ، وكذلك فإن بعض المواد المقدمة للأطفال لا تتكامل مع ما تقدمه مؤسسات التنشئة الأخرى كالمدرسة ومنظمة الطلائع(٣٦) .

ومن هنا يتبين لنا أهمية الانفتاح على الثقافات الأجنبية ، شرط أن يكون هذا الانفتاح واعياً ومدروساً ، بحيث لا تحمل الأفلام المستوردة قيماً تتعارض مع مجموعة القيم التي تتوافق وأهداف التنشئة . والسؤال المطروح : هل ما يقدم من مضامين لكل الأطفال على امتداد الوطن العربي ينسجم مع واقعهم وخصائصهم النفسية والاجتماعية ؟ وهل تتناسب هذه المضامين مع أهداف وقيم المجتمع العربي ؟ وهل هذه المضامين كافية لتنشئة الطفل تنشئة علمية وثقافية واجتماعية وإنسانية ؟

لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا من خلال دراسات وأبحاث علمية ميدانية ، ولكن يمكن القول إن وسائل الاتصال الجماهيري تتنوع وتسهم في بناء شخصية الطفل وفي تنشئته . وإن ما يقدم حالياً من مسلسلات وأفلام كارتونية مستوردة بحاجة إلى مراقبة دقيقة من قبل مختصين بعلم النفس والاجتماع والتربية ، لمعرفة مدى تأثير هذا النوع من الأفلام والمسلسلات على الأطفال ، سواء من ناحية الشكل أو المضمون .

وقد أصبح من الضروري إعادة النظر (من قبل المسؤولين والمهتمين بإعلام وثقافة الأطفال) بالبرامج المحلية لتحقق أهدافها بشكل سليم ومدروس . وأن تُهيأ الأُطر المتخصصة والمخلصة في عملها للأطفال .

---

(٣٥) دكاك ، م س ، ص ٢٠٧ .

(٣٦) دكاك ، م س ، ص ٢٢٩ .

الخاتمة

إن وسائل الاتصال الجماهيري ومضامينها الموجهة إلى الأطفال من خلال (الإذاعة - الصحافة - التلفزيون ... إلخ) هي جزء من التنمية الشاملة التي تتناول جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والإنسانية ، بأوسع وأشمل معانيها . ويعتبر التفكير العلمي والقدرات الإبداعية من عوامل تحرير المجتمع من أي شكل من أشكال التبعية ، وتحقيق الأهداف التنموية ، وإذا كانت الدول الأجنبية تدعو إلى حماية ثقافتها فحري بالبلاد النامية ومنها الوطن العربي أن يحافظ على ثقافته الوطنية ، وأن يخرج من حصار التبعية الإعلامية التي هي جزء مكون من منظومة التبعية بوجه عام والتي تتعارض مع مصالح البلدان النامية وأهدافها الأساسية .

إن السعي لتنشئة الأطفال تنشئةً سليمةً يتطلب أن تولي الأجهزة المسؤولة عن ثقافة الطفل عناية قصوى للطفل العربي ، وأن تركز على مسألة بحث التفكير العلمي وتربيته لدى الأطفال ، وهذه مهمة كبيرة تقع على عاتق مؤسسات التنشئة (المدرسة ، الأسرة ، وسائل الاتصال الجماهيري) ، فهل تسعى هذه الوسائل من خلال ما تقدمه من أجل تنشئة سليمة ؟ لا بد من دراسات علمية ميدانية للتأكد من ذلك .

من خلال ما تقدم ، ومن متابعة ما يقدم للأطفال ، تبين أن معظم المضامين المقدمة من خلال وسائل الاتصال الجماهيري لا تشجع الطفل على طلب المعرفة ، ولا تنمي خياله ومعرفته ، لذلك يندفع إلى مشاهدة برامج الكبار في التلفزيون وسماع بعض البرامج الإذاعية التي لا تخصه أيضاً ، ويطلع على مجلات مختلفة المصادر .

إذن لا بد من التركيز على مضامين وسائل الاتصال وخاصة التلفزيون ، والعمل على إعداد وتقديم برامج محلية مدروسة بشكل علمي واجتماعي وتربوي سليم من قبل مختصين في هذا المجال ، وأن تتلاءم مضامين هذه الوسائل الاتصالية مع أهداف وخطط

التنمية ، وأن تخلق هذه البرامج علاقة اتصال بين الطفل وبين ما يقدم له ليكون مشاركاً وليس مشاهداً فقط .

وهذا يتطلب أن تلحظ الحكوماتُ الأطفالَ عند وضع خططها ، وأن يدخل الأطفال ضمن مجالات اهتمامات الوزارات المعنية بالطفل بشكل عام (الصحة ، الثقافة ، الإعلام ، التربية وغيرها) .

وفي عصر الانفتاح على ثقافات مختلفة من خلال محطات تلفزيونية أصبح الطفل يدير مفتاح التلفزيون من محطة إلى أخرى ، فلا بد من وقفة وعودة إلى الكتاب والاهتمام بالكتب شكلاً ومضموناً ، والحث على مطالعة القصص والكتب الجيدة .

وهنا يبرز دور الأسرة والمدرسة بشكل كبير في إعادة تنظيم وقت الطفل وعندها لن يسرق منا التلفزيون أعز ما نملك ـ الطفل ـ ثروتنا وأملنا ومستقبلنا .

من هنا نجد أن يبدأ وطننا العربي بمهمته الكبيرة في وضع سياسة متكاملة لتنشئة الأطفال وفق استراتيجية واقعية بعيدة المدى تحدد ضمنها الأولويات التي ينبغي مناقشتها والعمل بها ، والحاجات التي يحققها الطفل من تلك الوسائل ، كما تحدد نوعية الوسائل الاتصالية ومضمونها والأمور التي تجعلها موائمة لأساسيات التنشئة ، كذلك تحدد الأهداف التي ينبغي العمل من أجلها على أن يسير هذا في اتساق مع برامج التنمية البشرية في المجتمع وتعاون بينها .

مراجع البحث

١ ـ إمـــام ، إبراهيم : (١٩٧٩) الإعــلام الإذاعي والتلفــزيــوني ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

٢ ـ الإبراهيم ، حسن : (١٩٨٥) التلفـزيـون والمهمـة الصعبـة ، تقرير فصلي للجمعيـة الكويتية لتقدم الطفولة العربية ، العدد الرابع ، الكويت .

٣ ـ اتفاقية حقوق الطفل : (١٩٩١) الأطفال أولاً ، يونسيف ، دمشق .

٤ ـ بلان ، كمال ، أحمد عرفـة : (١٩٨٣) التربيـة العـامـة ، منشورات وزارة التربيـة ، دمشق .

٥ ـ البيان الختامي : (١٩٧٨) برامج الأطفال ، الندوة العربية الأولى ، بغداد .

٦ ـ تركي ، مصطفى أحمد : (١٩٨٤) وسـائل الإعلام وأثرهـا في شخصيـة الفرد ، عـالم الفكر ـ المجلد الرابع ، الكويت .

٧ ـ أبو الحب ، ضياء الدين : (١٩٧٩) برامج الأطفال التلفزيونيـة ، مجلـة البحوث ـ المركز العربي للبحوث ، بغداد .

٨ ـ دكاك ، أمل : (١٩٩١) دور التلفزيون في تنشئة الأطفال سياسياً في القطر العربي السوري منشورات وزارة الإعلام ، دمشق .

٩ ـ الراس ، شريف : (١٩٧٩) برامج الأطفـال التلفزيونيـة ، مجلـة البحوث ـ العـدد (٢) ، المركز العربي للبحوث ، بغداد .

١٠ ـ السيد ، فؤاد البهي : (١٩٧٥) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

١١ ـ شرام ، ويلبر ، ادوير بـاركو ، جـاك ليل : (١٩٦٥) التلفزيون وأثره في حيـاة أطفالنا ، ترجمة زكريا سيد حسن ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة .

١٢ ـ صـالـح ، أحمـد زكي : (١٩٦٦) علم النفس التربـوي ، النهضـة المصريـة ط٩ ، القاهرة .

١٣ ـ عيسوي ، عبد الرحمن : (١٩٧٩) الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون العربي ـ الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة .

١٤ ـ عدوان ، نواف : (١٩٧٩) الأطفال والتلفزيون ، مجلة البحوث والمركز العربي للبحوث ، بغداد .

١٥ ـ عبد الله ، عبد الله : (١٩٨٥) رحلة في عقل الطفل العربي ، مجلة الفيصل ، الرياض .

١٦ ـ عرفة ، عبد الغني : (كراس ٣٦) ، منشورات طلائع البعث ، دمشق .

١٧ ـ قباري ، محمد إسماعيل : (١٩٨٤) علم الاجتماع الجماهيري ، وبناء الاتصال ، دراسة في الإعلام واتجاهات الرأي العام ـ منشأة المعارف ، الإسكندرية .

١٨ ـ القوصي ، عبد العزيز : (١٩٧٥) أسس الصحة النفسية ، النهضة العربية ، القاهرة .

١٩ ـ اللقاني ، فارون عبد الحميد : (١٩٧٦) تثقيف الطفل ، فلسفته ، أهدافه ـ مصادره ووسائله ، منشأة الإسكندرية .

٢٠ ـ المجلة العربية : (١٩٨٧) ، العدد ١١٥ ، الرياض .

٢١ ـ المجلس العربي للطفولة والتنمية : (١٩٩٠) واقع الطفل في الوطن العربي .

٢٢ ـ مجلة الإذاعات العربية : (١٩٨٦) ، ص ٢٥ .

٢٣ ـ ندوة الإعلام من أجل التنمية في الوطن العربي ، ١٩٨٤ ، الرياض .

٢٤ ـ همام ، طلعت : (١٩٨٤) سين ، وجيم عن علم النفس التطوري ، مؤسسة الرسالة ، دار عمار .



CHILDREN'S EDUCATION
Reality & Horizons
Thaqāfat al-Ṭifl, Wāqiʻ Wa-Āfāq

مع تنامي الاهتمام بثقافة الطفل تتعدد الآراء، وتختلف التصورات الدائرة حول أسسها وواقعها وآفاقها، وأهم هذه التصورات ما استند إلى أسس علمية وتربوية وتجريبية، لتكون مادة للنقاش والتداول أولاً، واستنباط الأسس والطرق السليمة ثانياً. وهذا الكتاب الذي يحوي عدداً من الدراسات المتعرضة لجوانب ثقافة الطفل، يقدم تصورات وآراء متعددة، متآلفة ومتباينة، مشتركة في المحور، ومختلفة في تناول جوانبه، ولذالك فهو إضافة هامة جداً لمجاله.

والدار الناشرة تقدم هذه التصورات على رأي أصحابها، وغايتها أن يقوم القارئ بتمحيصها والتمعن فيها، لتكون مرجعاً لدراسته، أو مصدراً لتوثيق معرفته وزيادتها، أو مجالاً لمقارناته ومثاراً لتفكيره، وخير قراءة هي القراءة النقدية الموضوعية، التي تثمن الثمين، وتنبذ الغث، وادّعاؤنا بأن الكتاب ثمين ليس من قبيل الادّعاء فقط، ولا من قبيل الاكتمال التام، ولكنه ثمين بتنوع موضوعاته وتصوراته.

وأهمية محوره الذي يدور حول ثقافة شريحة كبيرة من حاضرنا إضافة إلى كونها شريحة كبيرة وفاعلة في مستقبلنا، وهم أطفال اليوم، رجال ونساء الغد.



Ibrāhim Maḥmūd
Dr. Amal Dakkāk
Bāsimah al-ʻAsalī
ʻAbd al-Tawwāb Yūsuf
ʻAbd al-Razzāq Jaʻfar
ʻAbd Allāh abū Hif
ʻAbd al-Wāḥid ʻAlwānī

Edited by
ʻAbd al-Wāḥid ʻAlwānī

Dar Al-Fikr
414S. Craig St. #269
Pittsburgh, PA 15213
USA
Phone: (412) 441-7768
Fax: (412) 441-8198
e-mail:info@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-221-X

